محاضرات في الأدب الإسلامي والأموي

مدرس المساق

د.يوسف شحدة الكحلوت

1430هـ - 2009

محاضرات في الأدب الإسلامي والأموي

مدرس المساق

د.يوسف شحدة الكحلوت

1430هـ - 2009

محاضرات
في الأدب الإسلامي

الجزء الأول

1430هـ - 2009 م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد الصادق الأمين و على آله وصحبه أجمعين ، وبعد ،،

فإني أقدم هذه الصفحات المطبوعة _ التي أخذتها من كتبها الأصلية _ إلى طلبة مساق الأدب الإسلامي والأموي ، ليسهل تناولها من قبل طلبتنا الأعزاء.

والكتب التي تم الأخذ منها هي:-

1- دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي: د. محمد عبد القادر أحمد ، مكتبة النهضة المصرية ، ط1,1986.

2- دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي: د. محمد عبد القادر أحمد ، مكتبة النهضة المصرية ، ط1,1986.

3- العصر الإسلامي: د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، ط4.

4- نماذج في النقد الأدبي وتحليل النصوص: إيليا سليم الحاوي ، دار الكتاب اللبناني ، 1996.

5- في القصيدة الجاهلية والأموية – درس تحليلي: د. عبد الله القطاوي ، مكتبة غريب.

6- جرير: محمد إبراهيم جمعة ، دار المعارف ، ط5.

والله وحده أسأل العون والتوفيق والهداية ، إنه نعم المولي ونعم النصير.

الباب الأول

العصر الإسلامي[1]

(1) دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي: د. محمد عبد القادر أحمد

الفصـــل الأول

عصـــر صـــدر الإســـلام

- أثر القرآن الكريم في اللغة.
- أثر القرآن الكريم في الأدب.
- أثر الحديث الشريف في اللغة والأدب.

عصر صدر الإسلام

عصر صدر الإسلام هو العصر الثاني من عصور الأدب العربي ، ويبدأ ببعثة الرسول- ﷺ - عام 610م ، وينتهي بانتهاء عصر الخلفاء الراشدين، وقيام دولة بني أمية عام 41هـ ، ومدته ثلاثة وخمسون عاماً هجرياً.

ويعد هذا العصر من أعظم العصور الإسلامية أثراً فقد انتشرت فيه دعوة الإسلام الذي أخرج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان وهداية الحق ، ورسم لهم طريق الفضيلة والخير ، وجعل المؤمنين أخوة متحابين لا تفسد نفوسهم الضغينة والحقد ، ولا تطمس بصيرتهم عوامل الصراع والكراهية والأثرة. **(وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم)**.

لقد أثر الإسلام في حياة العرب الاجتماعية فأبطل الشرك والوثنية ونادى بالتوحيد وأبطل أكثر المعتقدات والعادات التي كانت شائعة في الجاهلية كالاعتقاد بالكهان والعرافين وحرم الخمر والميسر والاستقسام بالأزلام والمعاملة بالربا ، ووأد البنات خوف العار أو الفقر والأخذ بالثأر، وحرمان المرأة من الميراث، وفي كل ذلك كان يهدف الإسلام إلى سعادة الفرد والأسرة في نطاق المجتمع المحلي، وعلى مستوى الأمة الإسلامية لتحقيق قول الله فيها:

(كنتم خير أمة أُخرجت للناس).

كان للقرآن الكريم أثر كبير في حياة العرب من شتى الوجوه ، ويهمنا بالدرجة الأولى أن نبين هذا التأثير من ناحية اللغة والأدب، فالقرآن كتاب معجز أحال خشونة الطباع عذوبة وسلاسة، وبدل حوشية الألسنة سهولة وبلاغة ، وأورث العرب وضوحاً في التفكير، ورقة في التعبير والتصوير، وروعة في الحجة ، ورقة في الأسلوب، وشرفاً في الغرض، ونبلاً في المقصد ، أنزله العليم الخبير ليهدي

الناس به إلى الحق والخير ، ويدلهم على الصلاح والرشد، ويوجههم في الحياة الوجهة البرة التقية ، كل ما فيه آيات بينات وحكم بالغات ومواعظ ساميات ، تخشع لها النفوس العاتية ، وتخر أمامها الجباه المتأبية ، وتسجد لجلالها وروعتها الأفئدة المستعصية ، أنشأ من العدم أمة ، وجعل لها بين الخافقين[1] صولة وقوة ، فعاشت به منيعة الجانب قوية السلطان نافذة الكلمة، وقد وصفه الرسول r بقوله عنه: **" فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم. وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله . هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم "**.

نزل القرآن بلسان عربي مبين فراع العرب سحره ، وبهرهم أسره ، وأخذ بمجامع قلوبهم بيانه الساحر ، وأسلوبه المعجز القاصم ، فتوهموه سحراً وما هو بالسحر، وظنوه شعراً وليس بالشعر ...

(وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً . قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً)[2] .

وادعوا أن رجلاً[3] يعلم الرسول الكتاب والحكمة ويلقي إليه بما يطالع الناس به من رائع الآيات ومحكم البينات: **(ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)**.

---

[1] الخافقان: أفقا المشرق والمغرب لأن الليل والنهار يخفقان فيهما.

[2] سورة الفرقان آية 5.

[3] قيل هو سلمان الفارسي ، وقيل غلام كان لحويطب بن عبد العزى ، وقيل غير هؤلاء.

ولقد طول طغاتهم وجهد عتلتهم أن يصرفوا الناس عن هدايتــه، ويحولــوا دون الخضوع لسحره والإنصات لبيانه ، فما استطاعوا:

(وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون).

وهذا القرآن الذي حاربوه وحاولوا أن يطفئوا نوره ، هو الذي أملــى علــى أولئك الخصوم الألداء تلك الشهادة البالغة الدامغة ، والفضل ما شهدت به الأعداء ، فالوليد بن المغيرة العنيف الخصومة ، الشديد البغي حين سمع الرسول يتلو جــزءاً من القرآن روع بسماعه وأخذ الحق عليه أقطار نفسه ، واستولى على مجامع قلبــه قال: " **والله لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن علاه لمغدق ، وإن أسفله لمثمر ، ومــا هو بقول بشر**".

لقد كان العربي الموغل في عناده ، الممعن في عتوه وفساده يسمعه فيدخل على قلبه بلا إذن ، ويتمكن من نفسه دون جهد ، ويملك أسماعه جمال وقعه وحسن جرسه. فهذا هو عتبة بن ربيعة ، يذهب إلى رسول الله - ﷺ - ليلويه عن قصده ، ويثنيه عن رسالته ويقول له : " **يا محمد أأنت خير أم هاشم ؟ أأنت خيــر أم عبــد المطلب ؟ أأنت خير أم عبد الله ؟ فيم تشتم آلهتنا ، وتــسب أحلامنــا ، وتــضلل عقولنا ، فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا ، وإن تك بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش شئت ، وإن كان بك المال جمعنــا لك من أموالنا ما تستغني به ، يقول عتبة: " هذا ورسول الله ساكت ، فلما فــرغ من حديثه قرأ عليه محمد ﷺ قوله تعالى: "بسم الله الرحمن الرحيم: (حم تنزيلٌ من الرحمن الرحيم ، كتابٌ فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيراً ونــذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليــه وفــي**

آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل فإننا عاملون ، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين الذين لا يُؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) إلى أن بلغ قوله تعالى: (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مِثْلَ صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم أَلا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون) . وهنا ارتعد جسم عتبة ، وتساقطت نفسه رعباً وفزعاً ، وصاح قائلاً: "**نشدتك الرحمة يا محمد أن تمسك ، وأمسك بفم الرسول**".

فهذا رجل ملكت عليه بلاغة القرآن أقطار نفسه فلم يتمالك من أن يصيح مناشداً الرسول أن يكف. ثم عاد إلى قومه وقال : "**لقد سمعت منه كلاماً ما بشعر ولا كهانة ولا سحر ، ولما بلغ صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمداً قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب**" .

وهكذا كان يغزو القرآن كل قلب ، ويصل إلى مكان الرضى والإعجاب من كل نفس ، حتى لقد سمع فاتك من فتاك الليل قارئاً يرتل في جنح الليل قوله تعالى : **(ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون)**. فرق قلبه وخشعت جوارحه ، واجتذبته روعة القرآن وبلاغته فصاح من أعماقه قائلاً: " **قد آن يارب**" ثم أقلع عن سيرته وتاب عن آثامه ومعاصيه . وسمع آخر قوله تعالى: **(وفي السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون)**. فصاح: "**يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف**"، **لم يصدقوه بقوله حتى ألجؤه لليمين.**

وسمع بعض الأعراب قارئاً يقرأ: **(فاصدع بما تؤمر)** فسجد، وقال:"**سجدت لفصاحته**". وأنصت بعضهم إلى قوله تعالى: **(فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا)** ، فقال: "**أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام**".

وهكذا كل من ينصت إلى كلام رب العزة يلمح فيه سمو البلاغة، وإعجاز البيان، ونضارة الأسلوب. وقد جاء إعجازه من جهة أسلوبه وما فيه من خصائص ومميزات يستحيل أن تتهيأ لبشر.. ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. فالقرآن نمط فريد معجز لم يأت على نسق نص سابق، ولن يأتي بعده مشابه له ، ولم يستطع أن يقلده أحد فهو ليس شعراً موزوناً ولا سجعاً مقفى، إنما نسيج فريد فصلت آياته من لدن حكيم خبير، وأنَّى لأحد أن يقلده. وقد تحدى القرآن العرب أن يأتوا بمثله فعجزوا ، وجاء التحدي في قوله: **(فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين)**. وقوله: **(أم يقولون افتراه قل فائتوا بسورة من مثله)** .ثم تدرج معهم فطلب إليهم أن يأتوا بعشر سور: **(أم يقولون افتراه قل فائتوا بعشر سور مثله مفتريات)** . ثم تدرج معهم فطلب منهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فعجزوا أيضاً: **(وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فائتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)** . ثم حسم القرآن الموقف فأعلن أنهم سيعجزون عن ذلك ولو حاولوه:**(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)**.

ويتجلى إعجاز القرآن من الناحية الأدبية في كونه أروع نص أدبي من الناحية البلاغية والأسلوبية فقد جمع أساليب العرب في الجاهلية وعصر الدعوة. ففيه نثر فني رائع بصوره المختلفة من مرسل ومسجوع. وبسببه وجدت علوم اللغة العربية وستظل تنهل من معينه الذي لا ينضب، لأنه صورة متكاملة للغة العربية بفصاحتها وقوتها التعبيرية وطاقتها البيانية.

ويمكن أن نجمل الآثار المباشرة التي أحدثها القرآن الكريم في اللغة والأدب فيما يلي:

أولا: أثر القرآن في اللغة:

1- وحد لغة العرب ، في لهجة كانت لها السيادة هي لهجة قريش ، فالقرآن هو الذي جمع العرب على هذه اللهجة فكان له أثره في تركيز اللهجات وتوحيدها في لهجة واحدة ، لأن العرب لو لم يجتمعوا على لهجة قريش لأصبحت لهجة كل قبيلة بفعل الزمن لغة مستقلة كما استقلت لهجات السامية وأصبحت لغات مستقلة: كالعربية والعبرية والسريانية والآرامية. والأمر الثابت أن كل قبيلة في شمال الجزيرة العربية كانت لها لهجتها الخاصة تتحدث بها حديثها اليومي العادي، وقد تقترب هذه اللهجة المحلية من لهجة قريش أو تبتعد عنها تبعاً لصلاتها القوية أو الضعيفة بقريش، أو تبعاً لقربها وبعدها عن مكة. والشعراء وحدهم في القبائل العربية الشمالية هم الذين اتخذوا لهجة قريش لساناً يقولون به شعرهم طلباً للشهرة والخروج بأنفسهم من دائرة الشعراء المحليين إلى دائرة الشعراء الذين تتغنى بشعرهم الركبان في الجزيرة كلها ونتيجة لذلك اختفاء أكثر المميزات والخصائص اللغوية للهجات القبائل من شعر شعرائها.

لقد كرم الله لغة قريش بإنزال القرآن بها فجعل ذلك لها السيادة الكاملة فصارت اللغة الرسمية للبلاد لا في لغة الشعر فحسب بل وفي لغة الحديث العادي واليومي لأن الناس أخذوا يقرؤون ما نزل من القرآن ويتلونه أينما ذهبوا وحيثما حلوا في بيوتهم وصلواتهم ومجتمعاتهم وفي خلواتهم فتأثروا به وأخذت الفروق الفردية بين اللهجات تتلاشى وتختفي رويداً وبذلك توحدت لغات العرب في لغة قريش، إيماناً بالقرآن وحرصاً عليه، وإعجاباً به ورغبة في الاستفادة بأسلوبه.

2- ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل عمل القرآن على نشر اللغة العربية وذيوعها وجعلها لغة عامة رسمية في شتى البلاد والممالك التي فتحها المسلمون فهو الذي غير لغة اليمن إلى العربية وانتقل دعاة الدين الجديد وحفظة القرآن إلى الشام ومصر وليبيا والمغرب وعبروا إلى الأندلس فاستبدل أهل هذه الديار بلغاتهم اللسان العربي المبين، وأصبحت لغة الدين والسياسة والأدب لأهلها الذين اضطروا إلى هجر لغاتهم وتعلم العربية لتفهم الدين الجديد والدعوة إليه ، ثم صارت اللغة

العربية لغة عالمية فقد أخذ طلاب المعرفة من العالم البعيد يتعلمونها لينهلوا من علومها في عصور العرب الذهبية الفكرية بعد ذلك ويوم أن كان ظلام الجهل يضرب أطنابه على قارات الدنيا وينيرها الإسلام بفكره وقيمه وآدابه.

3- استحدث القرآن في اللغة معانٍ جديدة لم تكن تعرفها من قبل بل لم تكن تعرف التعبير عنها كالدعوة إلى الوحدانية وسوق الأدلة عليها ، وحديث الدار الآخرة وما فيها من بعث ونشور فقد أفاض الإسلام على اللغة العربية بمضامين كثيرة فيها كل الخير للناس وللبشرية جمعاء، كما جاء القرآن بألفاظ جديدة مستحدثة لم تكن معانيها الشرعية الإسلامية معروفة قبل ذلك من مثل: الإسلام والشرك والنفاق والإيمان والكفر والصوم والصلاة والزكاة والتيمم والركوع والسجود ... وغير ذلك ، وبذلك كثرت المعاني ، وارتقت لأنها عاشت في رحاب القرآن وفي ظلام الفتوح ، حيث ارتقى الفكر ، وتثقف بالنظر الصحيح في أمور الدين وشئون الحياة.

4- أحدث القرآن كثيراً من العلوم اللغوية والشرعية وبفضله بدأت عند العرب حركة فكرية واسعة واتسعت دائرتها فشملت اللغة والنحو والصرف والقراءات والتفسير والأصول والتوحيد والفقه والأدب والبلاغة والنقد وكان القرآن مركز الدائرة لكل هذه الدراسات ، فلم يكن حرص العرب على اللغة العربية الفصحى وتنقيتها من الشوائب ومعرفة أسرارها وتشددهم في المحافظة عليها إلا رغبة منهم في حفظ لغة كتابهم المقدس ليظل مفهوماً مقروءاً . ولم تكن لغة القرآن من اليسر والقرب بحيث يفهمها جميع القرشيين ، بل العرب كافة. وقد حملت الرغبة في فهم معاني بعض الألفاظ التي وجدت في القرآن الكريم والحديث الشريف علماء اللغة في القرنين الأول والثاني من الهجرة إلى الرحلة إلى البادية للوقوف على معاني هذه الألفاظ وتلك التعابير ، ومن هنا وجد ما سمي "غريب القرآن" الذي صنفت فيه كثير من الكتب.ونستدل على هذا مما يرويه السيوطي في الإتقان إذ يقول: "فهذه الصحابة ، وهم العرب الغرباء وأصحاب اللغة الفصحى ومن نزل القرآن عليهم

وبلغتهم ، توقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها فلم يقولوا فيها شيئاً ".والمفسرون وقفوا حياتهم لتفسير كتاب الله ليفهم بعض أسراره المسلمون.

5- صار الشعر عوناً للناس على فهم القرآن وتفسيره ، جاء ابن عباس ليقول للناس :" إذا صعب عليكم شئ من معاني القرآن فالتمسوه في الشعر، فالشعر ديوان العرب" . ومن ثم بدأ الناس يهتمون بجمع الشعر للاستشهاد به على معاني الغريب من ألفاظ القرآن ونتيجة لذلك ظهرت الدواوين ، وجمعت الشواهد ، ودرس الشعر وقد رُوي أن أعرابياً ظلمه أخوه فشكاه إلى ابن عباس قال:

تخوّفني مالي أخٌ لي ظالم فلا تخذلني المال يا خير من بقى

فقال له ابن عباس (تخوفك) بمعنى تنقَّصك، قال الأعرابي: نعم هكذا قصدت فقال ابن عباس: الله أكبر هذا شاهد من قول العرب لقوله تعالى: **(أو يأخذهم على تخوف)** أي ينقص من خيارهم. وحين انتظمت الدراسات وتحددت النظريات عند العرب في القرن الرابع الهجري ، وأخذت دراساتهم تقوم على أصول محددة وقواعد مقننة كان للدراسات البيانية في أسلوب القرآن حظ عظيم من الدراسة إلى جانب الدراسات النقدية والبلاغية فبدأت دراسات الإعجاز وعلومه تبحث الإعجاز القرآني من ناحيته البيانية والبلاغية . ويستطيع الباحث أن يستعرض ألوان المعارف وأنواع العلوم التي نبعت من البحث في القرآن وذلك في كتاب: " الإتقان في علوم القرآن" للسيوطي.

6- كان للقرآن أثر قوي في هجر الألفاظ الوحشية والتراكيب المستغربة والزراية بنافرها ومستغربها ، هذب ألفاظها بمحاكاة ألفاظه ،وبذلك أبعدت الألفاظ التي ينفر منها الذوق القويم ، والطبع السليم. فقد فقد ردد العرب ألفاظه وعباراته فاتسع نطاقها وانفسح مجالها بالتوسع في استعمال دلالة بعض الألفاظ بإخراجها من معنى إلى معنى بينه وبين الأول مناسبة ، ومن تلك الألفاظ التي استعملها الشارع من غير معناها الأصلي الصلاة، والصيام ، والزكاة، والمؤمن ، والكافر والفاسق

، والمنافق وغير ذلك . وماتت بعض الألفاظ لأن الشارع منع استعمال مدلولاتها وأعاض منها غيرها (كالمرباع[4] ، والنشيطة[5] وعم صباحاً ، وعم مساءً).

7- حفظ القرآن اللغة من العفاء والانقراض كما انقرضت من قبل لغات كثيرة وذلك بفضل خلود القرآن وبقائه **(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)**.

ثانياً: أثر القرآن في الأدب:

1. تأثر الشعراء والخطباء والكتاب بأساليب القرآن وطرائقه في التعبير ومناهجه في سوق الآراء وصياغة الحجج وعرض القصص والوصف والجدل والموعظة الحسنة فصاغوا آثارهم الأدبية على نهجه وكانوا كما يقول الجاحظ: "يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن الكريم فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع"[6]. وتأثر الشعراء الإسلاميون والمخضرمون بآيات القرآن الكريم فقد التفتوا إلى كثير من المعاني القرآنية وصاغوها في أشعارهم من ذلك قول حسان:

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

فهو متأثر بقوله تعالى: **(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم)**.

وفي قوله أيضاً:

وقال الله :قد أرسلت عبداً يقول الحق إن نفع البلاء

متأثر بالقرآن الكريم في قوله تعالى: **(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق)**.

---

[4] المرباع: الغنيمة وكان يختص به قائد الغارة وفارسها.

[5] ماكانوا يغنمون عفوا في طريقهم إلى غارة مقصودة.

[6] البيان والتبين 118/1.

وفي قوله:

أتهجـــوه ولـــست لـــه بكـــفء فـــشركما لخيركمـــا الفـــداء

جرى على مثال قوله تعالى: **(وإنا وإياكم لعلى هدى أو فـي ضـلال مبـين)**، أو قوله:**(يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)** . أو قوله: **(أي الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا)**.

وإذا قرأنا قوله تعالى:**(واخفض لهما جناح الذل من الرحمة)** رأينا معـن بن أوس يقول متأثراً بأدب القرآن :

فمازلت في لينـى لـه وتعطفـي عليـه كمـا تحنـو علـى الولـد الأمُ

وخفضي له مني الجنـاح تألفـاً لتدنيـه منـي القرابـة والـرحمُ

وكما أثر القرآن في أساليب الأدباء كذلك أثر في تفكيرهم حتى لقد رأينـا الحطيئـة وهو أقرب إلى جفاء البدو وخشونة الأعراب يقول:

ولست أرى السعادة جمـع المـال ولكـن التقـي هـو الـسعيد

وتقـوى الله خيـر الـزاد ذخـراً وعنـد الله للأتقـى مزيـد

2. رفع القرآن من شأن النثر بعد أن كان المقام الأول للشعر وحده من بين فنـون الأدب.
3. أحيا القرآن فنوناً أدبية جديدة كالقصص وأدب الزهد وأدب التاريخ وأبطل سجع الكهان والهجاء الكاذب والفخر المبالغ فيه والفخر في الأسلوب، فـصار عفـاً كريماً سمحا ينطق على عاطفة دينية قوية ويصور حياة روحية واسعة وينم عن تأدب بأدب الإسلام وتأثر ببلاغة القرآن.
4. شاعت في أسلوب الأدباء العذوبة والسلاسة في جزالة، وأخذت بأطرافه القـوة والجمال والوضوح وروعة التأثير وقوة الحجة وتأجج العاطفة والتهاب الشعور ودقة الإحساس الأدبي ، فالقرآن رقق من نفوسهم القاسية، فسلـست طبـاعهم

وألسنتهم وملكاتهم ولم تقبل إلا السمح المهذب من الأساليب . ولعل شعر حسان بن ثابت وكعب بن زهير خير شاهد على رقة طباع الشعراء نتيجة التأثر بأساليب القرآن الكريم.

5. التأنق في صوغ الأساليب ، والتفنن في أنواعها، وأحكام نظمها ، لسريان روح القرآن الكريم في قلوب المتكلمين بها ، وسلوكهم سبيله في البيان، وحسن الأداء.
6. دفع المسلمين إلى تتبع اللغة العربية، وجمع شعرها وحكمها وأمثالها ووصاياها وخطبها من العرب الموثوق بهم ، حتى يستطيعوا أن يفهموا ألفاظ القرآن وأساليبه، وقد جمعوا مئات الكتب والرسائل التي صارت مرجعاً في دراسة اللغة وأدبها .
7. كان اشتمال القرآن الكريم على صور البيان الرائع والأساليب البيانية، أساساً لنشأة علوم البلاغة والنقد الأدبي.

ثالثاً: أثر الحديث الشريف في اللغة والأدب:

كان العرب أمة البلاغة وأئمة الفصاحة ، تعنو لهم أزمة القول، وتتصاع أعنة الكلام، ويهتفون برائع الخيال فينقاد لهم عصيه ، ويروض شامسه ، ويستذل أبيّه، وكان الكلام صناعتهم بها يفاخرون ويتباهون، ومن هنا كان لابد وأن يكون الرسول الذي يرسل إليهم يبلغهم عن ربهم، ويهدم عقائدهم الباطلة ومذاهبهم الزائفة ، ويغير ما ألفوا من عادات ، وما ورثوا من تقاليد ، لا بد أن يكون بيانه أسمى من بيانهم، ومنطقه أروع من منطقهم ، وخطابه أجل أثراً وأعظم قدراً وأعلى شأناً من خطابهم ومن هنا كان تأييد الله لنبيه ومصطفاه محمد r بمعجزة القرآن ومعجزة البيان فأوتي جوامع الكلم فهو r : " **لم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة وشيد بالتأييد ويسر بالتوفيق**". كان فصيح المنطق ، سمح البيان ، سلس الأسلوب ، قوي العبارة، لامع الرونق ، رائع الحكمة ، موفق المثل ، موفق اللفظ ، مشرق المعنى،

يحس المرء لكلامه حلاوة العسل، ويجد فيه لـــذة ، إذا تكلـــم خفتـــت الأصـــوات وأنصتت الآذان وخشعت الجوارح وامتلأت القلوب بجلال العبرة وسمو الموعظة.

كان مولده في بني هاشم، وهم ذروة قريش سلاسة لسان، وســماحة بيـــان، وأخواله من بني زهرة ، ورضاعه في سعد بن بكر ، ونشأته في قريش، وتـــزوج خديجة وهي من بني أسد ، وكل هذه القبائل خصها الله بعرق في فـــصاحة الكـــلام عريق، وسبب من أسباب البلاغة وثيق، وكان هذا التوافق العجيب، وهـــذا التماثـــل في الميلاد والاسترضاع والمنشأ اعداداً من الله لنبيه، وتقويماً من ملكته ، وتهـــذيباً لسليقته، وتدعيماً لفطرته حتى يفقهوا قوله ، ويعقلون دعوته.

وسبق أن ذكرنا أنه **r** كان يخاطب وفود العرب بلغاتها مما تجهله قريش ويجهله بعض العرب عن بعض ويفهم منهم كذلك يروى أن على بن أبي طالب قال له حين سمعه يخاطب وفد بني نهد "**يا رسول الله نراك تكلم وفود العـــرب بمـــا لا نفهم أكثره**" وكان يبعث بكتبه إلى قبائل العرب يخاطبهم فيها بلهجاتهم ، ويجـــاري ألفاظهم وتعابيرهم فيما يريد أن يبعث به إليهم وهي ألفاظ خاصة بهم ومن يـــداخلهم ويقاربهم ولا تجوز في غير أرضهم، ولا تسير عنهم فيما يسير مـــن أخبـــار ، ولا تأتلف مع أوضاع اللغة القرشية.

أما بلاغة الحديث الشريف فهي وإن كانت دون بلاغة القرآن الكريم رغـــم أن قائله أبلغ العرب قاطبة وأفصحهم ، فقد أثرت في اللغة والأدب بما احتوته مـــن مجازات رائعة وتشبيهات مستمدة قوتها التعبيرية من تجربة الرسول الكريم ، لـــذلك عدّ الحديث الشريف المصدر الثاني بعد القرآن في الدراسات اللغوية والأدبية وفـــي نشأة علوم اللغة العربية فقط نظر إليه الأدباء نظرة تقدير وإعجاز فقلدوه في بلاغته وأساليبه التي تمتاز بالفصاحة والإيجاز.

ومن أهم آثار الحديث الشريف في اللغة والأدب:

1- عاون القرآن الكريم على انتشار اللغة العربية في الأمصار التي رفعت راية الإسلام ،وكان له الأثر الثاني في حفظ اللغة وبقائها.

2- معروف أن القرآن الكريم ذكر أصول الدين وأحكامه مجملة وجاء الحديث ففصلها، ومن ثم استعمل ألفاظاً دينية وتشريعية وفقهية لم تكن مستعملة في الجاهلية، فاتسعت بفضله اللغة العربية مادة ومضموناً بهذه الألفاظ الجديدة التي لم تكن تستخدم من قبل هذا الاستخدام الخاص.

3- أدخل الرسول r كثيراً من التراكيب البيانية الجديدة في اللغة العربية وزاد فيها ألفاظاً جديدة كتسمية " **صفر الأول**" محرما وكلفظ الزمارة للزانية التي وردت في حديث أبي هريرة " **إن النبي نهى عن كسب الزمارة**" وككلمة **الصير** بمعنى الشق في قوله r :" **من اطلع من صير باب فقد دمر**" أي دخل. قال أبو عبيدة لم يسمع هذا الحرف إلا في هذا الحديث وكقوله الفريد: "**مات حتف أنفه**" أي مات على فراشه قال في القاموس: وخص الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتتابع نفسه، وقال في النهاية: كانوا يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه فإن جرح خرجت من جراحه. وروي عن على بن أبي طالب أنه قال: "ما سمعتها من عربي قبله" وقوله r : "**هدنة على دخن**" يريد أن الصلح لم يذهب حفائظ الصدور وأضغان القلوب فبقى منها كما يبقى من النار تحت الرماد، لا يزال يتحفز للاشتعال. ومن تعبيراته البليغة – r - قوله : " **الآن حمى الوطيس**" للدلالة على شدة الحرب واستعار نارها والتهاب شررها ، فإن الوطيس هو التنور ومجتمع النيران استعير لشدة الحرب.

وكان ينفرد بكثير من الألفاظ والتراكيب مما لا يعرفه العرب ، ولم يسبق أن جرى عندهم على لسان ، لذلك كان يسأله العرب عن بعض الألفاظ ويعجبون لا نفراده بها ، وهم عرب مثله ، كما عجبوا لفصاحته التي اختص بها وهو باق بين

أظهرهم لم يفارقهم ولم ينتقل عن بلدهم . وقد روى أنه قال لأبي تميمة: " **إياك والمخيلة**" فقال يا رسول الله ، نحن قوم عرب فما المخيلة؟ . قال r : " **سبل الإزار**" ، أي الكبر . فقول أبي تميمة نحن قوم عرب دلالة على أن النبي r اخترع هذا اللفظ اختراعاً ولم يسبق إليه.

وهذا كله مما كان يشرق في لغته ويلتمع في أسلوبه من ابتداع المعاني واختراع الألفاظ المناسبة لها ، ومن صور وأخيلة بيانية تلبس حُلاها ، وتأخذ زينتها وتدعو الأدباء دعوة قوية إلى احتذائها وإتباع طرائقها واتخاذها مثلا يسيرون على نهجه وينشئون على هداه.

ومن يرجع إلى كتاب البيان والتبيين[7] سيجد الجاحظ يذكر نماذج من كلام الرسول r مما لم يسبقه إليه عربي ، ولا شاركه فيه أعجمي ولم يدع لأحد ولا ادعاه أحد مما صار مستعملاً ومثلاً سائراً. فمن ذلك قوله: "يا خيل الله اركبي" ، وقوله:" لا تنتطح فيه عنزان" وقوله: " لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين".

4- كان الحديث مركز الدائرة ومحوراً لنشأة بعض العلوم الدينية والعربية التي وضعت لدراسة الحديث كعلوم الحديث وتفسيره وغريبه ، ومصطلحه أي وضع مصطلحات لأنواع الأحاديث وتقسيم الرواة إلى طبقات فهناك الحديث المضاف إلى الرسول ويسمى "المرفوع" والمضاف إلى الصحابة ويسمى "الموقوف" والمنسوب إلى التابعين ويسمى "المقطوع" وأسهم الحديث بقدر كبير في علوم التفسير والفقه وأصوله . وهذه العلوم أكسبت اللغة العربية ثروة كبيرة من الألفاظ والمصطلحات.

5- ساعد الحديث الشريف على تهذيب الألسنة ، وتثقيف الطباع والقضاء على الحوشى والغريب والتعقيد في البيان ، والمعاظلة في التراكيب ، وأحل محل ذلك السلاسة والسهولة و الرونق والوضوح وسلامة الأسلوب والبيان فقد كان r

---

[7] البيان والتبيين 15/2.

يُعنى بالفصاحة في اللفظ، بحيث لا يكون فيه تعسف ولا إغراب. فقد أثـر عنـه : "**من بدا جفا**" ولعل ما يدل على عنايته باللفظ ما روى من أنه قال: "**لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لقست نفسي**" كأنه كره أن يضيف المؤمن الخبث إلى نفسه وفي هذا ما يدل بعض الدلالة على عنايته بحسن منطقه.

6- قضى على سجع الكهان ، ورفع منزلة النثـر ، وهـذب أغـراض الأدب وفنونه ، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يُعنى بالسجع في خطبه ، ويستهجنه ، بل لقد كان ينفر منه بسبب استخدام الكهان له قديماً ولذلك صد عنه عليه الـسلام كمـا صد عنه خلفاؤه ، روى الطبري أن عمر بن الخطاب سأل صحاراً العبـدي البليـغ المشهور عن مكران الفارسية أثناء غزو المسلمين لها فقار صـحار: " **يـا أميـر المؤمنين** : **أرض سهلها جبل، وماؤها وشل ، وثمرهـا دقـل ، وعـدوها بطـل، وخيرها قليل ، وشرها طويل، والكثير بها قليل ، والقليل بها ضائع ، وما وراءها شر منها**" . **فقال عمر**: **أسجاع أنت أم مخبر ؟ فقال صحار بل مخبر وكأنـه كـره منه السجع** . **وأيضاً يروى الرواة أن ابن الزبير تكلم عند معاوية بكلام مـسجوع فقال له** : " **تعلمت السجاعة عند الكبر**" **وفي أخبار معاوية أنه كتب إلى رجل كتاباً فأملى على كاتبه .. لهو أهون عليَّ من ذرّة ، أو كلب من كلاب الحرّة ثـم قـال للكاتب** : "**امح من كلاب الحرة واكتب الكلاب**" . وكان ذلك يدل على أن المـسلمين كانوا ينفرون من السجع في حديثهم في هذا العصر، أو على الأقل كان ينفـر منـه الخلفاء لنهي النبي عليه الصلاة والسلام عنه . وبالرغم من أن خطبه النبي لم تكـن مسجوعة ولكنها مع ذلك كانت تحوي فنوناً من البلاغة والفصاحة . ويكفي في بيان روعة التعبير عنده ما يقول الجاحظ من أنه " **لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعـاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلعاً ، ولا أحـسن**

موقعاً ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامـــه r .

7- أقبل العلماء في مختلف الأمصار الإسلامية على تعاقب العصور يدرســونه ويحفظونه ويشرحونه ، ويستنبطون منه ، ويستشهدون به ، مما كان له أثره الكبير في التشريع ، لأنه المصدر الأول لتفسير كتاب الله.

8- تأثر به الخطباء والكتاب والشعراء ، واقتبسوا منه، وحاولوا الــسير علــى نهجه ولا سيما أولئك الذين تربوا في مدرسة النبوة ، وأثر هذه المدرسة واضح في كلام الصحابة وخطبهم.

الفصل الثاني [1]

موقف الإسلام من الشعر

_ موقف الرسول r من الشعر

_ موقف الخلفاء الراشدين من الشعر

_ مزاعم الأعداء على موقف الإسلام من الشعر

(1) دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي : د. محمد عبد القادر أحمد

ولعل خير ما يؤيد تزكية الإسلام لجذوة الشعر وتشجيعه له إظهاره للشاعرية القرشية التي كانت مخبوءة في الجاهلية. فمنذ العصر الجاهلي لم يظهر في مكة شعراء مشهورون وإنما كانت مكة طوال العصر الجاهلي قليلة الشعر والشعراء. وهي ظاهرة لا حظها النقاد القدماء ، وسجلها ابن سلام في كتابه المشهور: " طبقات الشعراء" وهو يرجع قلة الشعر في مكة إلى أنها كانت مدينة مسالمة تعيش حياتها في هدوء واستقرار ، لم تعرف المنازعات القبلية التي عرفتها القبائل البدوية والتي أنطقت ألسنة الشعراء بالدفاع عن قبائلهم ، والتغني بأمجادها ومفاخرها . كما كان العرب يعظمون مكة لوجود الكعبة بها وحولها أصنامهم وكانوا يعدونها مدينة النسك والعبادة ، ولذلك ابتعدوا بها عن المنازعات والحروب وعدوها منطقة حرام.

ولما جاء الإسلام بدأت الشاعرية القرشية تظهر ، وبدأنا نسمع عن شعراء قرشيين يحتلون مكانتهم الأدبية في تاريخ الأدب العربي. وقد كان للصراع الذي نشب بين الإسلام في المدينة وخصومه في مكة أثره في زيادة عدد شعراء المشركين. ويذكر المؤرخون أسماء طائفة من شعراء المشركين وقفوا في وجه الإسلام أول الأمر وراحوا يدافعون عن عقيدة الوثنية في مكة من أمثال : أبي سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن الزبعرى ، وضرار بن الخطاب ، وعمر بن العاص، وأبي عزة الجمحي ، والحارث بن هشام ، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ، ومسافع بن عبد مناف ، وأبي أسامة معاوية بن زهير.

<u>أما الرسول</u> ﷺ فكان يشجع على قول الشعر ويثيب عليه ومن أقواله المأثورة في ذلك : " **إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكماً أو لحكمة**" وقوله : "**لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين**" ، وابن سلام نفسه يروي قصة كعب

بن زهير وإهدار النبي دمه لأنه هجاه بشعره ثم مجيئه متنكراً إلى الرسول ، وتأمين النبي له ، ثم يري قصيدته : "بانت سعاد"[8] وفيها قدم كعب اعتذاره للرسول ، وطلب منه العفو يقول فيها معتذراً:

نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

وقد أتيت رسول الله معتذراً والعذر عند رسول الله مقبول

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب وإن كثرت فيّ الأقاويل

ومدح في قصيدته المهاجرين فقال في حقهم:

في عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا

زالوا ، فما زال أنكاس ولاكشف عند اللقاء ولا ميل معازيل[9]

شم العرانين أبطال لبوسهم من نسج داود في الهيجا سرابيل[10]

وحينئذ نظر الرسول إلى من كان في مجلسه من المهاجرين وكأنه يستحسن ما قال فيهم ويدعوهم إلى سماعه. فإذا ما عرّض كعب بالأنصار مقارنا إياهم بالمهاجرين فقد وصف المهاجرين بالوقار والسؤدد وامتداد القامة وبياض البشرة ووصف الأنصار بالجبن والفرار كما وصفهم بالقصر لغلظتهم عليه ورغبتهم في القصاص منه ولأن أحدهم أراد قتله عند النبي r وذلك حين قال:

يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنابيل[11]

---

[8] طبقات الشعراء 83 وما بعدها ، والشعر والشعراء 86/1.

[9] الانكاس: جمع نكس وهو الضعيف ، الكشف: جمع أكشف وهو الفارس لا يثبت في المعركة واصله من الأكشف وهو الذي لا ترس معه في الحرب ، ميل: جمع أميل وهو من لا سيف له ، أو من لا يحسن الركوب ولا يثبت على السرج ، معازيل: جمع معزال وهو من لا سلاح له ، الأعزل من السلاح.

[10] شم : جمع أشم وهو المرتفع، العرانين : جمع عرنين وهو طرف الأنف ، سرابيل: جمع سربال وهو القميص.

[11] الزهر: البيض ، يعصمهم: يمنعهم ، عرد: فر وأعرض وجبن ، التنابيل: جمع تنبال ، وهو القصير.

وحينئذ غضب الأنصار وتألموا ، وأنكر عليه المهاجرون هذا التلميح ، وقالوا: " لـم تمدحنا إذ هجـوتهم" ولم يسر عن الأنصار غضبهم ، ولم ينـل رضى المهـاجرين عنه إلا حين مدح الأنصار بقصيدته التي قال فيها:

من سره كـرم الحيـاة فـلا يـزل فـي مقنـب مـن صـالح الأنـصار[12]

البـاذلين نفوسـهم لنبيـهم يـوم الهيـاج وسـطوة الجبـار

ورثوا السيادة كـابرا عـن كـابر إن الكـرام هـم بنـو الأخيـار

فلو أن العرب حقاً تشاغلوا عن الشعر، ولهى المسلمون عن روايته بالجهاد والغزو، وفقد الشعر نفوذه على الوجدان العربي ، وعواطف المسلمين ما أهدر الرسـول دم كعب من أجل شعره الذي هجاه به . وما كان الرسول يكافئه بأن يخلع عليه بردته ، وما كان الأنصار يغضبون من بيت قاله معرضا بهم.

والنبي r استمع إلى الشعر وأعجب به وقدره في نطاق القيم الإسلامية وكان على بينة من تأثير الشعر في نفوس العرب فاتخذه سلاحاً من أمضى الأسلحة ينال به من أعدائه المشركين.

وعندما هاجر الرسول من مكة على المدينة واشـتد هجـاء عبـد الله الزبعـرى ، وضرار بن الخطاب ، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاص للرسول وصحبه وكانوا وقتذاك من المشركين قال قائل من المسلمين لعلى بن أبـي طالب: "اهج عنا القوم الذين يهجوننا " ، فقال : "**إن علياً ليس عنده ما يراد في ذلك منه**" ، ثم قال صلوات الله وسلامه عليه: "**ما يمنع القوم الذين نصروا الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟** " فينبري حسان قائلاً : " **إني لها يا رسول الله** " . فقـال له الرسول : " **كيف تهجوهم وأنا منهم ؟** " فقال : " **إني أسلك منهم كمـا تـسل الشعرة من العجين** " ، فيقول له الرسول : " **اذهب إلى أبي بكر فليحـدثك حـديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهجهم وجبريل معك**" . وقوله : " **اهج قريشاً فو الله**

---

(12) المقنب: جماعة من الخيل والفرسان.

هجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام" . وفي حديث عنه r أنه قال: " **أمرت عبد الله بن رواحة (بهجاء قريش) فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى** " . واستمع إلى بعض هجاء حسان في المشركين فقال: " **لهذا أشد عليهم من وقع النبل**" وكان عليه السلام يعجب بمراثى الخنساء لأخيها صخر ، وقد استمع إليها وسألها أن تزيد من شعرها ، ودعا للنابغة الجعدي بألا يفض الله فاه . وقال لكعب بن مالك وهو أحد شعراء المدينة الذين كانوا يهاجون شعراء مكة : " **إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل**" ، وروى عن الرسول r قوله: " **إنما الشعر كلام مؤلف ، فما وافق الحق منه فهو حسن ، ومالم يوافق الحق منه فلا خير فيه**" ، وروى أنه قال : " **إنما الشعر كلام من الكلام خبيث وطيب**" ، وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: " **الشعر فيه كلام حسن وقبيح ، فخذ الحسن واترك القبيح**" . وبعد فتح مكة أخذت وفود القبائل العربية تفد على النبي من شتى أرجاء الجزيرة لتعلن إسلامها وفي هذه الوفود شعراء يتحدثون باسم قبائلهم ويمدحون النبي والإسلام وكان النبي يستمع إليهم.

<u>كذلك كان خلفاؤه الراشدون</u> وصحابته الأخيار يرددون الشعر كثيراً يتناشدونه في المسجد فأبو بكر يقدم النابغة ويقول : "هو أحسنهم شعراً وأعذبهم بحراً وأبعدهم قعراً" ويستشهد في خطبة وجهها إلى الأنصار مسترضياً بأبيات طفيل الغنوى التي يقول فيها:

جزى الله عنا جعفراً حين أزلفت ... بنا نعلنا في الواطئين فزلت
أبوا أن يملونا ، ولو أن أمنا ... تلاقي الذي يلقون منا لملت
هم أسكنونا في ظلال بيوتهم ... ظلال بيوت أدفأت وأظلت

وكان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – كثيراً ما يسأل وفود القبائل عن شعرائهم ويستنشدهم أشعارهم ، ويروى أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة : " **مر من قبلك بتعليم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق ، وصواب الرأي ، ومعرفة الأنساب**" . كما كان يتذوق الشعر وينقده ، وقدّم زهير وشرح سبب تقديمه فقال : "**كان لا يعاظل في الكلام ، وكان يتجنب وحشي الشعر، ولم يمدح أحدا إلا بما فيه** " وكان يرى أنه أشعر الناس ، ويجلس هو وأصحابه يتذاكرون الشعر والشعراء وأيهم أشعر . ويروى أنه سأل وفد غطفان عن القائل:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ولـيس وراء الله للمرء مذهب

قالوا : "نابغة بني ذبيان" ، قال: "**هو أشعر شعرائكم**" ، **وكذلك كان علي ابن أبي طالب ، وكان يقدم امرأ القيس على الشعراء ، ويقول** : " **هو أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة** ".

<u>والذين زعموا أن الإسلام وقف من الشعراء موقف العداء:</u>

وأن العرب انصرفوا عن الشعر في صدر الإسلام ، أو ادعوا أنه هاجمه واستصغره استندوا في زعمهم إلى أدلة منها:

1- مهاجمة القرآن للشعراء في قوله تعالى: **[والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثراً وانتصروا من بعد ما ظلموا]** .

والواضح من الآيات أن المقصود بالمهاجمة هم المشركون بينما اسْتُثْنِي من ذلك المؤمنون ، كما قصدت المنافقين الذين لم يؤمنوا بقلوبهم ولم يعملوا الصالحات وينتصروا للحق والإسلام ويقفوا للدفاع عنه في فترة نشر الدعوة والدفاع عنها.

وعلى الرغم من أن لفظ "**الشعراء**" الذي بدأت به الآية جاء عاماً إلا أن الآية تقصد الشعراء الذين لا يلتزمون بالقواعد الخلقية التي رسمها الإسلام والذين يخوضون في موضوعات نهى عنها الإسلام وحاربها مثل الهجاء ، والخوض في الأعراض ، والطعن في الأنساب، والغزل الفاحش ، والمدح الكاذب ، والفخر الذي يؤدي إلى العداوات. وعلى هذا فالشعراء المقصودون في الآية الكريمة والذين يتبعهم الغاوون هم شعراء قريش الذين ناصبوا الإسلام العداء . أما الشعراء الذين استثناهم القرآن الكريم فهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا . وهم شعراء المسلمين الذين دافعوا عن الرسول والدعوة الإسلامية من أمثال عبد الله ابن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وكعب بن زهير.

2- مهاجمة الرسول للشعر في قوله: " **لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً**".

والحقيقة المقررة أن الحديث الشريف يفسر القرآن ويوضح ما فيه من قضايا جاءت مجملة. ولكن هذا الحديث إنما ينصب ذمه ومهاجمته على الشعر المجانب للحق، والمتنافي مع تعاليم الدين وغير الملتزم بالقيم الإسلامية ، ويؤكد ذلك رواية أخرى للحديث جاءت على لسان السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها تقول فيها:"**لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً هجيت به**".

ولو أننا أخذنا الآية والحديث بالفهم السطحي الذي قال به المدعون لكان هناك تناقض بين ما يقوله الله والرسول وبين ما يفعله الرسول وصحابته وحاشا للصادق الأمين وصحابته الأكرمين أن يقولوا ما لا يفعلوا أو أن يفعلوا ما هاجمه الدين.

وكان r يشجع شعر الدفاع عن الإسلام ضد أعدائه المشركين ، وكان يسوؤه أن يهجوه شعراء المشركين فلا يرد عدوانهم وافتراءهم شعراء المسلمين وكان يقول : "**اللهم من هجاني فالعنه فكان كل هجاء هجانيه لعنة**" . ولم يكن الرسول ليغضب لنفسه ، ولكنه كان يغضب لدين الله ، ولهذا حض شعراء المسلمين على رد هذا الهجاء ، مع علمنا أن الهجاء مذموم في الإسلام ، ولكن الإسلام لا يسلب أهله حق الدفاع عن أنفسهم فهجاء المسلمين للمشركين على سبيل الانتصار منهم إنما هو على أساس قوله تعالى: **[لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم]**. وقد التف حول الرسول مجموعة من الشعراء منهم صحابة أجلاء وقد قسمهم ابن عبد البر إلى مجموعتين من الشعراء مجموعة كانت لهم رواية عن الرسول r ومجموعة كانت لهم صحبة وليست لهم رواية.

أما الذين كانت لهم رواية عنه r فهم : " حسان بن ثابت ، وكعب ابن مالك ، وعبد الله بن رواحة، وعدى بن حاتم الطائي ، وعباس بن مرداس السلمي ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وحميد بن ثور الهلالي، وأبو الطفيل عامر بن واثلة ، وأيمن بن خريم الأسدي ، وأعشى بني مازن ، والأسود بن سريع ، والحارث بن هشام ، وعمرو بن شاس ، وضرار ابن الأزور ، وخفاف بن ندبة " . أما الشعراء الذين كانت لهم صحبة وليست لهم رواية فهم: أحمد بن زهير ، ولبيد بن ربيعة ، وضرار بن الخطاب ، وابن الزبعرى ، وأبو ذؤيب الهذلي ، والشماخ بن ضرار ، ومزرد بن ضرار"[13] وهذا يدل على أن الرسول كان يقرب شعراء المسلمين بدليل صحبته لعدد كبير منهم.

3-لم يؤثر عن الرسول الكريم أنه نظم الشعر قبل البعثة وبعدها ، ثم نهي عن قوله ، وجاءت آيات كثيرة تباعد بين الرسول والشعر وبين القرآن والشعر أيضاً، وذلك كله يدل على مهانة الشعر والشعراء في نظر الإسلام ومعاداتهما . ومن

---

[13] انظر الاستيعاب 313/1 وتاريخ الأدب العربي 137/1.

الآيات الكريمة قوله تعالى : **[وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين]**[14] ، وقال تعالى : **[بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أُرْسِلَ الألوان]**[15] ، وقال جل شأنه: **[يقولون ائنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون]**[16] ، **[أم يقولون شاعر نتربص به رَيْبَ المنُون . قل تربصوا فإني معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مِثْله إن كانوا صادقين]**[17] . وقال : **[إنه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون]**[18].

ولعلنا لو تدبرنا الحكمة الإلهية في حفظ الرسول r من نظم الشعر قبل البعثة وبعدها لازددنا إيماناً بأن الرسول الكريم كان يؤهله الله لحمل الرسالة في تجمع عربي يقدس الشعر والبيان . والمعجزة الكبرى للرسول كانت معجزة البيان ، ولو أن الرسول قال الشعر لاختلط بمرور الأيام بالقرآن الكريم ، ولا لتبس شعره والقرآن على الناس ، ولدخل في القرآن ما ليس فيه ، أو أخرج منه ما جاء على وزن الشعر، ولكن صرف الله له عنه وإصرار الرسول وامتناعه حتى عن رواية الشعر وإنشائه ، وضع حداً فاصلاً لما كان يمكن أن يحدث من اللبس والزيف كما يحدث في الحديث الشريف فنفى الشعر عن الرسول رد من القرآن الكريم على ما كان يشيعه المشركون ويتحدثون به من أن القرآن شعر وأن محمداً شاعر، وأنه عليه السلام لم يأت بكلام منزل من عند الله ، وإنما الذي يجئ به شعر من جنس أشعارهم المعروفة . فكان طبيعيا أن يتصدى القرآن لهذا الاتهام بنفي الشعر عن النبي حتى يثبت أن القرآن كلام الله المنزل على رسوله من السماء ، وأن النبي لا يتلو على العرب كلاماً من عنده، ولكنه يتلو عليهم هذا الكلام المنزل من عند الله.

---

[14] يس:69.

[15] الأنبياء: 5.

[16] الصافات: 36.

[17] الطور: 30- 34.

[18] الحاقة: 39 – 41 .

ولكن تنزيه القرآن عن أن يكون شعراً، أو أن يكون الرسول شاعراً ليس طعناً على الشعر ، ولا غضاً من قيمته كفن في ذاته وقد نفى ابن رشيق أن يكون القرآن قد غض من قيمة الشعر بقوله في تفسير: **[وما علمناه الشعر وما ينبغي له]** بقوله معناها ما الذي علمناه شعراً ، وما ينبغي له أن يبلغ عنا شعراً ولو أن كون النبي r غير شاعر غض من الشعر لكانت أميته غضا من الكتابة . وقد جاءت هذه الآيات مكية في فترة المعارضة الشديدة من كفار مكة لدعوة الرسول r .

ولعلنا ندرك أن هناك آيات شريفة انطبقت عليها بعض الأوزان الشعرية التي قال على وزنها الشعراء ، وقد شجع ذلك الكفار على القول بأن القرآن شعر وأنه ليس وحياً من عند الله . كما وجدنا بعض المستشرقين منهم مولر وجاير وجريمه يرددون أن قالب القرآن من القوالب الشعرية ثم يأتي من بعدهم مستشرق آخر منصف وهو نولد كه فيرفض هذه النظرية يقول بروكلمان: " وقد صرح نولد كه أيضاً برفض نظرية مولر التي أراد جاير حديثاً أن يؤيدها ، وهي أن قالب القرآن من القوالب الشعرية ، كما لم تكن مثمرة محاولات نحاة العرب التي كررها أيضا جريمة للكشف عن أبيات من الشعر في القرآن[19] . ويوضح الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هداره في دراسته القيمة في تحليل الظواهر الأدبية في الشعر العربي الفرق بين هدف الباحثين العرب وهدف المستشرقين في أن هدف الباحثين العرب كان رصد الظواهر الفنية الموجودة في القرآن أما المستشرقون فقد أرادوا أن يستغلوا هذه الظاهرة في تأييد فكرتهم في أن القرآن ليس وحياً من عند الله[20]. ومن

---

[19] تاريخ الأدب العربي 137/1.

[20] انظر محمد مصطفى هدارة: دراسات في الشعر العربي ، منشأة المعارف بالإسكندرية 1970ص 21.

الآيات التي أشار الباحثون أنها جاءت على وزن الشعر . وحاشا أن يكون القــرآن نمطاً من الشعر[21]:

- ولن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون.
- ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه.
- وجفان كالجواب وقدور راسيات.
- ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب.
- والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً.
- هيهات هيهات لما توعدون.
- لمثل هذا فليعمل العاملون.
- تبت يدا أبي لهب وتب.
- فسيعلمون غداً من الكذاب.
- إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف.
- ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم.
- ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً.
- أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم.
- فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية.
- ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين[22] .

ولكن ذلك الكلام الموزون قد يأتي في كلام الناس العادي ، والشعر هــو مــا قصده الشاعر أن يكون شعراً وقد ردّ الجاحظ على من ادعى وجود شعر في القرآن

---

[21] انظر الإتقان في علوم القرآن 124/2 ، وإعجاز القرآن للباقلاني 76، والعقد الفريد 128/6

[22] فاطر 18 ، سبأ 13، الطلاق 2، العاديات 2,1، المؤمنون 36، الصافات 61، المسد 1، الطور49، الإنسان 14، الماعون 1، 12، آل عمران 92، يونس 92، التوبة 14.

فقال: " **اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل مستفعلن فاعلن كثيراً ، وليس أحد في الأرض يجعل ذاك المقدار شعراً. ولو أن رجلاً ن الباعة صاح : (من يشتري باذنجان) لقد كان تكلم بكلام في وزن (مستفعلن مفعولات) ، فكيف يكون هذا شعراً، وصاحبه لم يقصد إلى الشعر ، ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام وإذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعراً**" [23] .

وسبب آخر قد يكون موضحاً موقف الرسول من امتناعه عن قول الشعر وذلك أنه لو قاله لوجب أن يبرز فيه ، ولا يمكن أن يبرز فيه في نظر أهل عصره الذين يدعوهم إلى الإسلام إلا إذا سار على نهج فحولهم من الشعراء فيقول في جميع الأغراض من هجاء مقذع ، وفخر كاذب ، وتشبيب فاضح ، وخمريات وميسر وهيام في كل واد من الضلالة ، وما تلك سبيل الهداية ولا طريق النبوة. وأنّي لنبي أن يجمع بين مقاصد النبوة من الإيمان الحق والفضيلة والمثل الأعلى في السلوك والخلق وبين ما يهيم به الشعراء في وادي الغواية.

ولو كان الرسول شاعرا لنسب العرب فضيلة حجته البالغة وجوامع كلمه إلى تأثير الشعر ، ومن ناحية أخرى سوف ينسبون بلاغة القرآن وإعجازه البياني إلى ما يظنه شعراء ذلك العصر من همس الشياطين في آذان الشعراء بالشعر ، أو من وحي الجن الذي يرافق كل شاعر كما يقول الشاعر:

إني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

والحق أن الآيات الكريمة تؤكد نفي الشاعرية عن الرسول حتى لا يظن أن رسالته نوع من الرؤى والخيالات ، ودفعا لما قد يظن أيضا من أن القرآن الكريم شعر من نوع جديد جاء على لسان شاعر.

---

[23] البيان والتبيين 159/1.

4- انصرف لبيد بن ربيعة عن قول الشعر بعد إسلامه ، ولم يقل إلا بيتاً واحداً هو قوله:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا[24]

ومن قائل بل هو قوله:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح[25]

وبعضهم يقول : إن البيت الذي أعجب به الرسول r هو:

ألا كل شئ ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محال زائل[26]

ويقال إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلى واليه على الكوفة أن يسأل لبيداً عما استحدثه في الإسلام من الشعر فتلا لبيد سورة البقرة ، وقال أبدلني الله هذه في الإسلام خيراً منها، ويروى فقال: "أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران"[27] . والذي يطالع ديوان لبيد يجد فيه شعراً كثيراً قاله في الإسلام. كما يجد للمعاني الإسلامية صدى في شعره ، فقراءته للقرآن الكريم هذبت لفظه وأدخلت كثيراً من جمال الأسلوب وبهائه في كلامه . والروح الإسلامية ماثلة بوجه عام في تضاعيف أبياته التي قالها بعد إسلامه.

5- زجر عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – حسان بن ثابت حين سمعه ينشد الشعر في مسجد الرسول فيروى أن عمر سمعه ينشد شعره في المسجد فأخذ بأذنه، وقال: "**أرغاء كرغاء البعير؟**" فرد عليه حسان بقوله : "**دعنا عنك يا عمر، فو الله لتعلم أني كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك فلا يغّير عليّ** " ، فيقول له عمر: " **صدقت**" وهذا التوجيه المهذب من عمر يقصد به نوعاً من الشعر إنشاده

---

[24] الأغاني 14 / 94.

[25] المصدر السابق 91/14.

[26] البيان والتبيين 1 /159.

[27] طبقات الشعراء 30.

يضر بالمسلمين ، فلو اطلعنا على القصة بكاملها[28] لوجدناها تنتهي بقول عمر للمسلمين من الأنصار: " **إني قد كنت نهيتكم أن تذكروا شيئاً مما كان بين المسلمين والمشركين دفعاً للتضاغن عنكم، فأما إذا أبوا فانشدوه واحفظوه**" . وعمر نفسه يتحدث إلى وفود القبائل عن شعرائهم ويروى الأبيات من شعرهم رواية الحافظ الناقد ، بل ربما قضى الليل ساهراً حتى الفجر يصغي إلى الشعر ثم يطلب تلاوة القرآن ، وكان يبعث إلى بعض عماله ليسأل عن الشعراء المخضرمين وما أحدثوه من الشعر في الإسلام[29] . وكان يسأل القبائل عن شعرائهم في الجاهلية . وذكروا أنه قال لابنه: " **يا بني انسب نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك ، فإن من لا يعرف نسبه لم يصل رحمه ، ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقاً ، ولم يغترف أدباً** " ، وروي عنه أيضاً قوله: " **اروا من الشعر أعفه ، ومن الحديث أحسنه ، ومن النسب ما تواصلون عليه وتعرفون به ، فرب رحم مجهولة قد عرفت فوصلت ، ومحاسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق وتنهى عن مساويها**"[30] .وواضح من اعتراض عمر خوفه أن ينشد حسان مناقضات بين المسلمين والمشركين ورأى عمر فيها أنها انتهت بزمانها خشية اشتعال الفتن من جديد، ولكن ذلك لا ينبئ عن امتهان عمر للشعر، أو الغض منه، وما قدمناه من مواقفه يبين بجلاء احتفائه بالشعر في الحدود الإسلامية المثالية.

يتبين مما تقدم أن الإسلام برئ من تلك التهمة التي وجهت إليه فهو لم يقلم أظفار الشعراء ، ولم يقف في طريق الشعر الذي كان مفخرة من مفاخر العرب، وإنما قلم أظفار الشر في المجتمع العربي، ومعها أظفار الشعر الذي يدور حول الشر، ويتصل به ، ووقف في طريق تلك الفئة من الشعراء الذين وقفوا في طريق الإسلام.

---

[28] الأغاني 189/20، وطبقات الشعراء 60.

[29] طبقات الشعراء 30.

[30] الجمهرة 18.

إذن من الظلم والخطأ البين أن نقول إن الإسلام وقف من الشعر موقف العداء أو أنه شغل الناس عنه أو أضعف سلطانه على وجدان العرب ، أو جعله يفقد قوته من حيث أنه فن ، فجعله يلين ويضعف ، أو أنه أوقف نشاطه ، وذلك لأنه زيادة على كل ما تقدم كان ينشد على كل لسان ، وساعدت الأحداث الإسلامية على ازدهاره لا على خموله فقد كان هناك شعراء الدعوة الإسلامية ، وشعراء المرتدين ، وشعراء الفتوح ، وشعراء الفتنة الكبرى بين المسلمين ، ومن ثم نجد أن الإسلام أذكى جذوة الشعراء وأشعلها لأنه أمدها برصيد لا ينفذ من المعاني الجديدة ، والقيم الإسلامية ، وأخرج الشعر من الحسيات إلى المعنويات. وتحولت بفضل الإسلام رسالة الشعر فصارت سمحة لا تعرف الفحش ، ولا تحب الجهر بالسوء ، ولا تألف الخوض فيما حرم الله . فهي رسالة مستمدة من روح الإسلام وتعاليمه الكريمة وآدابه القويمة ، ودعوته الحقة إلى معاملة الناس أكرم المعاملة.

الفصل الثالث [1]

- **شعر الفتوح**
- **الشعراء المخضرمون ومدى تأثرهم بالإسلام**

(1) العصر الإسلامي: د. شوقي ضيف

شعر الفتوح

خرج العرب من جزيرتهم بعد حروب الردة يجاهدون في سبيل الله دولتي الفرس والروم . فقضوا على الأولى ، واستولوا على أهم ولايتين للثانية ، وهما الشام ومصر. وكانوا في أثناء هذا الجهاد ينظمون أناشيد حماسية مدوية ، يتغنون فيها بانتصاراتهم ويتمدحون بشجاعتهم وما يؤدون لله ودينه. ومن الصعب أن نّعْرض كل ما نظموه في مواقعهم المختلفة ، إنما نلم بطرف منه ، ولنقف قليلا عند موقعة واحدة في الشرق هي موقعة القادسية ، وفيها يلمع اسم **أبي محْجَن الثقفي**[31] ، وكان مولعاً بالخمر فحبسه سعد بن أبي وقاص، حتى إذا احتدمت المعركة توسل إلى سلمى زوج سعد أن تطلقه – على أن يعود إلى قيده- ليُسْهم في شرف المعركة ، فأطلقته وأبلى فيها بلاء حسناً ، وعاد إلى سجنه وهو ينشد[32] :

لقد علمتْ ثَقِيفٌ غير فَخْر بأَنا نحن أَكرمهم سيوفا

فإِن أُحْبَسْ فقد عرفوا بلائي وإن أُطْلَقْ أَجرِّعهم حُتوفا

وكان حول أبي محْجن فرسان كثيرون قصفوا الفرس وأطاحوا برءوس أبطالهم ، وهم يتصايحون بالشعر الحماسي ، منهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي[33] ، وكان من أبطال الجاهلية وفرسانها وأسلم ، وكانت له آثار مشهورة في القادسية واليرموك ونهاوند ، ومن شعره[34]

والقادسيةُ حين زاحم رُستْم كنا الحماةَ بهنَّ كالأَشطان[35]

الضاربين بكل أبيضَ مِخْذَمٍ والطاعنين مجامع الأَضْغَان[36]

---

[31] انظر في ترجمة أبي محجن الأغاني (طبع الساسي 137/21 والشعر والشعراء 387/1 والإصابة 170/7 والخزانة 550/3 وما بعدها والاستيعاب ص 682.

[32] أغاني 140/21.

[33] انظر في ترجمته كتب الصحابة وأغاني (دار الكتب) 208/15 والشعر والشعراء 332/1 وذيل الأمالي ص 145 والخزانة 422/1، 460/3 ومعجم الشعراء المرزباني (طبعة الحلبي) ص 15 ومعاهد التنصيص 240/2 والعيني 379/1.

[34] ذيل الأمالي ص 146.

[35] الأشطان هنا : الجن والمردة.

[36] الأبيض : السيف . المخذم: القاطع . مجامع الأضغان: القلوب.

ومنهم بشر بن ربيعة الخَثْعمي ، وله يصور بلاءه وبلاء قومه في مواقع القادسية[37] :

تذكر – هداك الله – وَقْعَ سيوفنا ببابِ قُدَيْسٍ والمكرُّ عَسِيرُ[38]
عشيَّة ودَّ القوم لو أن بعضهم يُعار جَناحَي طائر فيطير
إذا ما فرغنا من قِراع كتيبَةٍ دَلَفنْا لأُخرى كالجبال تسير[39]
ترى القوم فيها واجمين كأنهم جمالٌ بأَحمالٍ لهن زفير[40]

وممن له بلاء حسن في القادسية قيس بن المكشوح المرادي ابن أخت عمرو بن معد يكرب ، وهو الذي قتل رستم قائد الفرس في تلك المعارك ، وله يصور ذلك[41] :

جلبتُ الخيلَ من صَنْعاءَ تَرْدِي بكلِّ مدجَّجٍ كالليث سامى[42]
إلى وادي القُرَى فديار كلبٍ إلى اليَرْموك فالبلد الشآمى
وجِئن القادسية بعد شَهْرٍ مسوَّمةً ، دوابرُها دوامى[43]
فناهضنا هنالك جَمْع كسرى وأَبناء المرازبة الكرام[44]
فلما أن رأيت الخيل جالتْ قصدتُ لموقف الملكِ الهمام
فأَضربُ رأْسه فهَوى صريعاً بسيفٍ لا أَفلَّ ولا كهام[45]
وقد أَبْلى الإِلهُ هناك خيراً وفعلُ الخير عند الله نامى

---

[37] أغاني (طبعة دار الكتب) 243/15
[38] قديس: يريد القادسية أو موضع بجانبها.
[39] دلفنا: تقدمنا.
[40] واجم: من الوجوم وهو السكوت مع كظم الغيظ.
[41] فتوح البلدان البلاذري (طبع المطبعة المصرية بالأزهر) ص 261.
[42] تردى الخيل: ترجم الأرض بحوافرها.
[43] مسومة: معلمة. الدوابر : العراقيب. دوامي: ملطخة بالدم.
[44] المرازبة: رؤساء الفرس.
[45] أفل: مثلم. كهام: كليل لا يقطع.

وممن حضر القادسية الأسود بن قُطبْة ، وله فيها أشعار كثير[46] ، وعمرو بن شأْس الأسدي[47] ، وكان كثير الشعر في الجاهلية والإسلام ، وله يذكر قتل رستم[48]:

قتلنا رُسْتَماً وبنيه قَسْراً تثير الخيلُ فوقهم الهَيالا[49]

وفرَّ الْهُرْمُزَان ولم يحامى وكان على كتيبته وبالا[50]

وشهد القادسية أيضاً عروة بن زيد الحيل، وله فيها شعر كثير على شاكلة قوله[51]:

برزتُ لأهل القادسية مُعْلَماً وما كلٌّ من يَغْشَى الكريهةَ يُعْلَم

ومن الشعراء البارزين الذين شهدوها ربيعة بن مقروم الضبي[52] ، وقد ختم الجاحظ كتابه "الحيوان" بأبيات له يذكر فيها بلاءه حينئذ ، يقول فيها[53] :

وشهدتُ معركة الفيول وحولها أبناء فارسَ بَيْضُها كالأَعْبَل[54]

مُتَسَرْبلى حلقَ الحديد كأَنهم جُرْبٌ مقارفةٌ عَنِيَّةُ مُهْمِل[55]

ويمضي فيذكر جهاد المسلمين للفرس ، يقول:

يقارعون رءوسَ العُجْم ضاحيةً منهم فوارسُ لا عُزْلٌ ولا مِيلُ[56]

---

[46] الإصابة 108/1.

[47] انظر ترجمته في الأغاني (طبعة دار الكتب) 196/11 والشعر والشعراء 1/ 389 وابن سلام ص 164 والاستيعاب ص454 ومعجم الشعراء للمرزباني ص22 .

[48] الطبري 50/3.

[49] الهيال: ما ينهال من الغبار.

[50] الهرمزان: الكبير من حكام الفرس.

[51] الأغاني (طبع الساسي) 51/16.

[52] انظر ترجمته في أغاني (ساسي 90/19 والشعر والشعراء 279/1 والإصابة 220/2 والخزانة 566/3.

[53] الحيوان (طبعة الحلبي) 263/7.

[54] البيض: الحوذ . الأعبل: حجر أبيض.

[55] يشبه الفرس بإبل جرباء. مقارفة: من القراف وهو داء يقتل البعير. العنية: طلاء للجرب، وأراد نفس الإبل الجربي. والمهمل: الذي يهمل الإبل في المرعى.

[56] يقارعون: يضاربون. العجم: الفرس. العزل: جمع أعزل وهو من لا سلاح معه. الميل: جمع أميل وهو الذي لا يحسن ركوب الخيل.

وعلى هذا النحو نستطيع دائماً أن نجمع كثيراً من الأشعار التي نُظمت في كل معركة، سواء مع الفرس أو مع الروم ، وإن ما تطفح به كتب الصحابة مثل الاستيعاب والإصابة وكتب التاريخ مثل الطبري وكتب الأدب مثل الأغاني وكتب الجغرافية مثل معجم البلدان لياقوت ليؤلف للعرب في الفتوح ملحمة ضخمة . ولم تكن كلها أشعاراً حماسية، ففيها مراث رائعة لبعض من كانوا يفقدونهم، من ذلك قصيدة كثَيِر بن الغَريزة التميمي يرثى بها من أصيبوا في معارك الطَّالقَان وجُوزَجَان لعهد عمر بن الخطاب، وفيها يقول[57] :

سَقى مُزْنُ السحابِ إذا استهلَّتْ مصارعَ فتيةٍ بالجُوزَجانِ

وما بي أَن أَكون جَزِعْتُ إلا حنينَ القَلْب للبَرْق اليماني

ورُبَّ أَخٍ أَصاب الموتُ قبلي بكيتُ ولو نُعِيتُ له بكاني

وعبَّروا في أَثناء ذلك عن حنين بالغ إلى ديارهم وأهليهم. وبجانب هذا الحنين والرثاء نجد بعض الشعراء يتحدثون عن بلائهم في المغازي بعامة، على نحو ما نجد عند زياد بن حنظلة في وصفه لمغازي الشام لعهد عمر وما أفاءه الله على المسلمين[58]لوبيث

وهناك أشياء لا بد أن نلاحظها في هذه الأشعار الكثيرة التي رويت عنهم في مغازيهم وفتوحهم، لعل أهمها أنها طبعت بطابع الآداب الشعبية، سواء من حيث نسيجها العام أو من حيث قائلوها ومن نسبت إليهم. أما من حيث النسيج فإنها لا تبلغ من المتانة مبلغ الأشعار التي نسبت في العصر نفسه إلى الشعراء المجودين، وأما من حيث القائلون فإن كثيراً منهم يكاد يكون مجهولا، لسبب بسيط وهو أنه من عامة الجند. ومن ثم اختلف الرواة في نسبة كثير من الأشعار إلى أصحابها. ويكثر أن يرسل الراوي الشعر إرسالا بدون نسبته إلى شاعر بعينه وينصُّ الطبري على

---

[57] أغاني (طبعة دار الكتب) 278/11 حيث سرد أبو الفرج القصيدة في ترجمته وانظر في الإصابة 318/5 والخزانة 118/4 ومعجم الشعراء240.

[58] طبري 108/3.

قطعتين كانت تتجاوب بهما الآفاق في الجزيرة العربية ولا يُعرف مـــن نظمهمـــا، ويعقِّب عليهما بقوله: « وسُمع بنحو ذلك في عامة بلاد العرب». وكأن طائفة مـــن شعر الفتوح تحولت إلى ما يشبه الأمثال التي يبدعها الشعب ، فناظمهـــا لا يُعْـــرَفُ كما لا يعرف مرْسل المثل لأنه من أبناء الشعب وأبناء الشعب قلما ذُكروا أو مُجَّدوا بل إنه لا يعنيهم أن يذكروا أو يمجَّدوا ، إذ هم آخر من يهتم بهذا الفضل.

ويسود في هذا الشعر الإيجاز ، فهو شعر اللمحـــات الـــسريعة والمواقـــف الخاطفة، وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة، يجري فيها الشاعر على ســـجيته دون تدقيق في معنى أو تنقيح للفظ أو التماس وزن أو قافية. إنه يعبر عن خاطر الـــتحم بصدره دون معاناة أو مكابدة، ويرمي به في سرعة كما يرمي بسهمه أو يـــضرب بسيفه. غير مفكر في تنقيح ولا في تصفية أو تهذيب ، ولـــذلك كانـــت تـــشيع فيـــه البساطة وعدم التكلف لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التي تحول بينه وبين إطالة الفكرة كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويده وتحبيره.

وملاحظة أخيرة ، وهي أن قصصاً كثيراً عن أبطال الفتوح وجهادهم فـــي حروب الفرس والروم أُضيف إلى هذه الأشعار. وقد حمل لنا ياقوت في معجمه كما حملتْ كتب التاريخ والأدب أطرافاً منه كثيرة. ومن غير شك خضع هذا العمل كله لمخيلة القصَّاص فزادوا في القصص والأشعار ما اتسع له خيالهم. ولكن مهما يكن فلهذا كله أصل صحيح ، وهو أصل ضخم إذ كان الشعر يتدفق على ألسنة الفاتحين . وكانوا ينشدونه في كل موقف وكل معترك، مقصِّدين له حيناً وراجـــزين أحيانـــاً أخرى ، وطبيعي أن يشيع فيه الرجز، لأنه كان فعلا الوزن الشعبي الذي يَنْظم فيـــه عامة العرب.

الشعراء المخضرمون

ومدى تأثيرهم بالإسلام

1

كثرة المخضرمين المتأثرين بالإسلام

من يقرأ في شعر المخضرمين متصفحاً ما نُثر في كتب التاريخ والأدب يجد جمهور الشعراء يصدرون في جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التي آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم. ولشعراء المدينة القِدح المعلَّى في هذا الميدان، فهم الذين وقفوا مع الرسول r منذ نزوله بين ظهرانيهم ينافحون عنه ويدافعون عن دعوته مصورين لهدْيه الكريم ، يتقدمهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وكان عبد الله خاصة دائم الاستمداد من القرآن يستلهمه في هجائه للمشركين وفي كل ما ينظم من أشعار ، على شاكلة قوله [59] :

شهدتُ بأَن وعد الله حَقٌّ وأَن النار مَثْوَى الكافرينا

وكان بجانب هؤلاء الثلاثة شعراء آخرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة الشعرية، وقد رُويت لهم أشعار تنم عن مدى إيمانهم العميق كقول أبي قيس صِرْمة بن أبي أنس الأنصاري في قصيدة بديعة[60]:

ونعلم أن الله لا شيءَ غيرُه وأَن كتاب اللهِ أَصبحَ هاديا

وقول أبي الدَّرْداء[61] :

يريد المرء أَن يُؤْتَى مُناهُ ويأَبى اللهُ إلا ما أَرادا

يقول المرء فائدتي ومالي وتقوى الله أَفضلُ ما استفادا

---

[59] الاستيعاب ص 362.

[60] الاستيعاب ص 14 ، 334.

[61] الاستيعاب ص 663.

وتحول شعراء قريش منذ فُتحِت مكة ودخلوا في ديــن الله يكفــرون عمــا قدَّمَتْ ألسنتهم بأشعار ، يعتذرون فيها للرسول r كقول ابن الزِّبَعْري[62] :

يــا رســول المليــك إنَّ لــساني راتقٌ ما فتقــتُ إذ أَنــا بُــور[63]

إذ أجاري الشيطان في سَنَنِ الغَــيِّ ومــن مــال مَيْلَــهُ مَثْبُــورُ[64]

آمن اللحــمُ والعظــامُ بمــا قُلْــ ــتَ فنفسي الفِدَا وأَنت النــذَّيرُ

وقد حسن إسلامهم ، ومضوا يصدرون عنه في أشعارهم ، حتى إذا انتقــل الرسول إلى الرفيق الأعلى أخذوا يرثونه ويتفجعون عليه ، على شاكلة قــول أبــي سفيان بن الحارث [65]

لقــد عظُمــتْ مُــصيبتنُا وجلَّــت عــشيَّةَ قِيــل : قــد قُــبِضَ الرســولُ

نبــيٌّ كــان يَجْلُــو الــشكَّ عنــا بمــا يــوحَى إليــه ومــا يقــولُ

وإذا تركنا شعراء المدينتين الكبيرتين إلى شعراء نجد والبوادي وجدنا بينهم كثيرين يقبسون من أضواء الإسلام، ولا نقصد من خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله فحسب، فقد عمَّ ذلك من ظلوا في الجزيرة ولم يتح لهم تقدم سنهم شرف الاشــتراك في هذا الجهاد.

ونحن نقف عند مشهوريهم ، ثم نعطف على من لم يبلغــوا مــبلغهم مــن الشهرة، ولعل أول من ينبغي الوقوف عنده عَبْده بن الطبيب الذي تحدثنا عنــه فــي شعر الفتوح ، فقد روَى له صاحب المفضليات عينية بديعة، ونراه في شطر كبيــر منها يوصي أبناءه بتقوى الله وبِر الوالد والحذر من النمَّام الذي يزَرع الضغائن بين الناس ، مستلهماً في ذلك كله آي الذكر الحكيم، يقول[66]:

---

[62] ابن سلام ص 202.

[63] رتق الفتق: خاطه . بور: ضال هالك.

[64] سنن: طريق . مثبور: هالك ضائع.

[65] الاستيعاب ص 708.

[66] المفضليات ص 146.

أوصـــيكم بتُقـــى الإلـــه فإنـــه يعطي الرغائب من يشاء ويمنعُ

وبِبِـــرَّ والـــدكم وطاعـــةِ أمـــره إن الأَبَرَّ مـــن البنـــين الأَطْـــوَعُ

واعصوا الذي يُزْجِي النَّمائم بينكم متنصِّحا ذاك الـــسِّمام المُنْقَـــعُ[67]

يُزْجـــي عقاربَـــهُ ليبعـــث بيـــنكم حَرْباً كما بعث العروقَ الأَخْدَعُ[68]

ويعرض سويد بن أبي كاهل لخصم دنئ النفس كان يغتابه ، ونراه يـصفه وصفاً يستلهم فيه الآية الكريمة (ولاَ يَغْتَبْ بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) يقول:

بِـئْسَ مـا يجمـع أَن يَغْتَـابني مَطْعَـــمٌ وَخْـــمٌ وداءٌ يُـــدَّرَعْ[69]

ويحيينـــــي إذا لا قيتُـــــهُ وإذا يخلـــو لـــه لَحْمِـــي رَتَـــعْ[70]

وممن أسلم وهو في سن كبيرة الحصين [71] بن الحُمام سيد بني مرة الذبيانيين، وله أبيات تطرد على هذا النحو [72] :

ويـــوم تـــسعَّر فيـــه الحـــروبُ لبـــسْت إلـــى الـــرَّوْعِ سِـــرْبالها[73]

فلـــم يبـــق مـــن ذاك إلا التقـــى ونفـــــس تعـــــالج آجالهـــــا

أمـــورٌ مـــن الله فـــوق الـــسماء مقـــــادير تنـــــزل أنزالهـــــا[74]

أعـــوذ بربـــي مـــن المخزيـــا تِ يـــوم تـــرى الـــنفسُ أعمالهـــا

وخَـــفَّ المـــوازينُ بالكـــافرين وزلزِلـــــتِ الأرض زلزالهـــــا

---

[67] يزجي: يدفع ويسوق. السمام: السم. المنقع: القاتل.

[68] الأخدع: عرق في العنق إذا ضرب أجابته العروق.

[69] وخم: غير مريء. يدرع: يلبس.

[70] رتع: أكل بنهم.

[71] انظر ترجمته في الشعر والشعراء 630/2وابن سلام ص 131 والأغاني (طبعة دار الكتب) 1/14 وما بعدها والاستيعاب ص 127 وأسد الغابة 24/2 والإصابة 18/2 والخزانة 7/2.

[72] أغاني 14/14.

[73] تسعر: تتقد . السربال: الدرع.

[74] أنزالها: منازلها . تنزل أنزالها : تقع مواقعها.

والصلة واضحة بين هذه الأبيات وآي الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى: **(واتقوا الله) (فإن الله يحب المتقين) (فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) (هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) (وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم)** وقوله عز شأنه: **(إذا زلزلت الأرض زلزالها) (فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية) (ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون)**.واقرأ في النمر[75] بن تولب ، وهو ممن أدركوا الإسلام وقد علت سنهم، فسترى في شعره آثاراً من تلاوته للقرآن الكريم، على شاكلة قوله[76] :

أعذني رب من حصر وعي ومن نفس أعالجها علاجا

ومن حاجات نفسي فاعصمنِّي فإن لمضمرات النفس حاجا[77]

وأنت وليها فبرئت منها إليك وما قضيت فلا خِلاجا[78]

ومن شعراء هذيل البارعين في هذا العصر أبو ذؤيب[79] الهُذَلي، وقد قدم المدينة عند وفاة رسول الله r فوقف يبكيه مع الباكين قائلا من أبيات[80] :

كسفت لمصرعه النجوم وبدرها وتزعزعت آطام بطن الأبطحِ

وتزعزعت أجبال يثرب كلها ونخيلها لحلول خطب مفدحِ

---

[75] انظر ترجمته في طبقات ابن سعد ج7 ق1 ص 26 والشعر والشعراء 1 /268 وابن سلام ص 133 والأغاني 157/19 والموشح 78 والخزانة 152/1 والاستيعاب ص 320 والإصابة 253/6.

[76] الشعر والشعراء 269/1 والأغاني 161/19.

[77] حاج: جمع حاجة.

[78] خلاج: اعتراض.

[79] انظر في ترجمته ابن سلام ص 110 والشعر والشعراء 635/2 والأغاني 264/6 والاستيعاب ص 665 والإصابة 63/7 والخزانة 203/1 وأسد الغابة 188/5 ومعاهد التنصيص 195 ومعجم الأدباء لياقوت (طبع مصر) 83/11 وشرح شواهد المغنى 10 والاشتقاق (نشرة الخانجي) ص 178.

[80] الاستيعاب ص 666.

وحدث أن توفى له – قبل وفاته بعام – خمس بنين في وباء، فرثاهم بعينيته المشهورة وفيها نحس رضاه بقضاء الله مع التحسر اللاذع على نحو ما نجد في قوله[81] :

أوْدَي بنـــي وأعقبـــوني غُـــصّة بعـــد الرقـــاد وعبـــرة لا تقُلْـــعُ

فَغَبَـــرْتُ بعـــدهمُ بعـــيشٍ ناصـــبٍ وإخـــالُ أنـــي لا حـــقٌّ مُـــسْتَتْبَعُ[82]

وإذا المنيـــة أنـــشبت أظفارهـــا ألفيـــت كـــل تميمـــة لا تنفـــع

والـــنفس راغبـــة إذا رغبتهـــا وإذا تُـــرَدُّ إلـــى قليـــل تقنـــعُ

وأشاع الإسلام في نفوس كثير من الشعراء براً ورحمة بأهليهم وأقربائهم، وكان ينحو هذا المنحى معن [83] بن أوس المزني في عتابه لابن عمه الذي أساء إليه إساءة كبيرة ، وظل يسئ إليه وهو يوالي أشعاره في صفحه عن زلاته براً به وبقرابته مع تجنيه عليه وتجرمه ، يقول[84]:

وذي رحم قلمت أظفار ضـغنه بحلمي عنه وهو لـيس لـه حلـمُ

فما زلت في لين له وتعطـف عليه كما تحنو علـى الولـد الأمُ

ومن غير شك كان يستهدي في ذلك آي الذكر الحكيم التي تدعو إلى البر بالأقرباء والصفح الجميل.

وكان بجانب من قدمنا شعراء عرفوا برقة دينهم، ومع ذلك فحين نتعقب شعرهم نجد فيه خيوطاً إسلامية تظهر في نَسْجه من حين إلى حين، منهم عَبْد[85] بني الحَسْحاس ، وكان يتغزل غزلاً مفحشاً جعل قومه يقتلونه لعهد عثمان ونراه يقول:

---

[81] انظر ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب المصرية) 1/1 وما بعدها.

[82] غبرت: بقيت . ناصب: متعب . مستتبع: تابع.

[83] انظر ترجمته في الأغاني (طبعة دار الكتب) 54/12 والإصابة 179/6 والخزانة 258/3 وانظر فهرس البيان والتبين والحماسة للمرزوقي ومعجم الشعراء ص 322 ومعاهد التنصيص. وقد نشرت أشعاره في ليبزج.

[84] أغاني 60/12 وديوانه (طبعة ليبزج). ص 5 ،36.

[85] انظر ترجمة عبد بني الحسحاس في أغاني (ساسي) 2/20 وما بعدها والشعر والشعراء 369/1 وابن سلام ص156 والإصابة 163/3 والخزانة 271/1 وشرح شواهد المغنى 112. وقد نشرت دار الكتب المصرية ديوانه.

عُمَيْرَةُ وَدِّع إن تجهَّزتَ غازياً كفى الشيبُ والإسلام للمرء ناهيا

ويُرْوى أنه أنشد هذا البيت عمر بن الخطاب فقال له: لو قلت شعرك مثل هذا لأعطيتك عليه.

وكان ابن[86] مقبل على شاكلته، يقول ابن سلام: "**إنه كان جافياً في الدين وكان في الإسلام يبكي أهل الجاهلية**"[87] ومع ذلك ندت على لسانه أبيات فيها ما يدل في وضوح على تأثره بالدين الحنيف من مثل قوله[88]:

الناسُ هَمُّهم الحياةُ ولا أرى طول الحياة يزيد غير خبال

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذُخْراً يكون كصالح الأعمال

وممن يُسْلَك في هؤلاء الشعراء الذي عرفوا برقة دينهم الحطيئة، وسنرى عما قليل أثر الإسلام في شعره.

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على فساد الفكرة التي شاعت بين الباحثين عرباً ومستشرقين من أن الإسلام لم يترك آثاراً عميقة في نفوس المخضرمين، وخاصة أهل البادية[89] فقد نفذت أشعته النيرة إلى قلوبهم جميعاً. ونحن نقف عند خمسة منهم يعدون في طليعتهم هم حسان بن ثابت وكعب بن زهير ولبيد والحطيئة والنابغة الجعدي، لنرى فيهم مدى تأثر المخضرمين بالإسلام ، ولندل في وضوح على أن هذا التأثر لم يقف عند شعراء المدينة من مثل حسان ، فقد نفذ إلى شعراء البادية وتعمقهم على نحو ما سنرى عند لبيد والنابغة الجعدي.

حسان[90] بن ثابت

---

[86] راجع في ترجمة ابن مقبل الشعر والشعراء 424/1 وابن سلام ص 125 والإصابة 195/1 والخزانة 113/1 وزهر الآداب 19/1.

[87] ابن سلام ص 125.

[88] طبري 29/5.

[89] راجع مثلا تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية لنالينو (طبع دار المعارف) ص 95

[90] انظر في ترجمة حسان ابن سلام ص 179 وفي مواضع متفرقة وأغاني (دار الكتب) 134/4 وما بعدها و27/11و157/14 و (طبعة الساسي) 12/16 وما بعدها والشعر والشعراء 264/1 والموشح ص 60 وتاريخ دمشق لابن عساكر 125/4 والاستيعاب ص 128 والإصابة 8/2 وسير أعلام النبلاء للذهبي (طبع دار المعارف) 115/2 و ص 366 وما بعدها وشرح

كان أبوه ثابت بن المنذر بن حرام الحزرجي "**من سادة قومه وأشـــرافهم**"، وكانت أمه "الفريعة" خزرجية مثل أبيه ، وقد أدركت الإسلام ودخلت في دين الله[91] . وهو يسلك في المعمرين إذ يقال إنه عاش في الجاهلية ستين سنة وفـــي الإســـلام ستين أخرى، وهي سن تقريبية، فقد قيل إنه توفي قبل الأربعين ، وقيل بـــل ســـنة خمسين وقيل بل سنة أربع وخمسين. وهو ليس خزرجياً فحسب، بل هو أيضا مـــن بني النجار أخوال رسول الله r ، فله به صلة قرابة ورحم.

ونراه قبيل الإسلام يتردد على بلاط الغساسنة، ويقال إنه مد رحلاتـــه إلـــى بلاط النعمان بن المنذر؛ وكان لسان قومه في الحروب التي نـــشبت بيـــنهم وبـــين الأوس في الجاهلية، ومن ثم اصطدم بالشاعرين الأوسيين: قيس بن الحطيم وأبـــي قيس بن الأسلت[92] . ويقال إنه عرض شعره على النابغة بسوق عكاظ ، وقدم عليه الأعشى ، فأثار موجدته[93].

ويهاجر رسول الله r إلى المدينة، فيدخل حسان في الإسلام، حتى إذا أخذ شعراء قريش في هجاء الرسول وصحبه من المسلمين انبرى لهم بـــلاذع هجائـــه، وكان رسول الله يحثه على ذلك ويدعو له بمثل: "**اللهم أيده بروح القدس**" **واستمع إلى بعض هجائه لهم فقال: "لهذا أشد عليهم من وقع النبل**" ، وفي حـــديث عنـــه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "**أمرتُ عبد الله ابن رواحة (بهجاء قـــريش) ، فقـــال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بـــن ثابـــت فـــشفى واشتفى**" . ومر بنا في الفصل السابق أنه لم يكن يهجـــو قريـــشا بـــالكفر وعبـــادة الأوثان، إنما كان يهجوهم بالأيام التي همزموا فيها ويعيرهم بالمثالـــب والأنـــساب. وهذا طبيعي لأنهم كانوا مشركين فعلا، فلو هجاهم بالكفر والشرك مـــا بلـــغ مـــنهم

شواهد المغنى ص 114 والخزانة 108/1. وقد طبع ديوانه طبعات مختلفة في ليدن بتحقيق هرشفيلد وفي مصر بتحقيق البرقوقي وفي تونس والهند وبيروت، وسنعتمد في المراجعة على طبعة ليدن.

[91] انظرها في ابن سعد 271/8.

[92] انظر أغاني (دار الكتب) 12/3 والديوان ص 52 وفي مواضع متفرقة.

[93] أغاني (دار الكتب) 340/9.

مبلغاً ، ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له: "**اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهجهم وجبريل معك**"[94]

ويذهب بعض الرواة إلى أنه كان ممن خاض في حديث الإفك الكاذب على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ونراه يعلن براءته من هذا القول الآثم بأشعار يمدحها بها مدحاً رائعاً ، من مثل قوله:

حَصان رزَانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ وتُصْبح غَرْثَى من لحوم الغوافِل[95]

فإن كان ما قد قيل عنِّيَ قُلتُه فلا رفعتْ سوطي إليَّ أَناملي

ويقال إنه كان ينشد الرسول شعره في المسجد، والذي لا شك فيه أنه كان يحظى منه بمنزلة رفيعة، حتى ليُرْوَى أنه كان يرفع أزواجه إلى أُطُمه حين يخرج لحرب أعدائه ، وكان حين يعود يَقْسم له في الغنائم، وقد أهداه بستاناً، كما أهداه سيرين أخت زوجه مارية القبطية ، وهي أم ابنه عبد الرحمن. وكان الخلفاء الراشدون يجلونه ويفرضون له في العطاء.ويقال إنه وفد على معاوية وأنه عمي بأخرة.

وبحق سُمى حسان شاعر الإسلام ورسوله الكريم، فقد عاش يجاهد عنه أعداءه من قريش واليهود ومشركي العرب رامياً لهم جميعاً بسهام مصمية. وقصته مع الحارث بن عوف المُرى حين قُتل في جواره داعٍ من دعاة الرسول مشهورة، فقد قال فيه وفي عشيرته:

إن تَغْدِروا فالغَدْرُ منكم شِيمةٌ والغَدْرُ يَنْبُتُ في أُصول السَّخْبَرِ[96]

وبكى الحارث من هجائه له بدموع غزار، واستجار بالرسول متوسلا إليه أن يكفه عنه وقد مضى حين قدم على الرسول وفد بني تميم يردُّ على شاعر هذا الوفد الزِّبرقان بن بدر مادحاً للمهاجرين مدحاً رائعاً، يقول في تضاعيفه:

---

[94] انظر في هذا الحديث وما قبله ترجمته في كتب الصحابة والأغاني 137/4 وما بعدها.

[95] حصان: عفيفة. رزان: ذات وقار. تزن: تتهم. غرثى: جائعة. يريد أنها لا تغتاب النساء.

[96] السخبر: شجر، ومن أمثالهم: ركب فلان السخبر إذا غدر.

إن الذوائبَ مــن فِهْــرٍ وإِخــوتهم قد بَيَّنوا سُنَّةً للنــاس تُتَّبــعُ[97]

يَرْضَى بها كل من كانــت ســريرتُه تَقْوى الإِلهِ وبالأمر الذي شرعوا

إِن كان في الناس سبَّاقون بعــدهمُ فكلُّ سَبْقٍ لأَدْنى ســبقهم تَبَــعُ

أَهْدَى لهم مِــدَحِي قلــبٌ يــؤازره فيما أراد لــسانٌ حائــكٌ صَــنَعُ

ومن المحقق أنه كان شاعراً بارعاً ، وقد اتفق الرواة والنقاد على أنه أشعر أهل المدر في عصره وأنه أشعر اليمن قاطبة، وقد خلف ديواناً ضــخماً رواه ابــن حبيب، غير أن كثيراً من الشعر المصنوع دخله، يقول الأصــمعي: "**تُنْــسَب إليــه أشياء لا تصح عنه**"[98] ويقول ابن سلام:"**قد حُمل عليه مالم يحمل على أحد، ولمــا تعاضهت (تشاتمت) قريش واستبت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تُنقَّى**"[99] . وكان ممن حمل عليه غُثاء كثيراً ابن إسحق في المغازي، ولاحظ ذلك ابن هــشام وهــو يَروْى عنه السيرة النبوية، فكان يرجع إلى العلماء بالشعر وعلى رأسهم أبــو زيــد الأنصاري راوية البصرة المشهور يسألهم عن صحة أشعار حسان المروية عند ابن إسحق فكانوا يثبتون بعضها وينكرون بعضاً آخر وقد يردونهــا إلــى غيــره مــن معاصريه ومن جاءوا بعدهم. ومع ذلك نرى كثيراً مما أنكروه مثبتا في رواية ابــن حبيب.

ونحن نعرض صنيع ابن هشام ليُعلم مدى ما وُضع على حسان .

ونظن ظناً أن شعره اختلط بأشعار الأنصار، وخاصة كعب بن مالك وعبــد الله ابن رواحة وابنه عبد الرحمن، أما الأولان فقد اشتركا معه في هجــاء قــريش، وأما عبد الرحمن معروف أنه كان يهاجي النجاشي الحارثي ويذم قومه بني الحارث

---

[97] الذوائب: الأعالي في الشرف. فهر: قريش ، يريد المهاجرين.

[98] الاستيعاب ص 130.

[99] ابن سلام ص 179.

بن كعب وعشيرته بني الحماس ذماً قبيحاً[100] ، ومن هنا كنا نشك فيما يضاف إلى حسان من هجائهم ونظن أنه من أشعار ابنه ،حمل عليه[101] .

والحق أن شعر حسان الإسلامي كَثُرَ الوضع فيه ، وهذا هو السبب فيما يشيع في بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة وهلهلة ، لا لأن شعره لان وضعف في الإسلام كما زعم الأصمعي، ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال . ونحن نوثق شعره في الجاهلية إلا ما اتهمه الرواة[102]، ومن رائع هذا الشعر ميميته التي يملؤها ضجيجاً وعجيجاً بمفاخر قومه والتي يقول فيها:

لنا الجفناتُ الغُرُّ يَلمعْنَ بالضُّحَى وأَسيافُنا يَقْطرْن من نَجْدةٍ دَما

ولا ميته التي يمدح بها الغساسنة بمثل قوله:

بيضُ الوجوه كريمةُ أحسابهم شُم الأنوف من الطراز الأولِ

أما هجاؤه لقريش فينبغي أن نُبْعد منه ما اتهمه الرواة وأن لانقبل منه إلا ما يغلب عليه الإقذاع بالأيام والأنساب، كهمزيته التي وجهها لأبي سفيان.

---

[100] ابن سلام ص 125.

[101] انظر الديوان في هجاء بين الحماس الحارثين قوم النجاشي ص 81,47 وكذلك انظر مقطوعة رائية ص 48ونونية ص 82.

[102] انظر الأغاني (ساسي) 14/125-127.

2- القيم الجاهلية والإسلامية في همزية حسان [103]

(أ) أجمعت العرب على أنه أشعر أهل المدر على رواية صاحب الأغاني ، وقد فضله البعض على الشعراء بثلاث: إذ كان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي r في عصر النبوة، وشاعر اليمن كلها في الإسلام.

وقد كان حسان أحد الأنصار الثلاثة الذين عارضوا شعراء قريش، فقد كان يهجو رسول r ثلاثة رهط من قريش: عبد الله بن الزبعرى ، أبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاص، فقال قائل لعلي بن أبي طالب اهج عنا القوم الذين قد هجونا ، فقال حسان : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه وقال: والله ما يسرني به مقول بين بصرى وصنعاء . وكثر شعره في هجاء أبي سفيان بن الحارث، وأعجب النبي r بشعره، ومدحه ، ومدح كعباً وعبد الله بن رواحة ، كما أخبره النبي أن روح القدس معه يؤيده بعد أن استنشده وجعل يصغي إليه.

ويروى عنه أيضاً أنه تقدم هو وكعب وابن رواحة لحماية أعراض المسلمين فاختاره النبي دونهما، كما يروى أن قوماً سبوه في مجلس ابن عباس فتولى الدفاع عنه وبلغ اعتراف النبي بقيمة شعره ذروته حين أقبل وفد تميم على النبي r مفتخرين فأمر النبي حسانً أن يجيب شاعرهم. ومن المعروف أن وفد تميم قد أسلم وأكرمهم النبي r وأقاموا عنده يتفقهون في الدين ويتعلمون القرآن.

وقد أنشد حسان شعراً يقرر به إيمانه برسول الله r ، ويروى أن السيدة عائشة أنكرت عليه شعراً له في مدحها، كما يروى أن الحارث بن عوف استجار بالنبي r من شعره.

(ب) ما قبل النص:

---

[103] (تراجع ترجمته وأخباره في الجزء الرابع من الأغاني ص 135 وما بعدها) 96(1) في القصيدة الجاهلية والأموية: د.عبد الله القطاوي.

يبرز التزاوج بين القديم والجديد واضحاً عند حسان، وهو أيضاً شاعر مخضرم اكتملت له أدوات فنه في العصر الجاهلي ، وبلغت عنده القصيدة صورتها الناضجة كما ثقفها واقتنع بها استجابة لهذا العصر ، وكان لرسوخ تلك الصورة في نفسه وكيانه الفني دورها البارز فيما صدر عنه من شعر في عصر صدر الإسلام ، فليس صحيحاً ما يوجه إليه من الاتهام حول ضعف المستوى الفني لشعره في هذا العصر ، بل يبقى له أنه نأى به عن موضوعات شعرية لم تعد تتفق مع روح الدعوة الجديدة مثل الهجاء المقذع أو الغزل الفاحش أو الفخر بالميسر والخمر ووأد البنات ، ومع هذا ظل يتعامل – فنياً- مع الموضوعات التي يمكن أن تخدم تلك الدعوة وصاحبها r ، وقد لخص حسان هذا الموقف حين سئل "لم ضعف شعرك بعد الإسلام يا أبا حسام؟ فقال: إن الشعر نكد لا يصلح إلا في الشر ، والإسلام قد حرم هذا كله.

وهكذا يرتد الاتهام إلى فهم حسان لوظيفة شعره في خدمة الدعوة الجديدة، بدلا من فهم الجاهلية له ، وعلى هذا لم يعد ملتزماً بشكل القصيدة النمطي في معالجة الموضوعات الجديدة ، ولكنه مع استمرارية الموضوع القديم التزم الشكل القديم كما تعارف عليه السابقون وجعلوه نموذجاً ينبغي أن يحتذيه الشعراء.

وموضوع المدح قديم قدم الشعر الجاهلي، فهو من الموضوعات الكبرى التي نظم فيها كثير من الشعراء ، وهو الذي صاغ للقصيدة العربية شكلها التقليدي بما عرف عنه من تعدد الجزئيات التي وزعت بين مقدمة ورحلة وتخلص وموضوع وخاتمة ، وحين وجد حسان نفسه أمام ضرورة الدفاع عن الدعوة الجديدة التي اقتنع بها رأى أن يمدح صاحبها، وأن يرد هجاء كل من يتطاول عليه من شعراء مكة ، فإذا تحققنا من مكانة حسان في الجاهلية في هذا الفن – أعني المدح – منذ اتصاله ببلاط الغساسنة وشهرته في مدح أمرائهم ، ومنذ اتصاله بالنعمان بن المنذر ، وعلى وجه التعميم تذكرنا مكانته الشعرية الرفيعة في سوق عكاظ وكيف كان لسان قومه في

الحروب خاصة حين اصطدم بالشاعرين الأوسيين قيس بن الخطيم وأبي قيس بن الأسلت ، إذا أخذنا هذا كله في الاعتبار أدركنا إلى أي حد يمكن أن تبرز قدرة حسان مع انتشار الدعوة الإسلامية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، خاصة حين تبنى قضاياه عن قناعة بها فجعل من نفسه المتحدث الرسمي باسمها منذ دخوله فيها بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فوجد حسان من شعراء الكفر من يتصدى للدعوة ويهاجم الرسول r ، ومنهم عبد الله بن الزبعرى وكعب بن الأشرف وأبو سفيان بن الحارث ، فما لبث أن نصب من نفسه مجامياً عنها ، ومدافعاً عن الرسول r وهاجياً لقريش بأنسابها وأحسابها وأيامها، وقد ظهرت صورة واضحة من هذا الدفاع وذلك الهجوم في قصيدته الهمزية.

(جـ) النص ولغته:

عفتْ ذاتُ الأصابع فـالجِوَاءُ ... إلـى عَـذْرَاءَ منزلُهـا خَـلاءُ

ديار من بني الحسحاس قَفْـر ... تُعَفِّيهـا الـروامسُ والـسَّماءُ

وكانت لا يـزالُ بهـا أَنـيسٌ ... خـلال مروجِهـا نَعَـم وشـاءُ

فدع هذا ، ولكن مَـنْ لِطَيْـف ... يُـؤَرِّقُنِى إذا ذهَـب العِـشَاءُ

لـشعثـاءَ التـي قَـدْ تَيَّمَتْـهُ ... فلـيس لقلبـهِ منهـا شـفاءُ

كأن سـبيئةً مـن بَيْـتِ رَأْس ... يكـونُ مِزاجُهَـا عَـسَلٌ ومـاءُ

على أنيابِها ، أو طَعْـم غَـضَّ ... مـن التفـاح هـصَّرها الجنَـاءُ

إذا ما الأَشرباتُ ذُكِـرْنَ يومًـا ... فهـنَّ لِطَيِّـبِ الـرَّاح الفـدَاءُ

نوليهـا الملامـة إن ألمنـا إذ ... مـا كـان مغـثٌ أو لحـاءُ

ونـشربُهَا فتترُكَنـا ملوكـاً ... وأُسْـداً مـا يُنَهْنِهُنَـا اللِّقـاءُ

عِدْمنَا خَيْلَنَـا إن لـمْ تَروهْـا ... تثيـرُ النَّقْـعَ موعـدُها كَـدَاءُ

يبـارين الأعنَّـة مُـصْعِدَاتٍ ... علـى أكتافِهـا الأسَـلُ الظِّمـاءُ

تظـلُ جيادُنـا مُتَمطِّـرَاتٍ ... تُلَطِمُهُـنَّ بـالخُمُر النِّـساءُ

فإما تُعْرِضُـوا عنَّـا اعتَمْرنَـا ... وكانَ الفـتحُ وانكْـشَفَ الغِطـاءُ

وإلا فاصبروا لجِلادِ يـوم ... يُعِـزُّ اللهُ فيـه مـن يـشاءُ

وجبريـلٌ رسـولُ اللهِ فينـا ... وروحُ القُدْس لـيسَ لـهُ كِفَـاءُ

وقال اللهُ قـد أرسـلتُ عبـداً ... يقـولُ الحَـقَ إنْ نَفـعَ الـبَلاءُ

شهدتُ بـه فقُومُـوا صـدِّقُوه ... فقلْـتُم لا نقـومُ ولا نَـشَاءُ!

وقـال اللهُ قـد سـيَّرْتُ جُنْـداً ... هُم الأَنـصار ، عُرْضَـتُها اللَّقَـاءُ

لنا في كـل يـومٍ مـن مَعَـدٍّ ... سِـبَاءُ أو قِتَـالٌ أَوْ هِجَـاءُ

فنُحكِمُ بـالقوافي مـن هَجانـا ... ونـضربُ حـين تْخـتَلِطُ الـدِّماءُ

ألا أبلــغْ أبــا ســفيانَ عَنــي ... فأنــت مُجَــوَّفٌ نَخْــبٌ هَــواءُ

بــأن ســيوفَنا تَركْتــكَ عبْــداً ... وعبــدُ الــدار ســادَتُها الإِمــاءُ

هجوتَ محمــداً فأجبْــتُ عَنْــه ... وعنــد الله فــي ذَاكَ الجــزاءْ

أَتهجُوه ولــستَ لــهُ بكُــفْءٍ ... فــشرُّكما لخَيْرِكمــا الفِــدَاءُ

هجــوتَ مُباركــاً بَــراً حَنيفــا ... أمــينَ الله ، شــيمتُه الوفَــاءُ

فمن يهجُو رســولَ الله مــنكم ... ويمدحُــه وينــصُره سَــواءُ

فإن أبــي ووالــدَه وعِرْضِــى ... لعــرضِ محمــدٍ مِــنْكُمْ وِقَــاءُ

فإمــا تَــثْقَفَنَ بنــو لُــؤَيٍ ... جُذَيْمــةَ إن قــتلهمُ شِــفاءُ

أولئكَ مَعْــشَرٌ نَــصَرُوا علينــا ... ففــي أظفارِنــا مــنهُمْ دِمــاءُ

وحلفُ الحارثِ بن أبيِ ضَــرار ... وحلــفِ قُرَيْظَــةٍ مــنكم بَــراَءُ

لساني صــارمٌ لا عَيْــب فيــهِ ... وبَحْــرى لا تكــدِّرهُ الــدِّلاءُ

عفت:درست. ذات الأصابع والجواء وعذراء: مواضع ببلاد الشام كانت عند منازل الغساسنة القدماء الذين مدحهم حسان وكثر تردده عليهم . بنو الحسحاس: من بني النجار من قوم الشاعر. تعفيها: تمحوها. الروامس: الرياح. السماء: بمعنى المطر هنا . النعم: الإبل . العشاء يكسر العين أول الليل بعد غروب الشمس. شعثاء: اسم صاحبة الشاعر . تيمته: أوقعته في حبها . السبيئة: الخمر. بيت رأس: قرية بالأردن اشتهرت بخمرها الجيدة. الأنياب: الأسنان. هصرة: أماله. الجناء: الثمر. الأشربات: ج أشربة وهي جمع شراب. الراح:الخمر. المغث: الشر. اللحاء: السباب والمنازعة. نهنهه عن الأمر: كفه عنه وزجره كنهاه عنه. النقع: الغبار، يقصد به غبار الحرب. عدمنا خيلنا: قسم يقسم به الشاعر بلسان جماعة المسلمين. كداء: جبل بأعلى مكة. يبارين: يسابقن. الأعنة: ج عنان وهو اللجام. الأسل: الرماح. مصعدات: صاعدات فوق جبال مكة بين شعابها. الظماء: المتعطشات إلى دماء الأعداء. متمطرات: مسرعات. يلطمهن: يضربن خدودهن.

الخمر: ج خمار وهو ما تغطى به المرأة رأسها ووجهها. اعتمرنا: أدينا العمرة. الفتح: يريد به فتح مكة، انكشف الغطاء: انجلى الأمر ووضح وظهر الحق. الجلاد: المقاتلة بالسيف. الكفاء: النظير أو المثيل. البلاء: الاختبار. العرضة: الهدف. معد: يريد بهم قريشاً لأنهم من ولد معد بن عدنان. السباء: الأسر. نحكم: نرد ونكف ونمنع. المجوف: الجبان كأنه لا قلب له ومثلها النخب والهواء. بنو عبد الدار: بطن من قريش. الإماء: الجواري (ج أمة) . الكفء: النظير و الاستفهام في البيت انكاري. البر: الصادق والكثير البر. الحنيف: المسلم الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه وكل من حج أو كان على دين إبراهيم عليه السلام. ثقفه: صادفه أو ظفر به. بنو لؤى: قوم النبي عليه السلام من المسلمين، ولؤى أحد أجداده صلى الله عليه وسلم. جذيمة: هو جذيمة بن سعد من خزاعة وهو المصطلق يريد بني المصطلق الذين غزاهم النبي r وهزمهم في السنة الخامسة للهجرة في غزوة عرفت باسمهم.

قريظة: قبيلة يهودية كانت تنزل المدينة تحالفت مع المشركين ضد المسلمين.

صارم: القاطع . الدلاء ج دلو. البحر هنا يريد به شعره.

(د) تحليل:

صاغ حسان قصيدته في مدح الرسول وجند الدعوة الإسلامية مشيداً بهم ومعظما أمجادهم، ومحاولاً الرد على المتقولين من أعداء الرسول r ، وقد ساعده على ذلك إخلاصه للدعوة الإسلامية التي آمن بها. والقصيدة فيها نمطان من المزاوجة، ففي موضوعها ازدواج وتداخل بين فني المدح والهجاء، وفي شكلها الفني وتعامل الشاعر مع أداته مزاوجة أخرى بين التراث وبين القيم الإسلامية المستحدثة. وربما ساعد دافع نظم القصيدة حسانا على الموقف الأول ، أعنى تداخل المدح فيها مع الهجاء ،فقد نظمها رداً على أبي سفيان الذي هجا الرسول r وأخذ من دعوته موقفاً هجومياً.

وقد عالج حسان قصيدته –أو مدحته- على منهج القدماء حين بدأها بمقدمة طويلة انتقل بعدها إلى موضوعه، وكأنه حين وزع فنه على أكثر من جزئيـــة فـــي موضوع القصيدة حين وزعها بين المدح والهجاء صنع نفس الموقف حين تعامـــل مع أكثر من جزئية في المقدمة، فكأننا نتعامل مع عدة مقدمات تقليدية في صدر تلك المدحة.

وتمثل المقدمة ثلث القصيدة تقريباً ، وهي موزعة على **لوحات ثلاث**: **لوحة طللية** ظهرت فيها ديار صاحبته بعد رحلتها وقد درست وزالت معالمها وصـــارت قفراً لا أنيس بها بعد أن كانت آهلة بهم وعامرة بكل مظاهر الحياة، ثم **لوحة غزلية** مزج فيها الشاعر بين التصوير الغزلي وبين تصوير الطيف الـــذي اتخـــذه وســـيلة يتغزل من خلالها فهو يزوره في نومه ويثير في نفسه ذكرياته مـــع صـــاحبته فـــي الماضي البعيد في فترة من شبابه، ولذا تعيد الذكريات إلى خياله صـــورة صـــاحبته وما كان له من شأن معها ، ثم **لوحة خمرية** وصف فيها الخمر وتأثيرها في نفوس شاربيها حين تجعلهم يعيشون في سكرهم ملوكاً أو أسداً لا يهابون اللقاء.

وليس غريباً في هذه المقدمة – على تعدد جزئياتها- أن يتعامل حسان مـــع الطلل الذي درج الجاهليون على تصويره حتى غدا واقعاً جاهليًّا ، ولـــيس غريبـــاً أيضاً أن يتغزل حسان وأن يزاوج بين حديث الغزل وحديث الطلل ، ولكـــن يظـــل غريباً موقفه من تصوير الخمر وتأثيرها في نفوس شاربيها، وهو مسلك يتنافى مـــع التحريم الديني الذي صدر بشأن الخمر، وهي مسألة لا يتم الفصل فيها إلا بـــالتحقق من أن القصيدة قد تم نظمها فعلا قبل التحريم النهائي للخمر، فإذا كانت قد نظمـــت بعد نزول سورة الفتح، وإذا كان التحريم النهائي للخمر قد نزل في ســـورة المائـــدة التي نزلت بعد سورة الفتح، فإن تاريخ نظم القصيدة يسبق تاريخ تحـــريم الخمـــر، وهو ما يصبح ضرورة لتبرير الموقف الخمري عنـــد حـــسان، فلـــيس طبيعيـــاً أن يستعرض هذا الموقف في مقدمة قصيدة مدح إسلامية على هذا النحو.

فالمقدمة على هذا جاهلية بكل ما فيها من تصوير طللي أو غزلي أو خمري ، ولا يظل أمام حسان إلا موضوع القصيدة يعرض فيه موقفه من الدعوة الإسلامية والرسول r وأعدائه. ولذلك تعددت المحاور الموضوعية التي عالجتها القصيدة في بقية أبياتها ، ففيها التهديد والتوعد لأهل مكة إذا لم يخلوا للمسلمين سبيل العمرة، وإلا فليستعدوا لقتال لا قبل هم به ، لأن الله تعالى يضمن النصر للمسلمين ويؤيدهم بجند من ملائكته، وفيها الفخر القومي الذي يركز فيه حسان صورته على الأنصار الذين جندوا أنفسهم مع رسول الله ودافعوا عن دينه بألسنتهم وأسلحتهم. وفي المحور الثالث يقف الشاعر يقف الشاعر هاجياً أو بشكل أدق يرد هجاء أبي سفيان فيعيره بما أصاب قومه من مذلة يوم أحد، ثم يظهر سخطه عليه وينكر هجاءه لرسول الله r وهو ليس بكفء ، ويزيد من تعميم الصورة حين يفرضها على كل شعراء قريش، فيسخر منهم ويتوعدهم بأنه قادر على هزيمتهم ، فهو مستعد للتضحية بكل ما يملك في سبيل الدفاع عن الدعوة والرسول r .

وتكاد هذه **المحاور الثلاثة** تلتقي على سبيل التوافق أو التعارض كما يبدو بين الفخر والهجاء ، أو بين المدح والهجاء ،على سبيل التناقض أو بين الهجاء والوعيد والتهديد وبين المدح والفخر على سبيل الاتفاق . فحسان يتعامل من خلال تلك الخيوط المختلفة التي تشد أفكار القصيدة وتسيطر عليها ، وهو يجيد ختامها حين يوثق ما يقوله تاريخياً بعرض موقف بعض الأحلاف التي تألبت على الرسول r وتآمرت على الدين ، فيسجل براءته وبراءة قومه منها ، مكملا بذلك دائرة الفخر الفردي والجمعي ، ويبرز دور قومه في نصرة النبي عليه السلام ، وتأييد الدعوة على المستوى الجمعي ، وأخيراً يختم القصيدة ببيت واحد ركز فيه على ذاته وقدراته الفنية على الانتصار وإحراز التفوق على الشعراء الآخرين من أمثال أبي سفيان.

فالقصيدة على هذا النحو تلتقي فيها التيارات القديمة الموروثة مع التيار الإسلامي المستحدث ولا غرو في ذلك لأن حسان شاعر مخضرم أحس أنه لزاماً عليه أن يقوم بهذا بين التيارين ، فهو يميل اجتماعياً إلى التيار التجديدي ،ولكنه لا يستطيع أن يتخلص من هيمنة التراث ، أو أن يصدر عن فراغ ثقافي ، فمن المعروف عنه أنه كان من أشد المخضرمين حرصاً على جاهلية فنهم ، ربما لطول الفترة التي عاشها في الجاهلية وفيها نضج فنه واكتملت له أدواته.

وفي موضوع القصيدة لا ينفض حسان يديه أيضاً من صور الجاهلية التي تظهر كثيراً في صور الخيل التي تثير النقع ، وتباري الأعنة ، وهي ظامئة إلى دماء الأعداء أو في ذلك التعبير الذي يوجهه الشاعر إلى المشركين ... ولكن السيطرة الواضحة للتيار الإسلامي تبدو هنا في موضعها الطبيعي من القصيدة في تلك الألفاظ والصور التي تدفقت من المعجم الإسلامي الجديد ولم يكن للجاهلية بها عهد ، من مثل تلك الألفاظ القرآنية أو الحديثية ، أوغيرها من الألفاظ التي توحي بالحس الإسلامي الخالص وتنتشر في موضوع القصيدة.

وهكذا نلمح ازدواجية من نمط آخر في توزيع الصور ، ففي مقابل سيادة الصورة الجاهلية في المقدمة ، تسود الصور الإسلامية في موضوع القصيدة. وبهذا دافع حسان بشعره عن الرسول r والمسلمين عن إيمان كامل بما يقول ، فتحقق لمدحه مالم يتحقق لكثير من شعراء المدح ، فهو لم يتقدم هنا معتذراً ، ولم يستعرض فنه بغية كسب أو جزاء ، وإنما صدر عما اقتنع به وألزم نفسه بالدفاع عنه. ولذلك تختفي روح النفاق الاجتماعي من هذه القصيدة على الرغم من أنها في موضوع المدح الذي كثر توجيه الاتهامات إليه من هذا المنظور.

ويظل واضحاً في أسلوب المعالجة الفنية في القصيدة حرص حسان على المباشرة والتقريرية وعدم المبالغة في التعامل مع الصورة الفنية، وهو موقف لا يسجل محدودية خيال الشاعر قدر ما يصور حرصه على الصدق الفني

والاجتماعي معاً، وهو ما يتطلب منه عدم الإسراف في المبالغة أو تجاوز الحقيقة من خلال صور موهمة أو مستحيلة. فحسان هنا يستجيب لطبيعة الموقف الاجتماعي – في أخص خصائصه- في مدح الرسول ولذلك حاول أن ينثر في قصيدته بعضاً مما عاش في وجدانه من الألفاظ القرآنية والإيحاءات الإسلامية ، فجاءت همزيته جامعة بين تلك الألفاظ في موضعها وبين الموروث الجاهلي الطويل الذي احتل من القصيدة موقع الصدارة في الجزء الخاص بالمقدمة.

نظرة عامة في شعر حسان[104]

شعر حسان بعد الإسلام:

وهناك قضية أخرى حول شعر حسان بن ثابت وهي أن شعره بعد الإسلام أضعف في مستواه الفني من شعره الجاهلي.

وتتعدد الآراء في معالجة هذه القضية والتعليل لها ومعارضتها أو الموافقة عليها. وأول رأي يطالعنا ما روى عن حسان بن ثابت نفسه عندما سئل: "**لم ضعف شعرك بعد الإسلام يا أبا حسام؟ فقال: إن الشعر نكد لا يصلح إلا في الشر ، والإسلام قد حرم هذا كله**" ، كما رووا قوله: "**إن الإسلام يحجز عن الكذب ، وإن الشعر يزينه الكذب**".

كما نطالع رأي **الأصمعي** أحد رواة الشعر ونقاده القدامى يقول: "**الشعر نكد بابه الشر فإذا دخل في الخير ضعف هذا حسان فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره**" . وقال مرة أخرى : "**شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر فقطع متنه في الإسلام**"[105] .

وفي العصر الحديث يعترض الأستاذ الدكتور شوقي ضيف على ما يتردد من آراء حول ضعف شعر حسان في الإسلام ، ويرى أن شعره لم يضعف بعد الإسلام والضعيف في شعره هو المنتحل الموضوع عليه.

ولكن الأستاذ الدكتور **يوسف خليف** يوافق على ضعف المستوى الفني لشعر حسان في الإسلام ويعلل ذلك بسببين: -

الأول: كثرة الارتجال في شعره لملاحقة الأحداث السريعة التي كانت تحدث في الحياة الإسلامية خاصة إبان الغزوات وحركة الفتوح الإسلامية فلم تتح

---

[104] دراسات في أدب ونصوص العصر الإسلامي :د.محمد عبد القادر أحمد. (م12-دراسات)

(105) الشعر والشعراء 305.

للشاعر فرصة تجويد عمله الفني ، وإعادة النظر فيه بالتنقية كما كان يفعل في العصر الجاهلي.

الثاني: كان حسان يعبر عن موضوعات ومعاً جديدة لا عهد له ولا للشعراء بها من قبل، فلم تكن أمامه نماذج أو مثل سابقة يحتذيها ، بل كان يرتاد أرضا عذراء جديدة من الطبيعي ألا تستقيم له مقومات الصناعة الفنية تلك الاستقامة التي كانت تتاح له حين يتحدث في موضوعات ومعان من قبل سواء في شعره الجاهلي أو في شعره الإسلامي الذي كان يدور في المجالات الجاهلية المألوفة التي طالما دار فيها الشعراء القدماء والدليل على ذلك ما نلاحظه من تفاوت أسلوبي في شعره الإسلامي ، فهو لا يجري كله في مستوى فني واحد، وإنما نراه أحياناً ينحدر ويهبط عن مستواه الجاهلي، وأحياناً أخرى نراه يرتفع ويسمو إلى هذا المستوى ، وبصفة عامة نستطيع أن نلاحظ أن أسلوبه يرتفع ويسمو حين يعترض للمعاني القديمة ، وأنه ينحدر حين يعبر عن المعاني الجديدة[106] .

ويرى الدكتور عبد السلام سرحان في كتابه مختارات من روائع الأدب "إن ضعف شعر حسان ناشئ من كبر سنه، وتقدم عمره وهدوء عواطفه"[107] .

والرأي عندي أن الإسلام ضيق على حسان مجال القول بعض التضييق، فقد عرف حسان في الجاهلية بإجادة فن الفخر والهجاء ، ووصف الخمر، وذكر الأيام الخوالي وكلها أغراض حاربها الإسلام، ونهى عنها. فقد ربأ الإسلام بفن الشعر الجميل أن يستغل فيما ليس بجميل، وهذا النوع من الشعر فيه إثارة للعصبيات الجاهلية التي حاربها الإسلام، وفيه نبش للأحقاد التي مسح الإسلام عليها بالعفو والتسامح، ووقف أمامها داعياً إلى الوحدة، والتآلف لمجابهة أعداء الدين صفاً واحداً، كلمة مجتمعة، ولهذا ترك حسان الغزل الفاحش، والهجاء اللاذع، ووصف الخمر ومجالسها وما يدور فيها، واستبدل بذلك كله أغراضاً جديدة، ومعاني

---

[106] انظر يوسف خليف: تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي 46.

[107] مختارات من روائع الأدب 383.

شريفة،ومجالات ظاهرة بعيدة عن الشر ومذاهب الأشرار ، ومن الملاحظ أن شعر حسان الجاهلي فيه جزالة وشدة أسر ، أما شعره الإسلامي ففيه سهولة ورقة وبعد عن الغرابة والتعقيد فبعد أن أسلم حسان وسمع القرآن وتلاه ووعاه، وكثر ارتجاله الشعر بفعل الأحداث المتلاحقة وانتدابه للرد على خصوم الدين بسرعة ودون تأخير لان شعره ، وسهل أسلوبه ، ودمثت معانيه.

كعب[108] **بن زهير**[109]

أبوه زهير بن أبي سُلْمَى من فحول الشعر في الجاهلية، وهما من قبيلة مزينة، ولكنهما يوضعان في عداد غطفان حيث عاش زهير مع بنيه بين أخواله بني مُرَّة الذبيانيين. وقد تلقن كعب الشعر عن أبيه ، مثله في ذلك مثل أخيه بجير ومثل الحطيئة، ويذكر لنا الرواة الطريقة التي كان يخرج بها زهير تلاميذه من أهل بيته وغيرهم إذ يقولون إنه كان يحفظهم شعره وشعر غيره من الجاهليين حتى تتضح موهبة الشعر فيهم. ويقولون عن كعب إنه كان يخرج به إلى الصحراء، فيلقي عليه بيتاً أو شطراً ويطلب إليه أن يُجيزه[110]تمريناً له وتدريباً على صَوْغ الشعر ونظمه. ويبدو أن كعباً اشتهر في الجاهلية بأكثر مما اشتهر الحُطَيْئة، يدل على ذلك ما يرويه ابن سلام من أن الحطيئة قال له: "قد علمت روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم، وقد ذهبت الفحول غيري وغيرك، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً بعدك فإن الناس لأشعاركم أروْىَ وإليها أسرع"[111] ، فقال كعب قطعته التي يقول فيها:

فمَن للقوافي شانها من يَحُوكها إذا ما ثَوَى كعب وفوَّز جَرْوَلُ[112]

ومعروف أن كعباً وبجيراً أخاه والحطيئة أدركوا الإسلام، وكان أسبقهم إلى الدخول فيه بُجَيْر، وقد هجاه كعب حينئذ هجاءً آذى رسول الله بمثل قوله[113] :

أَلا أَبلغا عني بَجَيْراً رسالةً فهل لك فيما قلتُ - ويحك - هل لكا

---

[108] راجع في ترجمة كعب طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص 83 وما بعدها والشعر والشعراء لابن قتيبة 86/1 وأغاني (طبعة الساسي) 140/15 وابن هشام 144/4 وما بعدها والاستيعاب ص 226 وأسد الغابة 240/4والإصابة 302/5 ومعجم الشعراء للمرزباني ص 230 والخزانة 375/1 ،11/4 وقد طبعت(دار الكتب المصرية) ديوانه برواية ثعلب.

[109] العصر الإسلامي: شوقي ضيف.

[110] أغاني (طبع الساسي) 141/15 وأمالي المرتضى (طبع الحلبي) 97/1.

[111] ابن سلام ص 87 وانظر الأغاني (طبع دار الكتب) 165/2.

[112] ثوى وفوز: مات وهلك . جرول: الخطيئة.

[113] مقدمة الديوان ص 3 وأغاني (ساسي) 142/15 والسيرة 144/4 والاستيعاب ص 226.

شربتَ مع المأْمون كأساً رَوِيَّـةً فأنهَلَـك المـأْمونُ منهـا وعلَّكـا[114]

وخالفتَ أسباب الهُدَى وتبعتَـه على أَي شئٍ – ويْبَ غيرك – دَلَّكا[115]

على خُلُقٍ لم تُلْفِ أُمـاً ولا أَبـاً عليه ولـم تـدرك عليـه أَخـاً لكـا

ويقال إن الرسول سمع بهذا الشعر فتوعده ، وأجابه بُجَيْر فيما أجابه به بقوله[116] :

مَنْ مُبْلِغٌ كَعْباً فهل لك فـي التـي تلومُ عليهـا بـاطلاً وهـي أَحـزمُ

إلى الله لا العُزَّى ولا اللاتِ وحـده فتنجـو إذا كـان النَّجـاءُ وتـسلمُ

لدى يومَ لا ينجو ولـيس بمفلـت من النار إلا طـاهرُ القلـب مـسلم

ومازال كعب على وثنيته حتى فُتحت مكة وانصرف الرسول r من الطائف ، فكتب إليه بُجَير أن النبي r قتل كل من آذاه من شعراء المشركين إلا من أعلنوا إسلامهم، ودعاه أن يقدم على رسول الله تائباً. وشرح الله صدره للإسلام، فقدم المدينة وبدأ بأبي بكر ، فوقع من نفسه "فلما سلم النبي r من صلاة الصبح جاء به وهو متلثم بعمامته ، فقال: يا رسول الله ! هذا رجل جاء يبايعك على الإسلام فبسط النبي r يده، فحسر كعب عن وجهه ، وقال: هذا مقام العائذ بك بك يا رسول الله! أنا كعب بن زهير. فتجهمته الأنصار وغلَّظت له ، لذكره – كان- قبل ذلك رسول الله r ، وأحبت المهاجرة أن يُسْلم ويؤمنه النبي r ، فأمنه رسول الله"[117] ، وأنشده مدحته الخالدة:

بانت سُعاد فقلبي اليـوم مَتْبُـولُ متَّيمٌ إثرَهـا لـم يُفْـدَ مَكْبُـولُ[118]

---

[114] المأمون: الرسول وقيل بل أراد به أبا بكر. النهل: الشرب الأول . العلل: الشرب الثاني.

[115] ويب غيرك: هلكت هلاك غيرك، وويب بالنصب على إضماره فعل.

[116] الديوان ص 4 والسيرة 145/4.

[117] ابن سلام ص 83 والشعر والشعراء 104/1 وانظر الأغاني 142/14.

[118] انظر القصيدة في ديوان كعب (طبعة دار الكتب المصرية) ص 6. ومتبول: مغرم. وبانت: فارقت. ومكبول: مقيد.

فكساه النبي r بردة اشتراها معاوية من أبنائه بعشرين ألف درهم ، وكان يلبسها الخلفاء بعد معاوية في العيدين[119] . وقد اكتسى بها كعب حلة مجد لا تبلى، ولقبت قصيدته من أجلها بالبردة ونراه يستهلها بالغزل، إذ يذكر سعاد وفراقها وأن قلبه مرتهن عندها فليس له فكاك، وكأنه يتأثر أباه في بعض غزله إذ يقول في إحدى قصائده[120] :

وفارقتك برهنٍ لا فِكاك له يوم الوداع فأمسى الرَّهنُ قد غَلِقَا[121]

ويلح في وصف سعاد ويشبهها بالظبي ويشبه ريقها بالخمر ، متأثراً في ذلك أباه في نفس القصيدة ، كما تأثره في الحديث عن إخلاف صاحبته لوعدها. ويخرج من ذلك إلى وصف ناقته مستلهماً ما نظمه أبوه في هذا الموضوع من قبل.

وحسن إسلام كعب، وأخذ يصدر في شعره عن مواعظ وحكم يستهدي فيها الذكر الحكيم ، من مثل قوله:

لو كنت أعجبُ من شئ لأعجبني سَعْيُ الفتى وهو مخبوءُ له القَدَرُ
يسعى الفتى لأمورٍ ليس يُدْركها والنفس واحدةٌ والهمُ منتشِرُ
والمرْءُ ما عاش ممدودٌ له أملٌ لاتنتهي العيْنُ حتى ينتهي الأَثَرُ

---

[119] ابن سلام ص 87 والشعر والشعراء 106/1 والإصابة302/5.

[120] ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص 33.

[121] غلق الرهن: لم ينفك أبداً.

المـــــــديح

نموذج من كعب بن زهير في مدح النبي

بانتْ سـعادُ فقلبـي اليـومَ متبـولُ ... مُتَـيَّمٌ إثرهـا. لـم يفُـدَ ، مكبـولُ

وما سعادُ غـداة البـينِ ، إذ رحلـوا ... إلا أغن غضيض الطـرف، مكحـولُ

تجلو عوارض ذَي ظَلْمٍ ، إذا ابتـسمتْ ... كأنـهُ منهـلٌ بـالراحِ ، معلـولُ

أكرمْ بها خُلَّـةً ! لـو أنهـا صَـدَقتْ ... موعدَها ، أو لو أنَّ النصحَ مقبـولُ

فلا يغُرَّنك مـا منَّـتْ، ومـا وعَـدَتْ ... إنَّ الأمـانيَّ والأحـلامَ تـضليلُ [122]

كانتْ مواعيـدُ عرْقـوبٍ لهـا مـثلاً ... ومـا مواعيـدُها إلاّ الأباطيـلُ[123]

أرجـو وآمُـلُ أن تـدنو مودَّتهـا ... ومـا أخـالُ لـدينا منـكِ تنويـلُ

أمـستْ سـعادُ بـأرضٍ لا يبلِّغُهـا ... إلا العتـاقُ النجيبـات المراسـيلُ

تـسعى الوشـاةُ جنَابَيهـا وقـولُهُم: ... "إنكَ يا ابن أبـي سُـلمى لمقتـولُ"

وقـال كـلُّ خليـلٍ كنـتُ آمُلُـه: ... "لا أَلهينَّـك إنـي عنـكَ مـشغولُ"

فقلـتُ: خَلـوا سـبيلي، لا أبـا لكُـمُ ... فكـلُ مـا قـدَّرَ الـرحمنُ مفعـولُ

كل ابن أنثـى، وإنْ طالـت سـلامتُهُ ... يوماً علـى آلـةِ حَـدباءَ محمـولُ

نُبِّئـت أنَّ رسـول الله أوعَـدني ... والعفوُ عنـد رسـول الله مـأمول

مهلاً: هـداكَ الـذي أعطـاكَ نافلـةَ ... القرآنِ ، فيـه مـواعيظٌ وتفـصيلُ

لا تأخـذنّي بـأقوالِ الوشـاةِ ، ولـم ... أذنب وإن كثـرتْ فـيَّ ، الأقاويـلُ

لقد أقوم مقاماً لـو يقـوم بـه ، أرى ... وأسـمع مـا لـو يَـسْمَعُ الفيـلُ

---

[122] منت: جعلتك تتمنى.

[123] عرقوب: رجل من يثرب يضرب به المثل في إخلافه بالوعد. يقال: إنه كان صاحب نخل وإنه وعد صديقاً له ثمر نخلة من نخلة ، فلما حملت وصارت بلحاً أراد الرجل أن يصرمه فقال عرقوب دعه حتى يشقح أي يحمر أو يصفر، فلمـا شـقحت أراد الرجل أن يصرمها، فقال عرقوب له: دعها حتى تصير رطباً. فلما صارت رطباً قال: دعه حتى يصير تمراً ، فلما صار تمـراً انطلق عليه عرقوب ، فجده ليلاً فجاء الرجل بعد أيام فلم ير إلا عوداً قائمًا فذهب موعود عرقوب مثلاً.

لظــلَّ يُرعــدُ إلا أنْ يكــونَ لــهُ ... مــن رســولِ بــإذنِ الله تنويــلُ
حتى وضــعتُ يمينــي ، لا أنازعُــهُ ... في كفِّ ذي نقماتٍ ، قيلــه القيــلُ
لــذاكَ أهيــبُ عنــدي إذ أكلمُــهُ ... وقيــل: إنــكَ منــسوبٌ ومــسؤولُ
من خادرٍ من ْليوثِ الأُسْــد مــسكنهُ ... مِن بطنِ عثَّرَ غيــلٌ دونــهُ غيْــل
إن الرسولَ لــسيفٌ يستــضاء بــه ... مُهنَّــدٌ مِــنْ ســيوفِ الله مــسلولُ
في فتية من قُــريشٍ قــال قــائلهُمْ ... ببطنِ مكــةَ لمــا أســلموا: زولــو
زالوا فمــا زال أنكــاسٌ ولا كُــشفٌ ... عنــد اللقــاء ولا ميــلٌ معاذيــل
شــمُّ العــرانينِ أبطــال لبوســهُمُ ... مِنْ نسج داوودَ في الهيجا ســرابيل
لا يفرحــون إذا نالــتْ رمــاحهُم ... قوماً ، وليسوا مجازيعاً إذا نيلــوا
لا يقــعُ الطعــن إلا فــي نحــورهِمُ ... ومالَهُمْ عن حياضِ المــوت تهليــل

إيجاز المضمون: استهل بمقطع غزلي عن فــراق الحبيبــة التــي خلَّفتــه متيماً،ثم يُشبهها بالغزال ، ويصف أسنانها ورضابها المسكر كالخمرة. ويتحدث عن نكولها بالوعد وامتناعها عن النصح. فهي تغرر به فيما هو يرجو وصــولها، وقــد شط بها المزار وبَعُدَ المقام.

وينقطع ، من ثمة ، إلى الاعتذار والعتاب ، ذاكراً إنذار القوم لــه بــالهلاك وانشغالهم عنه بهمومهم ، لا يُعينونه على محْنته ولا يؤاسونه أو يَحمونــه. ويعبــر عن اليأس الذي اعتراه بالقول إنه لا مفر للمرء مما قُدَّر له وأن موته حتم مكتــوب عليه في حينه. ويباشر ، من ثمة ، المدح والاعتذار مــستدراً عطــف الرســول ، مسفهاً كلام الوشاة ، ممثلاً خوفه – تعظيماً للنبي – بما يَبُثُّ الرُّعب فــي الفيــل ، وهو أضخم البهائم وأعظمها هامةً. ويقول أنه لم يطمئن إلا بعد أن صــافح النبــي صاحب القول النافذ. ويكرر المعنى، ممثلاً إياه بأسد خــادر ، مُقــيم فــي أجمَّتــه، متربصٍ بمن يُوقع به، ويمتدحه بالهدى والقتال في سبيل الله وباجتمــاع القرشــيين

حوله ومهاجرتهم معه ، و ارتدائهم رداء الحرب ، لا يفرحون بالنصر ولا يقنطون بالهزيمة ، بل تراهم يقُبْلون على العراك ولا يتولّون عنه قطّ.

تقسيم المقطوعة من حيث المضمون:

1 -8: المقدمة التقليديَّة.

9 -12: ذكر أقوال الوشاة.

13-26: الاعتذار والمجد.

أولا: المقدمّة التقليديَّة: (1-8) . ألمَّ فيها بأربعة معان هي التَّالية:

- نأيها ورحيلها.
- تشبيهها بالغزال.
- ذكر تغريرها به ومخادعتها له.
- وصف عذابه بها.

1- **أما ذكره لفراقها وارتحالها** ، فقد اقتصر فيه على الناحيـــة الإخباريـــة السرديَّة ولم يَصِفْه بوصف أو يتعرض فيه للمطايا والسبل التي اجتازتها ولم يمثلها بتشابيهها، على ما هو مأثور في الشعر القديم. فوالده زهير يفصِّل في ذلـــك غايـــة التَّفصيل ويعين الأمكنة ويسميها بأسمائها ويقرن بين الظَّعائن والنخيل شأنه في ذلك شأن امرئ القيس. أما كعب ، فإنَّه يُشير إلى الفراق ولا يستطرد في تفصيل أمره.

2- **وأما وصفها** ، فإنه يقْرنها فيه بالغزال الأغنِّ، المنكسر الطرف ، المكحول العيَنْين. وقد استعار لها منه أو قرنها في غِنَّة الصوت، أي جماله وحـــسن إيقاعـــه ووقعه، وفي فتور النَّظر، نامياً إليها به السحر والإغواء. إذ أن فتوره يتضاعف من خلابته، وفي تكحُّل الأجفان، أي توشُّحها بإطار من السَّواد ممّا يزيدَا عمقاً وجـــلاءً وتألُّقاً. وليس في هذه المعاني جدَّة ، بل إنها لا تعدو أن تكـــون تكـــراراً لمعـــان أُنهكت في سُنَّة التشبيه ومطالع الغزل.

ويردف بوصف أسنانها، وبسمتها المتألقة عليها ويورد لها ما يستنفذ غرض القول فيها، متعرضاً إلى رضابها، مُمَثّلاً إياه بالراح ، وفقاً للتشبيه المأثور في ذلك. وليس في هذا القول شغف خاص بالحبيبة أو معاناة صادقة ، إذ تراه يَبْسُط المعاني في حدودها المقرَّرة المتداولة. فهي معان اتبَّاعيَّة ، مكرورة ، بل مملولة أتى عليها من تقدَّموه في الحدود التي أدَّاها بها ، لم يُضْفِ إليها ولم يُضفْ عليها من ذاتيته ما يبثُّ فيها الحياة والقدرة على الإيحاء والتأثير.

3- أما سوء ظنه بها وذكره لمخادعتها (4-8)، فيتَّخذ منها أداة لإظهار تنكره للمرأة. فهي تواعده لتغرر به وتخلبه ، ثم تُخْلف وعدها ، فيتضلل ويلتبس عليه أمره . والكذب هو وسيلة للتدلُّل ، تفرح بإغواء الرجل وتتيِيمه ، دون أن تواصله ، ليَتَضاعف شغفُه بها وتتضاعف غبطتها بإذلاله واقتياده . والأحلام التي يعدُ بها المرء نفسه من الوصال، هي أحلام وأمانٍ مرذولة ، خائبة ، لا حقيقة لها ، ولَّدها الوهم والغرور.

يعمد الشاعر إلى **مقارنة طباعها بطباع عرقوب** الذي ذهب مثلاً في وعده ومماطلته ، يؤجل ولا يعجل ثم يخلف في النهاية بعد أن يمني النفس بشتى الأماني مع ذلك كله ، فإن الشاعر لا يروعوي ولا يثوب ، بل إنه لا يزال يؤمل في وصالها وداء العشق لا دواء له ، وصاحبه فاقد العقل والإرادة.

ومؤدي كلامه في هذا الشأن أن الإنسان هو عبد لميوله وأن المرأة تخادعه وتفقده كرامته ، ولا خلاص له من نفسه وأهوائه. فالمرأة هنا ترمز إلى عالم السقوط وربما الشر الذي يلازم المرء ويشغله بما لا طائل تحته ولا رجاء منه. والمقطع بمجمله استنفذت معانيه في تقليد الغزل والعتاب.

4- أما وصف عذابه بها ، فقد عرض له بألفاظه المأثورة كالتبل والتتيُّم والكبول، وهي ألفاظ تكرِّر معنى واحداً متشابهاً ، مباشراً ، وإن كانت الكبول تؤدي له صورة ، بعد أن كان فكرة . وعدم إلحاف الشاعر في ذلك وإمعانه به ينم عن أدائه فيه واجب التقليد دون معاناة.

ثانياً: ذكر أقوال الوشاة: وقد عالج فيه أربعة معانٍ أساسية هي التالية:

- إنذاره بالقتل المحدق به والذي لا نجاه له منه.
- توّلي أصحابه عنه وانشغالهم بهمومهم عن نجدته ومناصرته.
- ايمانه بأن حياة الإنسان وموته كتبا له في كتاب القدر.
- تأكيده على حتمية الموت ، وأنه مائت غداً ، إن لم يمت اليوم.

1- وإنذاره بالقتل المحتّم. يطالعنا في قوله القائلين له: "إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول" . وهو ، في نقله لهذا الكلام ، لا يَعْرض لأمر الوشاة أَنفسهم ، وإنَّما يتوسلهم لتعظيم شأن النبي بهيبته فيهم وإيمانهم بقدرته المطلقة على البطش بمن ينازعه في أمر الحق. فما يعلن من كَلاَم يتحقَّق لتوه ، ومن أَوعده بالقتل عدَّ مقتولاً، وإن كان لمّا يُقْتل. وقوله هذا شبيه بقول النابغة معتذراً للنَّعمان ، ومعظّماً له:

فإنك كاللّيل الّذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأي عنك واسع

وتصاغر المعتذر للممدوح هو نوع من السيكولوجية التي تستثير فيه عاطفتي الرَّحمة والعظمة ، مما يحقق للشاعر مبتغاه ويبعد عنه الويل . وهكذا يمكننا اعتبار كلامه نوعاً من الاعتذار غير المباشر الّذي مهّد به لما دونه أو ما إليه.

2- وتولّى صُحْبه عنه أو تخلّيهم عن مناصرته ، أدَّاه أيضاً، في سبيل غرض مكتوم للاعتذار ، اتخذ فيه صُحْبه كما يتَّخذ الِّروائي أشخاص الرِّواية ، يعبر من خلالهم عن أفكاره ويجسّد نواياه. فصحبه هم كالوشاة أداة لإ ظهار هيبة النبيَّ وقدرته من خلال الأحداث والأشخاص ومعنى هذا البيت:

وقال كلُّ خليل كنت آمله لا ألهينك إني عنك مشغول

هو امتداد لمعنى البيت السَّابق متَّل فيه وقع كلام النبي موقع الرَّهبة والتصديق في نفوس أعدائه ، أي الوشاة فضلاً عن صحبه الّذين كان يؤمّلهم. فهم ، جميعاً ، عرفوا صولة النبي أو عَرَفُوا عنها ، فإذا هم ينْتَكِصُون وَينْكُلُون عن صديقهم، نجاة بأنفسهم من الويل المحدق به والذي لا مفر له منه. وهكذا فان

انفراط عقد الأصحاب عن الشاعر كان حادثة واقعية تُؤَدي غايةً مَعنْويَّة وراءهـــا ، تُفْصح بالفعل العملي عمَّا يقَع في نفوس القوم من وعيد النّبي وتهديده.

3- أما إيمانه بقدر الموت المكتوب ، بقوله:

فقلت: خلُّوا سبيلي ، لا أبا لكم فكُـلُّ مـا قـدَّر الـرَّحمن مفعْـوُل

فهو تعبير ، بوجه من الوجوه ، عن يأس الشاعر من النجاة وإذعانـــه إلـــى القدر المحتوم الشَّاخص في تهديد النبي. إن فيه قليلاً أو كثيراً من معنى الاستـــسلام لما لا طاقة للمرء بدفعه والتحرر من قبضته. والمرء لا يفَـزع إلـــى الحكْمـــة إلاّ ليتعزّى بها ويقارن بين قدَره وقدر الآخرين، مُوحِّداً بينهما ، حتّى يقنع ذاته بأن مـــا أصابه هو أمر عام ، شامل ، ينتظم الحياة كلُّها وأبناءها ، جميعهم . وتعبيره عـــن يأسه العميق وخضوعه لنذر الموت هو امتدادُ لما تقدم ذكره من تعظيم لهيبة النبـــي وصولته وجولته.

4- ولعل **إقراره أو إذعانه لحتميّة الموت** ، بعد إقـــراره بتوقيتـــه فـــي حينـــه المحدود، لا يعدو الفكرة العامَّة التي تتلامح لنا عبر هذا المقطع بكامله، وهي فكرة اعتذاريَّة، عامَّة ، تفتّق لها بكل حادثة ليعظّم من شأنها ووقعها في نفـــس الـــسّامع. فهو يتعزَّى بالقول إنه مائت لا محالة ، ولا فرق في ذلك أن يموت اليوم أو غداً أو فيما بعده.

تلك كانت المقدِّمة الاعتذارية غير المباشرة والتي تؤول معانيها إلى خدمـــة غرض واحد اقتبسه كعب من تكنية الاعتذار المأثورة في شعر النَّابغة ، يتـــضاءل فيها قدر المعتذر بقدر ما يتعاظم قَدْر المُعتْذر منه ، ويكون ، من جرَّاء ذلـــك ، أن تمتنع المجابهة ويزول التحدّي بإقرار المذنب بذنبه وضعفه أمام جبـــروت الخَـــصْم الَّذي يُرَاضيه ويُصافيه.

ثالثاً: الاعتذار والمدح المباشران: (13 – 26)

أ- المدح: ويقوم على المعاني التالية:

- إقراره برسالة الرسول محمد النازلة عليه من لدن الله.(13)

- تمثيله بسيف للهداية ، أي أنه يمتدحه بالقتال في سبيل الحق والدين.
- امتداحه بتألب قريش حوله.
- امتداحه بأنصاره الذين هاجروا معه من خلال دروعهم أي استعدادهم الدائم للقتال، ومن خلال أخلاقهم التي لا يستخفُّنَّهم فيها انتصار أو انكسار، ولا يجزعون بها من القتال ولا يتولُّون عنه.

1- وقد أقر برسالة النبي بقوله: "تُبِّئت أن رسول الله أوعدني" ناسخاً المعنى بلفظه من النابغة بقوله: "نبّئت أن أبا قابوس أوعدني" . وكعب إذ أطلق هذه العبارة إنما مهد بها لطلب العفو ، إذ لم تكن تحْفظ النّبي ثارات فرديّة خاصة ، بل إنه كان يثور على من يناوئه في الدين ويَسْفه عليه ، ويزعج عنه أتباعه . وعقّب ، إثر هذا الاعتراف ، طالباً العفو بقوله: "والعفو عند رسول الله مأمول" ، مكرِّراً العبارة الإضافية: "رسول الله" مرتين لغاية نفسية اعتذاريَّة . وقد نعجز عن فصل المعنى المدحي عن المعنى الاعتذاري ، إذ يتضمن أحدهما الآخر. فالإقرار بالرسالة ونسبة النبي محمَّد إلى الله تَغْلُب عليهما الصَّفة المدحيَّة ، أما طلب العفو ، فتغلب عليه الصفة الاعتذارية لاعترافه فيه بذنبه.

ولايزال الشاعر يُلْحف بتكرار الصفة الإلهيَّة للنَّبي كما في مثل قوله:

إن الرَّسول لسَيْف يُسْتضاءُ به مُهَنَّد من سيوف الله مَسْلُولُ

وفي هذا البيت يبرِّر حروب النبي ويجعلها حروباً مقدَّسة ، لا يَطمْع فيها بجاه أو سلطة ولا يجهض بها نقمته على أعدائه. إنه يحارب في سبيل عقيدة ، في سبيل الحقيقة . وقد ألَّف لذلك بين السيف ، وهو رمز للقوَّة ، والضَّوء وهو رمز للهداية. فقوته هي قوّة بصيرة ، لا تهدف إلى البطش، بل إلى الوعظ والإصلاح . أما في الشطر الثاني ، فإنه يكرر تشبيه بالسيف وينسبه إلى الله ، مرّة ثالثة ، وذاك يعني أن الله انتدبه إلى تلك الرسالة وأنه هو الذي يضْرب بسَيْفه. وكان الغزو

والقتال ، قبلئذ، يهدف إلى المصلحة، أما النبي فجعلهما يهدفان إلى تحقيق غاية إنسانية روحانية.

2- وفي جزء آخر من مدحه ينوِّه كعب باحتشاد قريش وتألُّبها حول النَّبي. وقد كان للنبي أتباع من دونهم ، لم يشر إليهم بإشارة ولم يمتدحه بهم. ذاك أن قريش كانت تمثل السّلطة والوثنية عند العرب، واجتماع شملها حول النبي يُبيِّن على أن أئمّة العرب اعتنقوا الدّين وأقروا به وتخلُّوا عن كفرهم. والشّاعر يخص من هاجر منْهم ليوعز بذلك إلى أن قوم النبي ناضلوا من دونه منذ البدء ، وأنهم نزحوا من المقام الباطل إلى مقام الحق ، مخلّفين أهلهم ومالهم.

3- ويَمتْدح القُرشييِّن بالبطولة في صورة قاطبة ، موحية إذ يقول:

شم العرانين ، أبطال ، لبوسهم من نسج داوود في الهيجا سرابيل

أي إنهم يرتدون الدُّروع الطَّويلة السَّابغة في القتال. والدّروع ترْمُز، هنا. إلى ما دونها من سائر الأسلحة ، فهي كالجزء الذي يشير تمامه إلى تمام الكل. فمن يرتد الدّروع الدَّاوودِيَّة ، يُرْفقها بسائر عدد القتال.

ويرسم لهم صورة أُخرى تجمع الواقعيَّة إلى المثاليَّة بقوله:

لا يقع الطّعن إلا في نحورهم ومالهم عن حياض الموت تَهْليلُ

والواقعية تبدو في هذا القول في اعترافه بأنّه قد يقع منهم قتلى، إلا أنه حوَّل تلك الواقعيّة إلى ضرب من المثاليَّة اللّطيفة ، إذ أردف بأنهم لا يُطْعَنُون قط في ظهورهم ، بل في صدورهم ، أي أنهم يقبلون، أبداً، على القتال ويؤثُرون فيه الموت على الفرار.

ويجعلهم في بيت آخر فوق الفرح والترح والأنانيَّة والمأرب، إذ إنهم يقاتلون قياماً بواجب القتال لا رهبة ولا رغبة:

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوماً. وليسوا مجازيعاً . إذا نيلوا

فهم ، في حروبهم ، فوق الناس ، يقاتلون للقتال ولخدمة الحقيقة ونشر الدعوة، إلا أنهم ، مع ذلك ، قد ينكسرون، أي أنهم خاضعون، من جهة ثانية ، لمصير البشر. وكعب لا يحشد الصوَّر الخارقة التي تعزل ممدوحيه عن سائر البشر كالنَّابغة أو كعمرو بن كلثوم في مفاخره، بل تراه يحرص على تمييزهم في حدود المصير البشري القابل للتحقيق. فمعانيه المدحيَّة ، متّزنة عاقلة ولعلَّه ورِث الرَّوية عن أبيه زُهَيْر

ب- **الاعتذار**: ويقوم على معنى أساسي عام، مستفاد من سنَّة الاعتذار في شعر النَّابغة ، يَحشد فيه معاني الرهبة المباشرة ، بعد أن أوحى بها في مطلع سابق بصورة غير مباشرة. ويمكن أن نستطلع عبر ذلك دحضه لما زور الوشُاة عليه وخوفه من الهلاك ، إذ أوعدهَ النَّبيّ.

1. أما قول الوشاة ، فقد أَلمَح إليه ولم يُصَرِّح به إذ اقتصر على دفعه:

لا تأخذني بأَقوال الوشاة ، ولم أَذنب ، وإن كثرت فيَّ الأقاويل

فهؤلاء يتقوَّلون تقوُّلاً ، ويتحاملون عليه ، وهو بريء. ولم يحفْل الشَّاعر بتقديم البينة والأخذ والرد، بل ألم بنوع من الدفاع الخطابي، القائم على شدَّة التأكيد بالمَعْنى ذاته ، دون دعمه بما دونه أَو بما إليه.

2. ويمثل خشيته بالمقام الذَّي يقوم فيه بين يدي النّبي، وهو يبثُّ الرُّعب حتى في رَوْع الفيل. وقد توسَّل هذا الحيوان لعِظَم هامته وقوَّته، على غرار الجاهليين الَّذين يجسِّدون معانيهم من خلال الصّفات الأَظهَر في البهائم.

إلا إن خوف الشّاعر ، على عظَمه، يَهْدأ ويستكين، عندما يؤمنِّه النّبيّ، وقد حرص على الإشادة بالأمان ، وهو يُوجس خيفةً من امتناع النبي عن العفو.

ويشفع هذا الاعتذار ، على دَأبه، بتأكيده على قوّة النبيِّ: "في كفٍّ ، ذي نقمات ، قيله القيل" أو قوله:

من خادرٍ من لُيُوثِ الأُسد، مسكنه من بطن عثَّر ، غيل دونه غيلُ

خلاصة حول المضمون: بدا كعب في هذه القصيدة مترجّحاً بين عـــاطفتي الإكبـــار والتعظيم وعاطفتي الخوف والرعب. إلا أنه لم يفصّل في معانيه كأبيه أو مَن إليـــه ولم يسرف إسراف شعراء المدح ، فأبقى لمعانيه نكهة إنسانية أعمق تأثيراً وإن لـــم تكن أكثر غلوّاً

القصيدة من حيث الطبائع الأسلوبية:

أ- **الوصف والنعوت**: ونفهم بالنّعت ، هنا، اللّفظة التي تصف مظهراً حسيّاً أو حالـــة نفسيَّة ، وقد تكون نعتاً مباشرة أو خبراً ، مفْردة أو مجملة ، ومنفردة أو متكـــرِّرة . مثال ذلك:

- فقلبي ، اليوم ، متبول متيم ، إثرها ، لم يفد ، مكبول _ والنعت هنا مكررة ، بعد مفردة ، وبعضها مستفاد من جملة فعليّة

- إلا أَغَنَّ ، غضيض الطَّرف ؛ مقبول – العتـــاق ، النجيبـــات ، المراســـيل. الوشاة – مقتول – خليل – مشغول – مفعول – وإن طالت ســـلامته – محمـــول – مأمول – فيه مواعيظ وتفصيل – ولم أذنب – ذو نقمات ، قيله القيـــل – منـــسوب ومسؤول – خادر – غيل دونه غيل – يستضاء به – مهنّد – مسلول – أنكـــاس – كشف – ميل معازيل – شمُّ العرانين – أبطال – لا يفرحون – ليسوا مجازيعاً.

وقد نقع على ما دون ذلك من نعوت في مؤدى المعاني والجمـــل، كمـــا أن القوافي أتت، في معظمها ، نعوتاً أو ما إليها. وقد تأدى ذلك من وقـــوف الـــشاعر موقفاً وصفيّاً ايضاحيّاً، يتوسّل به النُّعوت للتحديد والغلوِّ والإيحـــاء. فهـــو يـــصف المعنى أو يقرره أو يصوره بها تصويراً جزئيّاً، تجاوز فيه عن الـــصورة المتمثلـــة في مشهد أو حادثة أي عن الكناية الحسيَّة المأثورة في شعر أبيه ومَن إليه.

ب- **التَّشبيه**: نقع في هذه القصيدة على أربعة تشابيه ، متفاوتـــة القيمـــة والقـــدرة الإيحائيَّة:

- وما **سعاد**،غداة البين، إذ رحلـــوا إلاّ **أغن غضيض الطَّرف**، مَكْحـــول

والشاعر لم يتوسّل للتشبيه هنا ، شكله التقليدي ، وإنما أوحى به من المقارنة بين الحبيبة والغزال، كما أنه غالى به وحاول أن يضْفي عليه بعض الجدَّة بتخصيصه في الغنّة وغضاضة الطرف واكتحال العينين . والشعراء الإسلاميون قلَّما اشتقُّوا لأنفسهم تشابيههم ، بل إنهم تولّوا منها المأثور وفصّلو فيه ، متخذين ذلك سبيلاً للتجّديد.

- **كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً**: وهذا الشطط ينطوي على تشبيه لمواعيدها. بمواعيد عرقوب ، حيث أفاد الشّاعر من الأسطورة أو المثل ليجلو معانيه ويؤكّدها.

- **أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل لظلّ يرعد** .... وقد تشبَّه في عظم خوفه بالفيل ، وهو تشبيه افتراضيّ ، إيحائي وليس واقعياً كتشبيه الحبيبة بالغزال أو نفسيّاً كتشبيه وعودها بوعود عرقوب.وهو، فضلاً عن ذلك ، تشبيه استطراديٌّ انصرف فيه الشَّاعر إلى التفاصيل والجزئيات.

- **لذاك أهيب عندي من خادر من ليوث الأسد**: والتشبيه يقوم على المقارنة بين النبي والأسد المتربّص ، مع إيثار للنبيّ . فهو لا يقوم على المقابلة بل على المفاضلة بحيث يسمو المشبَّه على المشبَّه به.

ج- **الفكـرة**: ولعلَّها الرَّكيزة الأقوى أو أنهَّا متن القصيدة ، لغَلَبَة العُنْصر العقلي وضمور الخيال المصور. ونكاد لا نقع على صورة ولو حسيَّة. فيما عدا بعض الصور الافتراضيّة المؤلفة تأليفاً أو المفاضلات التَّشبيهيَّة. أما الانفعال ، فإنّه ينزو ويشتد في إظهار رهبة الشاعر دون أن يمده بقدرة على افتراع المعاني كما أمد النَّابغة واشتق له صورة اللّيل المحدق بكل شيء أو بتلك الصّور الحسيَّة المتماديّة التي جسَّد بها تلذُّعه وأذاه. وإذا كانت صورة الفيل تقوم بعض هذا المقام ، فإن القصيدة لا تعدو مجموعة من الأفكار الحسنة التوقيع ، المُمْتنعة عن الغلو الأرعن الفاقد المضمون الإنساني. وهي تسطع وتتألق. حيناً ، وتخبو وتضمر ، حيناً آخر. إلا أن إلحافة بها وتأكيده عليها يُقْنع السامع بها دون أن يُطلْعه على جديد في معنى

الخوف والاعتذار ، فيما عدا التوحيد بين الخوف واليأس والموت ، وهي أعمق مقاطع القصيدة مضموناً.

- **طبائع العبارة:** وشَّح الشَّاعر عبارته بما يوافق انفعاله من صيغ مأثورة ، وفقاً لما يلي:

1- **التمنِّي:** لو أنها صدقت موعودها أو لو أن النصح مقبول: والتمني ينطوي هنا على معنى النّفي والاستحالة. فتمنّيه لصدق وعدها ينمُّ عن تعذُّره عليه.

- ويدنو إلى ذلك قوله: "أرجو وآمل أن تدنو مودَّتها" حيث تجسَّد التمنّي بفعله المباشر فيما توسل ، قبلاً أداته الخاصة بصيغته.

هداك الَّذي أعطاك نافلة القرآن: وهو نوع من التمنِّي المشتمل على معنى التقرير.

2- **الأمر والنَّهي:** وهما يعبران عن الموقف والإرادة كقوله:

- **لا يغرّنك** ما منّت – **خلُّوا** سبيلي – **مهلاً** هداك الذّي أعطاك نافلة القرآن- **لاتأخذنِّي** بأقوال الوشاة – لما أسلموا زولوا.

والمثل الأوَّل يفيد التحذير ، والثّاني الثَّورة والتَّذمُّر والمضي في الرأي بما يخالف الآخرين . والثالث يؤدّي معنى التريُّث والتنبيه والاستدراك، فيما يوحي الرَّابع بالاستعطاف والترجِّي.

3- **الحصر والاستثناء:** وهما يفيدان التَّخصيص أو الغلوّ وما إليه، كقوله:

- "**وما سعاد ...إلا أغنُّ**" أفاد الحصر والتّخصيص، وبالتالي ، الغلوَّ والمثالية.
- "**وما مواعيدها إلا الأباطيل**" : أدَّى معنى النَّعت المنفرد المستقلِّ بحيث يمنع عنَّا أي افتراض دونه . فهو ينطوي على الإطلاق والتأكيد.
- **لا يبلِّغها إلا العتاق:** للغلوِّ ببعد المسافة ومشقة السّفر.
- **لظل يرعد إلا أن يكون له** : معنى الاستثناء الصريح.
- **لا يقع الطَّعن إلا في نحورهم:** معنى الإطلاق والتأكيد.

4- **الجزم والشرط:** وربَّما وردا مُتَجانبين ، أو متكاملين كقوله:

- ولم أذنب و**إن** كثرت في الأقاويل.

وقد يتخذ معنى الظرفية ، فضلاً عن الشّرط ؛ "لا يفرحون إذا نالت رماحهم قومـــاً، وليسوا مجازيعاً، إذا نيلوا".

5- لام الابتداء أو التأكيد، كقوله:"أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل لظلَّ يرعدُ".

- **لذلك** أهيب عندي – إن الرَّسول لسيف يستضاء به.

6- الحوار ، وقد بدا في مثل قوله:

- **وقولهم** : إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول.

- **وقال**: كل خليل كنت آمله.

- **فقلت** خلّوا سبيلي.

- **وجه التقليد**: اقتفى كعب على آثار النابغة ، كما نوَّهنا بذلك ، قبلاً، فـــي طبيعـــة المعاني فضلاً عن بعض صيغ العبارة . ونضيف هنا المقابلة بين الأشطر التالية:

- مهلاً هداك الّذي أعطاك نافلة القرآن – كعب-

- مهلاً فدى لك الأقوام كلّهم – النَّابغة-

- لا تأخذنِّي بأقوال الوشاة – كعب –

- لا تأخذني بذنب لست فاعله – النَّابغة –

تأثير البيئة والعصر: تحفل هذه القصيدة بأجواء العصر الدينية والسياسية وتطلعنا عن موقف النبي من الشّعراء وموقف الشّعراء منه، فضلاً عمَّا كان يقوم به أعداؤه والمؤلبون عليه. إلا أن الشّاعر لم يفد فيها من الدِّين الجديـــد إلا بعـــض المعـــاني المأثورة وتكرار ذكر الله ونسبة الرَّسول إليه ، بالإضافة إلى امتداح النبيِّ بـــالقرآن وما إليه.

لبيد[124]

من عشيرة ذات سيادة شرف في بني كلاب العامريين ، هي عشيرة بني جعفر ، وقد اشتهر فيها أبوه ربيعة وأعمامه الطُّفيل وأبو براء ومعاوية. أما ربيعة فكان بحراً فياضاً، ومن ثَمَّ لُقِّب :"ربيع المقُتْرين" وقد قتلته بنو أسد في بعض حروبها مع قومه. وأما الطفيل فكان فارساً مغواراً وهو أبو عامر المشهور هو الآخر بفروسيته ، وكذلك كان أبو براء شجاعاً مقداماً وكان يلقَّب بملاعب الأسنة ، أما معاوية فكان ذا رأي وحكمة ، فلقِّب بمعوِّذ الحكماء. وأم لبيد تامرة بنت زنباع العبْسيّة.

وقد نشأ لبيد يشعر شعوراً عميقاً بكرامة أسرته وأمجادها ومناقبها، وبمجرد أن شبَّ أخذ يشترك في حروبها وغاراتها ووفادتها على أمراء الحيرة ويقص الرواة من ذلك حديثاً يتصل – إن صَحَّ – بأول ما كان من تيقظ موهبته الشعرية وهو لا يزال حدثاً، فهم يروون أن وفداً من قومه على رأسه عمه أبو براَء وفد على النعمان بن المنذر، فوجد هناك وفداً من بني عَبْس على رأسه الربيع بن زياد، وكان بين العبسيين وبني عامر قبيلة لبيد عداوة منشؤها أن العامريين قتلوا زهير بن جذيمة سيد بني عبس في بعض حروبهم. ولم يلبث الوفدان أن اصطدام ، وأخذ الربيع يدس على العامريين عند النعمان. وعرفوا ذلك ، فاستشاط لبيد غضباً، ووثب بين يدي النعمان يهجو الربيع برجز مقذع، فانصرف النعمان عن الربيع وأجزل في إكرامه للعامريين. وسواء أصح هذا الخبر أو لم يصح فإن لبيدا أخذ منذ سال الشعر على لسانه ينظمه في الفخر بعشيرته والاعتداد بها اعتداداً بالغاً. ويقال إنه كان يكتمه في أول الأمر، حتى إذا نظم معلقته"عفت الديار محلُّها فمقامها" أخذ

---

[124] انظر ترجمة لبيد ابن سلام ص 113 والشعر والشعراء 231/1 والأغاني (طبعة دار الكتب) 361/15 وطبعة الساسي 130/15 وطبقات ابن سعد 20/6 وأسد الغابة 260/4 والموشح ص 71 وأمالي المرتضى (طبعة الحلبي) 189/1 و الاستيعاب ص 235 والإصابة 2/6 والمعمر بن ص 60 والخزانة 334/1 وقد طبع الخالدي جزءاً آخر سنة 1880 وأضاف بروكلمان بقية طبعت في لندن سنة 1891 وطبع الديوان أخيراً طبعة علمية محققة المطلع بها إحسان عباس ونشرت في الكويت سنة 1962.

يظهره ، وأخذ اسمه يطير في القبائل . ولما سارت الركبان بـأمر الرسـول فـي المدينة ورسالته النبوية أرسله عمه أبو براء برسالة إليه[125] ، فوقع الإيمان في قلبه ، إلا أنه لم يُعْلن إسلامه حينئذ ، وعاد إلى قبيلته، حتى إذا استدار العام خرج مع وفد منها إلى الرسول r ، فأعلنوا دخولهم في دين الله. وكان ابن عمه عامر بن الطفيل وأخوه أربد وفدا على الرسول قبل ذلك يريدان به شراً فعصمه الله ، ودعا عليهمـا، فلم يلبث عامر أن أصابه طاعون في عنقه فقتله ، أما أربد فنزلت عليه صاعقة من السماء أهلكته ، وظل لبيد بعد إسلامه يبكيه بكاء حاراً.

ورجع لبيد بعد إعلانه إسلامه إلى قبيلته يذكر لهم البعث والجنـة والنـار ويقرأ لهم القرآن، وما زال بينهم حتى خطَّ عمر الكوفة فنزلها وأقام بهـا إلـى أن توفاه الله في صدر خلافة معاوية سنة أربعين للهجرة. ويقول الرواة إنه شغل نفـسه حينئذ بالقرآن وتلاوته ولم ينظم الشعر إلا قليلاً، ويصورون ذلك فيقولون إن عمـر أرسل إلى المغيرة بن شُعبْة واليه على الكوفة:أن استنشدْ من قِبَلـك مـن شـعراء مصرك ما قالوا في الإسلام، فلما سأل لبيداً عن شعره انطلق فكتب سورة البقرة في صحيفة، ثم أتاه بها ، وقال: أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر، فكتب المغيـرة بذلك إلى عمر، فأمر أن يزيد عطاءه خمسمائة وكـان ألفـين. ويمـضي الـرواة فيزعمون إنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً ويختلفون فيه[126]، فمن قائلٍ هو قوله:

الحمـدُ لله إذ لـم يـأْتني أجَلـي حتى كساني من الإسلام سِـرْبالا

ومن قائلٍ ، بل هو قوله:

ما عاتب المرءَ الكـريمَ كنفـسه والمرءُ يُصْلحه الجليسُ الصالح

والحق أن له أشعاراً كثيرة تفيض بمعاني الإسلام ومثاليته الروحية ، بحيث يمكن أن نقسم شعره قسمين: قسماً جاهلياً وقسماً إسلامياً.

---

[125] أغاني (طبعة الساسي) 131/15.

[126] الشعر والشعراء 232/1 و (طبعة دار الكتب) 369/15 وانظر الاستيعاب ص 235 حيث يذكر بيتاً ثالثاً.

وهو في القسم الجاهلي لا يخرج إلى مديح أو هجاء ، بل يمضي مفاخراً فخراً عنيفاً بآبائه وفتوته معتداً اعتداداً لا حدَّ له بالأقربين من أسرته ، ومن ثم وقف مع ابن عمه عامر بن الطفيل ضد علقمة بن علاثة حين تفاخرا إلى هرم بن قُطْبة الفزاري[127] واقرأ فيه فستجده دائماً في هذا القسم مفاخراً بقومه وشجاعتهم وبلائهم في الحروب وما لهم من مناقب جليلة حتى إذا أفضى إلى نفسه تحدث عن شمائله وتجشمه لسرى الليل بأصحابه وفتوته وكيف يسقى الخمر لداته، وكيف يقامر ليطعم الجائع المحروم. وكثيراً ما يهجم في قصائده على هذا الفخر،وقد يقدم لذلك بمقدمات، على نحو ما صنع في معلقته، إذ بدأها بذكر الديار وذكر الأحبة الظاعنين، ثم مضى يصف اقتحامه للصحراء على ناقته، وسرعان ما شبهها بأتان وحشية، استرسل في الحديث عنها وعن حمار كان يصاحبها ويلاعبها. وخرج من ذلك إلى تشبيه لها ببقرة وحشية مذعورة لفقد طفلها، ويسترسل في وصف تعقب الرماة لها وإرسالهم جوارح الكلاب عليها، ويخلص إلى الفخر بكرمه وبسالته ومنادمته لرفاقه، ويفخر بقومه وكثرة سادتهم وما سنه لهم آباؤهم، يقول:

إنا إذا التقت المجامعُ لم يزل ... منا لِزازُ عظيمةٍ جَشامُها[128]

ومقسمٌ يُعْطي العشيرة حَقَّها ... ومُغَذْمِر لحقوقها هضَّامها[129]

فَضْلاً، وذو كرمٍ يُعين على النَّدى ... سَمْحٌ كسوب رغائبٍ غنامها

من مَعْشَرٍ سَنَّتْ لهم آباؤهم ... ولكل قومٍ سُنَّةٌ وإمامُها

فبنوا لنا بَيْتاً رفيعاً سَمْكُهُ ... فسما إليه كهْلُها وغلامها

فاقْنَعْ بما قسم المليك فإنما ... قسم الخلائق بيننا عَلامها.

---

[127] أغاني (ساسي) 52/15.

[128] اللزاز: الملازم للشئ، جشامها: من التجشم وهو ركوب الخطر.

[129] مغذمر: لايعطي. هضام هنا: يعطي قوماً ويحرم آخرين.

وشعره الجاهلي دائماً على هذه الوتيرة من الحديث عن مناقب آبائه ومفاخره ووصف راحلته وتشبيهها بالأتان المتوجسة والبقرة المسبوعة أو النعامة الخائفة، وقد يتحدث عن المطر. وهو في ذلك كله يتميز بالإغراب الشديد في لفظه، حتى ليمس قارئه شئ من الضجر لكثرة ما يورد من أوابد الألفاظ وحوشيها. واقرأ ما لم نرْوه من المعلقة قبل هذه الأبيات التي أنشدناها فإنك ستجده مفرغاً في ألفاظ متناهية في الإغراب ، ومن ثم وصف شعره أبو عمرو بن العلاء فقال: إنه رحى بزر[130]، يريد أنه خشن لا يحسن في السمع، وقال الأصمعي، شعر لبيد كأنه طيلسان طبراني أي أنه محكم الصنعة ولا رونق له.

وإذا انتقلنا من هذا القسم إلى شعره الإسلامي وجدنا قراءته للقرآن الكريم تهذب من لفظه وتُدْخل عليه غير قليل من الطلاوة، ومن ثم يقول فيه ابن سلام: "كان عذب المنطق رقيق حواشي الكلام، وكان مسلماً رجل صدق " ويتضح ذلك في مراثيه المشهورة لأخيه أرْبد ، فإن لألفاظها ماءً ورنقاً وفي معانيها من الإسلام أصداءً وظلالاً، وارجع إلى عينيته فستجد جمال السبك والصياغة، وستجد الروح الإسلامية ماثلة في تضاعيف أبياتها على شاكلة قوله[131] :

بَلِينا وما تَبْلَي النُجومُ الطَّوَالِعُ وتَبْقى الجبالُ بعدنا والمصانعُ[132]

فَلا جَزَعٌ إن فَرق الدهرُ بيننا وكل فتى يوماً بك الدهرُ فاجعُ

وما الناس ُإلا كالديار وأهلها بها يومَ حَلُّوها ، وغَدْواً بَلاقِعُ[133]

وما المرْءُ إلا كالشهاب وضَوْئه يَأُورُ رَماداً بعد إذ هو ساطع[134]

وما البر إلا مُضْمَراتٌ من التُّقَى وما المال إلا عارياتٌ ودائعُ

---

[130] الموشح المرزباني ص71.

[131] الديوان بتحقيق إحسان عباس ص 168.

[132] المصانع: الأبنية الضخمة.

[133] بلاقع: جمع بلقع وهو الأرض القفر. وغدوا: غداً.

[134] يحور: يصير.

وليس كل ما حدث من انقلاب في شعره الإسلامي أنه انتقل من الألفاظ الحوشية إلى الديباجة الطلية، فقد تغلغل الإسلام في ضميره ، فاتجه في أشعاره إلى ربه منيباً إليه ، والوجل يملأ نفسه من يوم الحساب الذي ينتظره، يقول في قصيدة له[135] :

إنما يحفظ التقى الأبرار وإلى الله يستقر القرارُ
وإلي الله ترجعون وعند الله وِرْدُ الأمور والإصدارُ
كلَّ شئ أحصى كِتاباً وعِلْماً ولديه تجلَّتِ الأسرارُ
إن يكن في الحياة خيرٌ فقد أُنْظِرتُ لو كان ينفع الإنظارُ[136]
عشتُ دهراً ولا يدوم على الأَيَّام إلا يَرَمْرَمٌ وتِعَارُ[137]

فإنك تجده يتحدث عن التقوى والأبرار والعمل الصالح وأن الناس معروضون على الله يوم القيامة وقد أُحْصِي كل شئ في كتاب وأن الموت حق لا شك فيه وأن على كل إنسان أن يفكر في مصيره. ويمضي في طائفة غير قليلة من أشعاره يعظ من حوله بما أهلك الله من الأمم الخالية مُخوفاً من الموت ويوم الحساب، وداعياً إلى التقوى والعمل الصالح، ومهوناً من الدنيا ومتاعها الزائل ونعيمها الفاني ، على نحو ما نرى في لاميته التي نؤمن بأنه نظمها في الإسلام ، وفيها يقول[138] :

أَلا كلُّ شئ ما خلا الله باطلُ وكلُّ نَعيمٍ لا محالة زائلُ
وكلُّ أُناسٍ سوف تدخل بينهم دُوَيْهِيَةٌ تصفر منها الأنامل[139]

وهو في البيت الأول يستمد من مثل قوله تعالى: **(كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)** ويستمد في البيت الثاني من مثل قوله عز وجل: **(كلُّ**

---

[135] ديوان لبيد ص 41 والحيوان 163/7.
[136] الإنظار: التأخير.
[137] يرمرم وتعار: جبلان في نجد .
[138] الديوان ص 256 والشعر والشعراء 237/1 والطبري 28/5.
[139] يريد بالدويهية الموت.

نفس ذائقةُ الموت) أما البيت الثالث فاستمده مباشرة من قوله تبارك وتعالى عن الإنسان وما ينتظره من البعث والحساب: **(أفلا يعلم إذا بُعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور)**. واسترسل في القصيدة يتحدث عن النعمان بن المنذر وملكه وأجناده وكيف بادوا جميعاً مما جعل القدماء يظنون أنه نظمها في رثائه[140] وفي الواقع كان يتحدث عن عظة الموت وكيف يأتي على الملوك والأمم، ومن ثم مضى يتحدث عن الغساسنة وأصحاب الرس وكيف أمسى كل ما كانوا فيه أحلاماً. وعلى هذا النمط نفسه لامية أخرى يستهلها بقوله[141] :

لله نافلةُ الأَجل الأَفضلِ ... وله العُلا وأَثيثُ كل مُؤثَّلِ[142]

لا يستطيع الناس محو كتابه ... أنَّى وليس قضاؤه بمبدل

وهو في هذا المطلع يستلهم الذكر الحكيم وما فيه من أوصاف الذات العلية ،وأن كل ما يجري في الكون بقضائه وأن كل ما يأتي من عمل في كتاب مبين، وأن كلاً سيجزي بما سجل عليه كتابه، يقول سبحانه: **(وكل شئ أحصيناه كِتاباً) (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) (وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون)**. ويمضي لبيد في القصيدة فيتحدث عن خلق السموات والأرض وما أصاب بعض العماليق ولقمان ونَسْره وأبرهة وأمراء المناذرة والغساسنة من رَيْب الزمان. ومن هذه الشاكلة نفسها موعظته[143] :

من يَبْسُط الله عليه إصْبَعا ... بالخيرِ والشر بأَيٍّ أُولعا[144]

يملأْ له منه ذَنوباً مُتْرَعَا ... وقد أباد إرَماً وتُبَّعا[145]

---

[140] انظر الديوان ص 254.

[141] الديوان ص 271.

[142] أثيث: موطأ عظيم. مؤثل: مؤصل، ويوصف به الملك والمجد.

[143] الديوان ص 337.

[144] الإصبع: الأثر الحسن.

[145] ذنوباً مترعاً: دلواً مملوءاً.

والحق أن تلاوته للقرآن التي اشتهر بها أثَّرت في نفسه آثاراً عميقة. وقد يكون الرواة تزيدوا في بعض هذه الأشعار ولكن كثرة ما يُنسَبُ إليه منها يدل على أن الإسلام تعمق روحه ، وأنه استشعر معانيه ومواعظه، فمضى يُحيلها أبياتاً وأشعاراً، بل قصائد دينية، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن من أجود هذه القصائد لاميته المقيدة التي يقول فيها[146] :

إن تَقْوَى ربِّنا خيرُ نَفَلْ وبإذن الله رَيْثي وعَجَلْ[147]

أحمد الله فلا نِدَّ لَهُ بيديه الخيرُ ما شاء فَعَلْ

من هداه سُبُلَ الخَير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضلّ

فاكذبِ النفس إذَا حدَّثتها إن صدق النفس يزري بالأمل

غير أن لا تكذبنها في التقى واخْزُها بالبرِّ ، الله الأَجَل[148]

ونراه يذكر في هذه القصيدة رحلة له لعلها رحلته إلى الكوفة كما يذكر فقده لأربد ويبكيه. وعلى هذا النحو يظل لبيد بشعره الإسلامي مستمسكاً بالعروة الوثقى زاجراً عن الدنيا وخُدعها داعياً إلى أن يكف الإنسان عن سيئاته ومرغبِّاً له في الباقيات الصالحات حتى يغتنم بقية أجله بخير عمله.

---

(146) الشعر والشعراء 238/1 والديوان ص 174 وما بعدها.

(147) النفل: العطية . الريث: البطء.

(148) اخزها: سسها واقهرها.

5

الحطيئة[149]

اسمه جَروْل ولُقب بالحطيئة لقصره أو لدمامته ، وقد ولد لأمة تسمى الضَّراء ، كانت لأوس بن مالك العَبسْي. ونشأ في حجره مغموزاً في نسبه ، وجعله ذلك قلقاً مضطرباً منذ أخذ يحس الحياة من حوله ، وزاد في اضطرابه وقلقه ضعفُ جسمه وقبح وجهه ، إذ كانت تقتحمه العيون ، ولم يكن فيه فضل شجاعة يستطيع أن يتلاقي به هوان شأنه في "عبس" على نحو ما صنع عنترة من قبله. ومن ثم نشأ يشعر بغير قليل من المرارة ، ولعل هذا هو السبب في غلبة الهجاء عليه.

ولها تيقظت في نفسه موهبة الشعر لزم زهير بن أبي سلْمى يعلمه إحكام صنْعه على نحو ما كان يعلم ابنه كعباً. ومر بنا أن الحطيئة كان يَروْي شعر كعب أيضاً ، وأنه طلب إليه أن ينوه به ، حتى يدور على الألسنة ذكره . ومعنى ذلك أن الحطيئة من مدرسة زهير التي كانت تُعنى بالتعبير وصقله وتصفيته من كل شائبة ، كما كانت تُعنى بالمعاني ودقتها.

ويضيء الإسلام في الجزيرة ، فلا يسارع إليه، ومن هنا اختلف الرواة هل قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فأعلن إسلامه على شاكلة كعب ، أو أنه تأخر في اعتناقه الإسلام ، حتى توفِّي الرسول الكريم . ونراه يسارع إلى الردة ، مُعيناً بشعره المرتدين ضد أبي بكر وخلافته ، حتى ليقول:

أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننا فيا لعبادِ الله ما لأبي بكر

أيُورثها بكراً ، إذا مات ، بعده فتلك ، وبيت الله ، قاصمة الظهر

على أن من الرواة من نسب هذين البيتين إلى غيره[150] . وقد عاد مع المرتدين إلى الإسلام.

---

[149] انظر في ترجمة الحطيئة ابن سلام ص 81 وما بعدها والشعر والشعراء 280/1 والأغاني (طبع دار الكتب) 157/2 والإصابة 63/2 والخزانة 408/1 وحديث الأربعاء لطه حسين (طبعة الحلبي) 153/1 وما بعدها. ونشر ديوانه في إستانبول ، ونشره جولد تسيهر والشنقيطي ، وكذلك نشره نعمان أمين طه بمطبعة الحلبي ، وسنعتمد على نشرته.

[150] انظر الطبري 477/2 حيث نسب البيتين إلى أخيه الخطيل وقارن بالديوان ص 329 والأغاني 157/2.

وجمهور شعره يدور في المديح والهجاء ، ويقول الأصمعي: "كان الحطيئة جشعاً سؤولاً ملحفاً دنئ النفس ، كثير الشر ، قليل الخير،بخيلاً، قبيح المنظر، رث الهيئة ، مغموز النسب ، فاسد الدين ، وما تشاء أن تقول في شاعر من عيب إلا وجدته ، وقلما تجد ذلك في شعره"[151] . وقد يكون الأصمعي بالغ في نعته بهذه الصفات ، وحقاً كان يمدح سادة القبائل بشعره منذ نشأ في الجاهلية من أمثال عيينة بن حِصْن الفزاري وزيد الخيْل ، وكان يتورط فيما بينهم من خصومات ومنافرات ، إذ نراه يقف في صف عيينة بن حصن حين نافر ابن عمه زبَّان بن سيار ، كما نراه يقف في صف علقمة بن علاثة حين نافر عامر بن الطفيل[152]. وكان غيره من الشعراء يصنعون صنيعة ، فقد كان الأعشى ولبيد يقفان في صف عامر. وقد تكون حادثته مع الزبرقان بن بدر هي التي شوهته ، ذلك أنه لقيه في عهد عمر بن الخطاب يؤمُّ المدينة، وكان على صدقات قومه ، فلما عرفه دلَّه على داره حيث زوجه وعشيرته، فنزل بأهله ، وفزع بنو أنف الناقة – إذ كانوا ينافسون عشيرة الزبرقان – حين علموا ذلك ، وعملوا على أن يفسدوا العلاقة بينه وبين زوج الزبرقان ، وكانت قد تراخت في استقباله. وأتيحت بذلك الفرصة لبني أنف الناقة ، فضموا الحطيئة إليهم وبالغوا في إكرامه ، وانطلق يُثْني عليهم ثناءً رائعاً معرضاً بالزبرقان بمثل قوله يخاطبه:

دَعِ المكارم لا تَرْحَلْ لبُغْيتها واقْعُد فإنك أنت الطاعم الُكاسي[153]

ورَفع الزبرقان أمره إلى عمر ، فحكَّم حسان بن ثابت فيه ، فلما حكم بأنه هجاه حبسه . وأخذ الحطيئة يستعطفه بأبياته المشهورة التي يقول فيها:

ماذا تقول لأفراخٍ بذى مَرَخٍ زُغْبِ الحواصل لا ماءٌ ولاشجُر[154]

---

[151] أغاني (دار الكتب) 123/2.

[152] ابن سلام ص93 وما بعدها

[153] يريد المطعوم المكسو.

[154] ذو مرخ: واد بالحجاز . الأفراخ: صغار الطير شبه بها أولاده . زغب الحواصل: لم ينبت على حواصلهم سوى الزغب القصير ، كناية عن صغرهم وأنهم لا يقوون على الطيران .

أَلقيتَ كاسِبَهم في قَعْـر مُظْلِمَـةٍ فاغفرْ عليك سـلامُ الله يـا عُمَـر

ولأن له قلب عمر، فعفا عنه بعد أن أخذ عليه العهد أن لا يعود إلى الهجاء ويقال إنه اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم[155]

ونحن إذا قرأنا أشعاره المختلفة التي عرض فيها للزبرقان وجدناه لا يُقْـذع فـي هجائه ، إنما يمسُّه على نحو ما رأينا في بيته السالف برفق ، عامـداً إلـى الـتهكم والسخرية . ولا نشك في أن الإسلام هو الذي خفَّف من حدة لسانه ، ونراه يـصرح بذلك إذ يقول[156] :

ولمـا أن مـدحتُ القـوم قلـتم هجوتَ ولا يحـلُّ لـك الهجـاءُ

ألـم أَكُ مـسلماً فيكـون بينـي وبيـنكم المـودَّةُ والإخـاء

ولم أَشْـتُم لكـم حـسباً ولكـن حَدَوْت بحيـث يُـسْتَمَعُ الحُـدَاءُ

فهو يذكر حرمة الإسلام ، ويتذمم بها ، ويقول إنه حين مدح بني أنـف الناقـة وحدا بهم فسمعه قوم الزبرقان جعلوا ذلك ذمًّا لهم وهجاء، لمدحه خصومهم. ونراه يولِّي وجهه نحو علقمة بن عُلاثة ، لينشده إحدى مدائحه فيه، ولكن المـوت يـسبقه إليه فيُجْزل له ابنه في العطاء. ويتجه نحو العراق في عهد عثمان، فيمدح الوليد بن عقبة واليه على الكوفة ، ويذود عنه حين يطعن عليه أهلها. وقد حُملت عليه أبيـات في ذمه. ويمدح من بعده سعيد بن العاص الذي خلفه في تلك الولاية، كمـا يمدحـه في ولايته لمعاوية على المدينة (49-55هـ) . ونرى أهلها يجْمعون له من أموالهم خشية معرة لسانه. والمظنون أنه توفيٍّ في ولاية سعيد آنفة الذكر.

وقد كان على شاكلة زهير يُعْنى بشعره وتجويده عناية شديدة ، وقد أُثِر عنه أنه كان يقول: "خير الشعر الحوليُّ المحكّك" فهو ممن كـان يتـأنّون فـي شـعرهم ، ويعيدون فيه النظر، حتى تخرج جميع الأبيات مستوية في الجودة والروعة. ولعـل

---

(155) انظر في القصة الأغاني 179/2 وما بعدها.

(156) الديوان ص 98.

ذلك ما جعله"يُكثر من المقطَّعات ، ونراه في مطوَّلاته يـشَّبب ويـصف الـصحراء وحيوانها الوحشي والأليف. ومدائحه لا تقل عن مدائح زهير جودة على شاكلة قوله في بني أنف الناقة:

يسوسون أحلاماً بعيـداً أناتُهـا وإن غضبوا جاءَ الحفيظةُ والجـدُّ

أولئك قومٌ إن بَنَوْا أحسنوا البِنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عَقدوا شدُّوا

وكانوا يعيَّرون باسمهم ، فما هو إلا أن قال معرِّضاً بالزبرقان وعشيرته:

قومُ هم الأَنفُ والأَذنابُ غيـرهُم ومن يُسوِّي بأَنف الناقة الـذنبا

حتى أصبح اللقب فخراً لهم. وتُرْوى له أهاج في زوج أمه وفي أمه وفي ضـيفانه. وكلها مزاح . حتى لنراه يمزح مع نفسه ، فيقول:

أرى لَي وجها شـوَّه الله خَلْقَـهُ فقُبِّحَ من وجْهٍ وقُبّـح حامِلـهُ

أما بخله الذي أشار إليه الأصمعي والرواة ، فقد غسله بكثرة مديحـه للكـرم، وبقصيدته "وطاوي ثلاث"[157] وفيها يصور أعرابياً فقيراً نزل به ضيف، وعياله من حوله يتضورَّون جوعاً، فهمَّ أن يذبح له أحدهم ، لولا أن عَنَّتْ له أتـان وحـشية ، فصادها وأطعمها ضيفه . والقصيدة رائعة في وصف غريزة الكرم العربية.

والحق أن الرواة بالغوا في اتهامه بالبخل ودناءة النفس، كما بالغوا في اتهامـه بفساد الدين ، قد يكون رقيقه ولكنه ليس فاسده ، فقد كان يستـشعره فـي الهجـاء بشهادة لسانه كما قدمنا. ونراه في مديحه يكثر فن ذكر جزاء الله لممدوحه على مـا يقدم له من بـرِّه على شاكلة قوله في بعض ممدوحيه:

فَلْيَجْزِهِ الله خيراً من أَخـى ثقـةٍ ولْيَهْدِهِ بِهُدَى الخيـرات هاديهـا

وقد يستهل المدح بالثناء على الله في مثل قوله:

الحمد لله إني فـي جِـوار فَتَـىً حامي الحقيقـة نَفَّـاعٍ وضَـرَّار

---

[157] الديوان ص 395 وما بعدها.

وقال أبو عمرو بن العلاء: لم تقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطيئة[158] :

من يَفْعَل الخير لا يعْدَمْ جوازيَــه لا يذهب العُرْفُ بين الله والناس

ولعل في ذلك ما يدل على أنه حَسُن إسلامه ، وأبلغ في الدلالة على ذلك قولــه في وصف التقى والعمل الصالح[159] :

ولستُ أرى السعادةَ جمــع مــال ولكــن التقــىَّ هــو الــسعيدُ

وتقوى الله خَيْــرُ الــزاد ذُخْــرّا وعنــــد الله للأتقــــى مزيــــد

فالسعادة في رأيه ليست في الدنيا وأموالها ومتاعها الزائل ، وإنمــا هــي فــي الآخرة ونعميها ومتاعها الخالد الذي لا ينال إلا بالتقوى ، فهي الــسعادة الحقيقــة. ومعنى ذلك أن الإسلام لم يظل بعيداً عن روح الحطيئة، بل أخذ يُرْسل فيهــا مثــل هذه الإشعاعات النيرة.

6

[158] أغاني 173/2.

[159] أغاني 175/2 والديوان ص 393.

النابغة[160] الجعْديّ

هو عبد الله [161] بن قيس من بني جَعْدة العامريين ، ولد بالفَلْج جنوبي نجد، ولما شبّ اضطرب فيما يضطرب فيه قومه من حروب ، ويقال إنه ظل ثلاثين عاماً في الجاهلية لا ينطق الشعر ثم تفجَّر على لسانه ، فسُمي النابغة لنبوغه فيه بأخرة ، ويقال إن نبوغه فيه إنما كان في الإسلام.

والنابغة الجعدي في جاهليته مثل لبيد يتغنى بمفاخر قومه وانتصاراتهم في حروبهم ويهجو خصومهم وخاصة بني أسدْ الذين قتلوا أخا له في بعض حروبهم مع قبيلته ، وقد بكاه كثيراً ، ومن بكائه فيه قصيدته التي يؤبنه فيها بقوله[162] :

فَتىً كَمُلَتْ أَخْلاقُهُ غير أنه جوادٌ فما يُبقى من المال باقيا

فَتى تَمَّ فيه ما يَسُرُّ صديقه على أنَّ فيه ما يسوءُ الأعاديا

ويقال إنه كان يَفِد بشعره على اللخميين في الحيرة. ولما أخذت وفود العرب تفد على الرسول r معلنةً إسلامها وفد عليه مع قومه سنة تسع للهجرة وأنشده قصيدة يقول فيها:

بَلَغْنَا السماءَ مَجْدُنا وجدودنُا وإنا لنَبْغي فوق ذلك مظهرا

فقال له الرسول الكريم : فأين المظهر يا أبا ليلى؟ فأجابه: الجنة: وأعجب الرسول بشعره ومنطقه ، فقال له: لا يفْضضِ الله فاك[163].

ويظن أنه لم يرجع مع قومه إلى منازلهم ، بل أقام في المدينة مهاجراً ، حتى إذا كانت الفتوح خرج مع العرب ميمماً نحو الشرق والفُرْس مجاهداً في سبيل الله

---

[160] انظر في ترجمة النابغة: الشعر والشعراء 247/1 وابن سلام ص 103 وما بعدها والأغاني (طبعة دار الكتب) 1/5 وما بعدها وأسد الغابة 2/5 والاستيعاب ص 320 والإصابة 218/6 وأمالي المرتضى 263/1 والمعمرين ص 64 والخزانة 512/1 والموشح ص 64. وقد جمعت ماريا نالينو أشعاره ونشرتها في روما سنة 1953.

[161] اختلف المؤرخون في اسمه هل هو عبد الله ابن قيس أو قيس بن عبد الله أو حبان بن قيس.

[162] الشعر والشعراء 252/1 والديوان ص 123.

[163] أغاني 8/5.

ونَشْر الدعوة المحمدية. وقد أخذ يضيف إلى رائعته التي أنشدها الرسول أبياتاً كثيرة، تصور حياته في الإسلام وابتغاه رضوان الله بجهاده وتقواه جميعاً يقول[164] :

أتيتُ رسول الله إذ جاءَ بالهُدَى ... ويتلو كتاباً كالمجرَّة نيِّرَا[165]

وجاهدتُ حتى ما أَحِسُّ ومَنْ معي ... سُهَيْلاً إذا مالاح ثُمَّتَ غَوَّرَا[166]

أُقيم على التقوى وأَرضى بِفِعْلِها ... وكنتُ من النار المَخُوفةِ أوْجَرَا[167]

وعاد إلى المدينة وتشوَّق إلى منازل قومه في البادية ، فاستأذن عثمان في الإلمام بهم فأذن له ، حتى إذا نشبت الحروب بين علي ومعاوية وجدناه في صفوف علي بصِفِّين ، يَرْجُز بخصومه وينظم الأشعار في مديحه وهجاء معاوية من مثل قوله[168] :

قد علم المِصْرانِ والعِراقُ ... أن عَلِيًّا فَحْلُها العُتاقُ[169]

إن الأُلى جاروكَ لا أَفاقوا ... لهم سِياقٌ ولكم سِياق

قد علمتْ ذلكم الرِّفاق ... سُقتم إلى نَهْج الهدى وساقوا

إلى التي ليس لها عِراقُ ... في مِلَّةٍ عادَتُها النِّفاقُ[170]

ولعل هذا هو الذي جعله يصطدم بكعب بن جُعيْل شاعر معاوية.ويروى أنه لما قتل عليّ وتحولت الخلافة إلى معاوية كتب إلى مروان عامله على المدينة أن يأخذ أهله وأمواله ، فاستعطفه بأبيات ألانت قلبه فعفا عنه.

ونراه يقف دائماً مع قومه ، حتى لَيُضْطر أبو موسى الأشعري والي البصرة لعمر أن يضربه أسواطاً ، وكأنما كانت فيه بقية من عصبيته الجاهلية. ولا نشك في

---

[164] أغاني 9/5 والديوان ص 33 وما بعدها.

[165] المجرة: مجموعة من النجوم الصغيرة ينتشر ضوءها فيرى كأنه بقعة بيضاء.

[166] غور النجم: غاب.

[167] أوجر: خائف.

[168] أغاني 31/5 والديوان ص 133.

[169] المصران: الكوفة والبصرة . العتاق: الكريم.

[170] التي ليس لها عراق: التي لا تعرف لها غاية.

أن هذه البقية فيه هي التي دفعته إلى الاصطدام بأوس ابن مغراء، ويقول ابن سلام إنه غلب عليه ولم يكن إليه في الشعر ولا قريباً. ونزل مع قومه بأصبهان، وهناك نراه يتهاجى مع سوّار بن أوفى القشيري، وتتصدى له زوجه ليلى الأخيلية ، ويغلبان عليه جميعاً. وهما أيضاً لم يكونا إليه في الشعر ، وربما كان لتعمق الإسلام في نفسه أثر في تلك الهزائم ، إذ كان يتحرج من المضي في الهجاء المقذع ، ويقول ابن سلام إن الأخطل هجاه بأخرة ، ولما دعا ابن الزبير لنفسه في أواخر خلافة يزيد ابن معاوية قدم عليه في مكة ومدحه بقصيدة رائعة يقول فيها[171] :

حَكيتَ لنا الصِّدِّيقَ لما وَلِيتَنا وعثمانَ والفاروق فارتاح معدمُ

وسويت بين الناس في العدل فاسْتووا فعادَ صباحاً حالكُ الليل مُظْلمُ

وأثابه ابن الزبير ثواباً جزيلاً. وعاد إلى أصبهان ، غير أنه لم يلبث أن توفي بها عن سن عالية سنة خمس وستين. وهو بلا شك من المعمرين ، غير أن الرواة بالغوا في ذلك حتى قالوا إنه أقدم من النابغة الذبياني وأنه عُمِّرَ مائة وثمانين سنة بل تزيد، مستشهدين بما أضيف إليه من مثل قوله[172]:

تذكرتُ شيئاً قد مضى لسبيله ومن عادة المحزون أن يتذكَّرا

نَداماى عند المنذر بن محرِّقٍ أرى اليوم منهم ظاهرَ الأَرض مُقْفرا

والمنذر بن محرق هو المنذر بن ماء السماء الذي قُتل في بعض حروبه مع الغساسنة سنة 556 للميلاد، ولاشك في أن هذا الشعر مصنوع عليه.

ومن المحقق أن النابغة كان أحد الشعراء الذين استضاءوا بالإسلام وتعاليمه الروحية ، وقد خرج يجاهد في سبيل الله ، وهو يتلو القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، فكان طبيعياً أن يستلهمه في شعره. وهو من هذه الناحية من خير الأمثلة

---

[171] الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص 704 والديوان ص 137.

[172] أغاني 6/5.

على أثر الإسلام في شعر المخضرمين ومدى هذا الأثر، إذ عبرَّ في غيـر قـصيدة عن خشية الله وتقواه من مثل قوله[173]:

منـعَ الغَـدْرَ فلـم أَهْمُـمْ بـهِ وأخـو الغـدر إذا هَـمَّ فَعَـلْ

خـشيةُ الله وأَنِّـي رجـلٌ إنمـا ذِكْـرِي كنـارٍ بقَبَـل[174]

وهو دائم الحديث عن نعمة الله عليه بالإسلام ، وتحوله من ظلمات الوثنية إلى أضواء الدين الحنيف ، يقول[175] :

عُمِّرْتُ حَتَّى جاءَ أحمـد بالهُـدَى وقـوارعٍ تُتْلَـى مـن القُـرآن

ولبستُ مِلْ الإسلام ثَوْباً وَاسِـعاً مـن سَـيْبِ لا حَـرِمٍ ولا مَنَّـانِ[176]

وليس كل ما نجده عنده من أثر الإسلام أبياتاً مفردة تتخلل قصائده، فـإن لـه موعظة بليغة رواها غير راوٍ ، وهي تطَّرد على هذا النمط[177]:

الحمـدُ الله لا شَـرِيكَ لَـهُ مـن لـم يَقُلْهـا فنفـسَهُ ظَلَمـا

المُولجِ الليلَ في النهار وفي اللَّيـ ـل نهـاراً يُفَـرِّجُ الظُّلَمـا

الخافضِ الرافـعِ الـسماءَ علـى الأرْضِ ولم يَبْنِ تحتهـا دِعَمـا[178]

الخالقِ البارئ المصور في الأرْحامِ مـاء حتـى يـصيرَ دَمـا

مـن نُطْفَـةٍ قَـدَّها مقـدِّرُها يَخْلُـقُ مِنهـا الأَبْـشارَ والنَّـسما

ثُـمَّ عِظامـاً أَقامهـا عَـصَبٌ ثُمَّـتَ لَحْمـاً كَـسَاهُ فالْتَأَمـا

ثُمَّ كَسَا الـرَّأسَ والعَواتِـقَ أَبْـ ـشاراً وجِلْـداً تخالـه أدَمـا[179]

---

[173]الديوان ص 81 وانظر الحيوان 504/3 .

[174]القبل: النشز من الأرض يستقبلك ورأس كل أكمة أو جبل.

[175]الديوان ص 137 وأمالى المرتضى 266/1.

[176]مل الإسلام: من الإسلام. سيب: عطاء . حرم: مناع.

[177]الشعر والشعراء 253/1 وانظر الديوان ص 102.

[178]دعم: دعائم وعمد.

[179]العواتق: جمع عاتق وهو المنكب.

والصَّوْت واللَّوْنَ والمَعايِشَ والْـــ أَخـــلاقَ شَـــتى وفَـــرَّق الكَلِمَـــا

ثُمَّـــتَ لا بُـــدَّ أن ســـيجمعكم واللهِ ، جَهْـــراً ، شـــهادةً قَـــسَما

فـــائتمَرُوا الآنَ مـــا بـــدا لكـــمُ واعتـــصموا إن وجـــدتمُ عِـــصَما

في هـــذه الأرض والـــسماء ، ولا عِـــصْمَةَ منـــه إلا لمـــن رَحِمَـــا

يا أيها النـــاسُ هـــل تـــرونَ إلـــى فارسَ بَادَتْ ، وخَـــدُّها رَغِمـــا[180]

أمسوا عَبِيداً يَرْعَـــون شـــاءَ كُـــمُ كأَنمـــا كـــان مُلْكُهُـــمْ حُلُمـــا

أو سَـــبَأ الحاضـــرين مـــأرب إذ يبنـــون مـــن دون ســـيله العرمـــا

فمزقوا في البلاد واعترفـــوا الـــ ـــهُونَ وذاقوا البأْساءَ والعَـــدَما[181]

وبُدِّلوا الـــسِّدْرَ والأَراكَ بـــه الـــ ـــخَمْط وأَضحى البُنْيانُ مُنْهَـــدِما[182]

والنابغة في مطلع هذه العظة يثْني على الله بما هـــو أهلـــه ، مقـــرراً إيمانـــه بوحدانيته وأنه لا شريك له ، ونحس أنه يستعير لفظه من الـــذكر الحكـــيم ، فهـــو يستهل قوله بكلمة "الحمد لله" ولا يلبث أن يستلهم مثل قوله تعالى: "إن الله لا يظلـــم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون" ويتحدث في البيت الثاني عن نظام الكـــون المنبئ عن قدرة الله وجليل صنعه له وتقديره على نظام بديع ، مستعيراً من القـــرآن نفس لفظه في قوله جل وعز: **(قل اللهم مالك الملك .... بيدك الخير إنك على كـــل شئ قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل)**. وفي البيت الثالث مـــضى ينظم قوله تعالى: **(الله الذي رفع السموات بغير عَمَد ترونها)**. وخرج فـــي البيـــت الرابع من خلقه للكون إلى خلقه للإنسان واستمر ينظم مثل قوله جل وعـــز **(ولقـــد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نُطفة في قرارٍ مكين ثم خلقنا العلقـــة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبـــارك**

---

[180] رغم الخد: كناية عن الذل.

[181] اعترفوا الهون: عرفوه.

[182] السدر والأراك: شجر لا ينتفع بثمره . الخمط: ثمر الأراك أو هو نبت مر.

الله أحسنُ الخالقين). وهو يمضي فيتحدث عن البعث والنشأة الثانية محذراً مخوفاً. وما يلبث أن يتحدث عن القرون والأمم البائدة مكملاً بذلك العظة والعبْرة ، بالضبط على نحو ما نقرأ في القرآن من حديث عما أصاب الأمم الباغية من هلاك ، وقد اقتبس منه ما جاء فيه عن دولة سبأ اقتباساً تتطابق فيه الألفاظ واقرأْ قوله تعالى:**(لقد كان لسبأٍ في مسْكَنهم آيةٌ جنَّتان عن يمين وشمال.. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيْل العَرِم وبَدَّلناهم بجنتيهم جنتَّين ذَواتى أُكلٍ خَمْط وأثْلٍ وشئ من سِدْر قليل ذلك جزيْنَاهم بما كفروا.. وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزَّقْناهم كل ّممزَّق)** ، فإنك تجده قد نظم الآيات الكريمة في أبياته الثلاثة الأخيرة.

وأكبر الظن أنه قد اتضح اتضاحاً لا لبس فيه أن أهل نجد والبوادي كان مثلهم مثل أهل الحواضر حين دخلوا في الإسلام فقد تمثلوه وتألقت أضواؤه في صدورهم وفي أشعارهم ، حتى لتتحول جوانب منها إلى مواعظ خالصة ينفرون فيها الناس من الدنيا ونعيمها الفاني ، حاثين لهم على التزود بالتقوى والعمل الصالح.

الفصل الرابع[1]

النثر وتطوره في العصر الإسلامي

(1) الأدب الإسلامي: شوقي ضيف

النثر وتطوره

1

تطور الخطابة

كان ظهور الإسلام إيذاناً بتطور واسع في الخطابة، إذ اتخذها الرسول r أداة للدعوة إلى الدين الحنيف طوال مقامه بمكة قبل الهجرة حيث ظل ثلاثة عشر عاماً يعرض على قومه من قريش وكل من يلقاه في الأسواق آيات القرآن الكريم ، وهو في أثناء ذلك يخطب في الناس داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، محاولاً بكل طاقته أن يوقظ ضميرهم بما يصور لهم من قوة الكائن الأعلى مدبر الكون ومنظمه ، الذي لم يخلقهم عبثاً، وإنما خلقهم ليعبدوه حق عبادته، وليستشعروا كل ما يمكن من الكمالات الروحية والاجتماعية والإنسانية، حتى تم لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

وهاجر الرسول r إلى المدينة، فاتصلت خطابته، واتسعت جنابتها، بما أخذ يشرع للمسلمين ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم التي ينبغي أن تقوم على الإخاء والمساواة والتعاون في سبيل الحق والخير، وهو في تضاعيف ذلك يأخذهم بآداب رفيعة من السلوك السامي، مبيناً لهم معاني الإسلام الروحية التي تقوم على معرفة الله الواحد الأحد والصلة به ، كما تقوم على معرفة العمل الصالح وأن وراء هذه الحياة حياة أخرى يحاسب فيها الإنسان على ما قدمت يداه ولو كان مثقال ذرة. وما يزال يعرض أوامر الدين ونواهيه، واضعاً الحلول لكثير من المشاكل الدنيوية ، كمشكلة الرقيق ومشكلة توزيع الثروة ومشكلة العلاقات بين الرجل والمرأة ، وغير ذلك من مشاكل حُلَّت بما يحقق سعادة الجنس البشري وهناءته.

وعلى هذا النحو كانت خطابة الرسول r متممة للذكر الحكيم ومن ثم كانت فرضاً مكتوباً في صلاة الجمع والأعياد ثم مواسم الحج ، وتحتفظ كتب الحديث بما اتخذه فيها من سنن وتقاليد[183] ثبتتْ إلى اليوم. وبينما كانت تسبق الخطابة الصلاة في الجمع كانت الصلاة تسبقها في الأعياد، وهي تتوزع على خطبتين يقف فيهما الخطيب على منبر أو نشز من الأرض، وقد اعتمد على قوس أو سيف أو عصا، ويُقْبل على الناس مسلماً. وتبدأ الخطبة الأولى في الجمع بحمد الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله، ويُؤْثَر عن الرسول أنه كان يقول في فاتحة هذه الخطبة: "**الحمد لله نحمده ، ونستعينه، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضل له ، ومن يضُلل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له**"[184] . وعادة يتلو الخطيب في الخطبة الأولى لصلاة الجمعة بعض آي القرآن الكريم ، حتى يستلهمها في موعظته. وإذا انتهى منها جلس ، ثم يقوم للخطبة الثانية، وفيها يكثر من الدعاء، ويقال إنه كان آخر دعاء أبي بكر في الخطبة الثانية: "**اللهم اجعل خير زماني آخره ، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم لقائك**" وكان آخر دعاء عمر: "**اللهم لا تدعني في غَمرة، ولا تأخذني في غِرَّة، ولا تجعلني مع الغافلين**"[185] . ولا تُفْتتحُ خطبتا العيدين بالحمد لله إنما تفتتح بالتكبير ، فيكبر الخطيب في أولاهما سبع تكبيرات وفي ثانيهما خمس تكبيرات.

وطبيعي أن تقضي هذه الخطابة على كل لون قديم من الخطابة الجاهلية لا يتفق وروح الإسلام ، ولا نقصد سَجْع الكُهان الذي كان يرتبط بدينهم الوثني فحسب ، بل نقصد أيضاً خطابة المنافرات ، فقد نهى الإسلام عن التكاثر بالآباء والأنساب

---

[183] انظر في صلاة الجمع والعيدين كتب الحديث مثل صحيح البخاري ومسلم.

[184] عيون الأخبار 231/2.

[185] انظر العقد الفريد 222/3.

والأحساب ، وإن ظلت لذلك بقية في حياة الرسول r حين كانت تَفد عليه وفود العرب، على نحو ما نعرف عن وفد تميم وقيام خطيبهم عُطارد بن حاجب بن زرارة بين يديه مفاخراً بقومه، وقد ندب له الرسول ثابت بن قيس بن الشماس ، فرد عليه مستوحياً هدي الإسلام، ولم يلبثوا أن استجابوا لله ولرسوله[186].

ونمضي في **عصر الخلفاء الراشدين**، فتكثر بجانب خطب الجمع والأعياد المواقف التي تجلت فيها براعة هؤلاء الخلفاء ، كموقف أبي بكر حين انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وموقفه يوم السقيفة ، فقد درأ في الموقفين جميعاً الشعَث الذي كاد يودي بالجماعة ، وكذلك موقفه حين ارتد كثير من العرب وامتنعوا من أداء الزكاة. وكم من خطيب وقف حينذاك يحض قومه على الثورة أو يحثهم على الطاعة . ولا بد أن نلاحظ أن انتشار الإسلام في الجزيرة أُعِدَّ منذ أول الأمر إلى أن تتكاثر خطب الجمع والأعياد، إذ كانت كما قدمنا فرضاً مكتوباً على المسلمين في كل مكان يحلونه من الجزيرة.

ثم تكون الفتوح ، ويخطب أبو بكر في الجيوش الغازية يحض على الجهاد ونَشْر الدين الحنيف في أطباق الأرض. وترتفع0أصوات القواد بالخطابة في كل قطر حاثين الجنود على الصبر في القتال حتى الاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب. ويخيل إلى الإنسان كأنما ملك كل منهم من قلوب جنوده ببيانَه وبلاغته مالا تملكه الدنيا بحذافيرها. ولا نغلو إذا قلنا إن بلداً من بلدان الفرس في العراق وإيران وبلدان الروم في الشام ومصر لم يُفْتح إلا بعد أن فتحته خطبة أحد هؤلاء القواد، كخطبة المغيرة بن شُعبة في القادسية[187] وخالد بن الوليد في اليرموك [188]، وعتبة بن غزْوان في فتح الأبلَّة ، ونحن نكتفي بقطعة من خطبة عتبة إذ يقول[189]:

---

[186] تاريخ الطبري 378/2.

[187] الطبري 37/3.

[188] الطبري 592/2.

[189] البيان والتبيين 57/2.

"أما بعد فإن الدنيا قد تولت حذَّاءَ[190] مدبرة، وقد آذنت أهلها بصرْمٍ، وإنما بقى منها صُبابة كصبابة الإناء يصطبها[191]صاحبها ، ألا وإنكم منقولون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا منها بخير ما يحضركم".

ويتولى عمر ، فيكثر مل الخطابة لا في الجمع والأعياد ومواسم الحج فحسب بل مع كل حادث، ومع كل خبر يأتيه بفتح. وقد سار على هدي أبي بكر في استشارة أصحابه في كل مهم ، وكل ما يجد من تشريع ، وخاصة في معاملة الأمم المفتوحة. وكان هذا بدوره عاملاً من عوامل نمو الخطابة في العصر، إذ كان الحكم ديمقراطياً، وكان من حق كل شخص أن يخطب مصوراً وجهة نظره، وفسح عمر لخطابة الوفود في مجالسه ، تستميح لأقوامها وتذكر حاجتها، واشتهر الأحنف بن قيس سيد تميم وأحد قواد الفتوح بغير خطبة ألقاها بين يديه[192].

ولم تقف الخطابة الدينية في هذا العصر عند الجزيرة ، فقد أخذت تحل مع المسلمين في كل بلد فتحوها، وكان هذا بدون شك عاملاً من عوامل نموها، إذ تكاثر من يرددونها ومن يحسنون حوكها وصياغتها مستلهمين القرآن الكريم وخطابة الرسول فيما يعظون الناس به من مواعظ حسنة، على نحو ما أثر عن عبد الله بن مسعود في إحدى مواعظه، وفيها يقول لأهل الكوفة[193]

"أصدق الحديث كتابُ الله ، وأوثق العرَى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم، وأحسن السنن سنة محمد r ، وشر الأمور محدثاتها، وخير الأمور عزائمها ، ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ... خير الغنى غنى النفس. الخمر جُمّاع الآثام... أعظم الخطايا اللسان الكذوب. سباب المؤمن فسق ، قتاله كفر،

---

[190]حذاء: سريعة الإدبار.

[191]يصطبها: يشربها. والصبابة. بقيمة الماء.

[192]انظر البيان والتبين 144/2.

[193]البيان والتبيين 56/2.

وأكل لحمه معصية... مكتوب في ديوان المحسنين من عفا عفي عنه. السعيد من وعظ بغيره ... أحسن الهدي هَدْي الأنبياء".

وفي هذين الاتجاهين الكبيرين من المواعظ والحض على الجهاد مضت الخطابة طوال عصر عمر والسنوات الأولى من خلافة عثمان، حتى إذا أشعل الثوار عليه في الكوفة ومصر نار الفتنة أخذت الخطابة فيها مكانها .

وأكبر الظن أنه قد اتضح من كل ما قدمنا كيف نمت الخطابة في هذا العصر نموّاً واسعاً ، بتأثير الإسلام من جهة وتكاثر الأحداث وتتابعها من جهة ثانية. وليس هذا كل ما يلاحظ فيها ، فقد دارت حول معاني القرآن الكريم وخطابة الرسول وأحاديثه ، وهي معان جديدة لم يكن للعربية بها عهد ، معاني هذا الدين الحنيف الذي بعث لغتنا ونشرها بعثاً جديداً ، والذي مرنها وذلَّلها لكي تؤدي الرسالة النبوية وكل ما تحمل من مواعظ وتعاليم. وقد أخذ كل خطيب يحمل قبساً في هذه التعاليم والمواعظ يستضئ به في كل ما يخاطب به الناس ابتغاء التأثير عليهم وبلوغ ما يريد من أداء الخطبة الدينية الخالصة في أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج وأختها التي تدعو إلى الجهاد والحض على قتال الأعداء. ولعله من أجل ذلك أصبح التحميد سنة في كل خطبة ، حتى الخطبة السياسية ، وكانوا يسمون كل خطبة تخلو منه بتراء، كما كانوا يسمون كل خطبة تخلو من اقتباس آي القرآن الكريم والصلاة على الرسول شوْهاء[194] .

وهناك أخبار كثيرة تدل على أن الخطباء كانوا يزوِّرون كلامهم ويعدونه على أنفسهم إعداداً طويلاً ، ثم يلقونه على الناس ، حتى لقد روى ذلك عن عمر بن الخطاب[195] . وكان الخطيب يستشهد أحياناً ببعض الأمثال ، أو ببعض أبيات من

---

[194] البيان والتبيين 6/2.

[195] الطبري 456/2 وقارن بكلمة لعثمان ابن عفان في البيان التبيين 345/1 وعيون الأخبار 235/2.

الشعر تؤكد المعنى الذي يريد أن يصبه في نفوس سامعيه صبّاً ، على نحو ما نجد في خطبة لأبي بكر في الأنصار[196].

فإننا كنا قد لاحظنا في الجزء الأول من هذا التأريخ للأدب العربي غلبة السجع على خطباء الجاهلية فإننا نلاحظ في هذا العصر أنه كاد ينحسر تماماً عن الخطابة ، إلا بقايا ظلت في خطابة الوفود حين كانت تقدم على الخلفاء ، يقول الجاحظ : "**كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة**"[197] ، وبقية أخرى استظهرها بعض المتنبئة في حروب الردة مثل مسيلمة الكذاب متنبئ اليمامة ، ويقول الجاحظ إنه " وعدا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه"[198] . ومما روي له – إن صح – قوله[199]:

"**سمع الله لمن سمع ، وأطمعه بالخير إذا طمع ، ولازال أمره في كل ما سرّ نفسه يجتمع ، رآكم ربكم فحياكم، ومن وحشة خلاكم ، ويوم دينه أنجاكم، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار، لا أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ويصومون النهار، لربكم الكبّار ، رب الغيوم والأمطار**".

ونستطيع أن نقول إن السجع في خطابة هذا العصر كان شيئاً عارضاً ، إذ كان الرسول r لا يسجع في خطابته ، وكان ينفر منه حين يلهج به أحد محدثيه[200] ، كراهية للتشبيه بالكهان في سجعهم ، وسار على هديه الخلفاء الراشدون وغيرهم من جلة الصحابة يدل على ذلك ما يُرْوى من أن عمر بن الخطاب سأل صحاراً العبدي حين قدم عليه من غزو مكران الفارسية عن شأنها وشأن العرب

---

[196] زهر الآداب 32/1.

[197] البيان والتبيين 290/1.

[198] الحيوان 89/4.

[199] الطبري 498/2.

[200] صحيح مسلم (طبع الآستانة) 111/5 وموطأ مالك (طبع حجر بالقاهرة) 192/2.

هناك ، فأجابه: "**أرض سهلها جبل ، وماؤها وشل**[201] **وثمرها دقل**[202] **، وعدوها بطل ، وخيرها قليل وشرها طويل ، والكثير بها قليل إن كثر الجند بها جاعوا، وإن قلوا بها ضاعوا**". وقد أنكر عمر عليه هذا السجع فقال له: أسجاع أنت أم مخبر[203]. وكان الخلفاء بعد عمر ينكرون السجع على محدثيهم. وأمامنا خطب القوم ، وهي تخلو خلو تاماً من السجع إلا ما جاء عفواً في الحين البعيد بعد الحين. ولكنهم إذا كانوا قد أهملوا السجع فإنهم لم يهملوا جزالة اللفظ ورصانته ، بل لقد كان همّ كل خطيب أن يحسن قوله وأن يصوره صياغة رائعة.

وأخرى تلاحظ على الخطابة في هذا العصر بالقياس إلى الخطابة الجاهلية ، فإن الخطابة الأخيرة لم تكن ذات موضوع محدد ، ومن ثم كانت تأخذ شكل أقوال متناثرة لا رابط بينهما ، أما في هذا العصر فقد أصبح للخطابة موضوع واضح يجول فيه الخطيب ويصول ، إذ يحدث الناس واعظاً ، أو يعرض عليهم حدثاً محدداً من أحداث الإسلام ، بحيث نستطيع أن نقول إن الخطبة أصبحت ذات موضوع ، تلم بأطرافه وتفاصيله. وبذلك كله نهضت الخطابة ونهض معها النثر نهضة واسعة ، فقد أخذ الخطباء يوسعون طاقته بما يحملونه من معاني الإسلام وما يبسطون في هذه المعاني ويولدون ويفرعون. ونحن نقف قليلاً عند خطابة الرسول وخطابة خلفائه الراشدين لتتضح صور التطور التي وسعت جنبات النثر وزادت في معانيه ومادته بأداة البيان الكاملة وأسباب البلاغة الوافرة.

---

[201] وشل: قليل.

[202] دقل: ردئ.

[203] انظر في هذا الخبر الطبري 257/3.

2

خطابة الرسول r

على هدي القرآن الكريم كان محمد r يخطب في العرب ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية ، وقد أوتي من اللَسن والفصاحة ما ملك به أزمّة القلوب ، وكأنما كانت المعاني والأساليب موقوفة بشخوصها بين يديه ، ليختار منها ما تهش له الأسماع وتصغي له الأفئدة. وقد ظل طوال مكثه بمكة يتلو على قريش ومن يلقاه في الأسواق كتاب الله حيناً ، وحيناً آخر كان يخطب في نفس معاني القرآن المكية متحدثاً عن رسالته ، وداعياً إلى وحدانية الله مبيناً أنه يهيمن على الناس في أعمالهم وأنه سيبعثهم يوم القيامة، ليجزي بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، حتى إذا انتقل إلى المدينة فرضت الخطابة – كما قدمنا – في صلاة الجمع والأعياد ثم في مواسم الحج . وكان ما يزال يخطب في الأحداث التي تلم. وفي أخباره أنه كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات[204] غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ من هذا التراث القيم إلا بأطراف قليلة ، ولعل مرجع ذلك إلى طول المسافة بين خطبه وعصر التدوين فضاعت أو سقطت من يد الزمن إلا بقايا قليلة.

وأكثر هذه البقايا مما خطب به عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة، وهو فيها يتطابق مع آي القرآن التي كانت تنزل عليه، إذ نراه تارة واعظاً، وتارة مشرّعاً وقد يجمع بين الطرفين من الوعظ والتشريع في نسيج بلاغي رائع .

ومن أروع ما يصور ذلك خطبته عليه السلام في حجة الوداع ، وهي تجري على هذا النمط[205]:

" **الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له،**

---

[204] إعجاز القرآن للباقلاني ص 63.

[205] البيان والتبين 31/2 وانظر السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبي)250/4 والعقد الفريد 57/4.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله أوصيكم – عباد الله- بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير. أما بعد أيها الناس! اسمعوا مني ، أبين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع[206] ، وإن أول رباً أبدأ به ربا عمي العباس ابن عبد المطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإن مآثر الجاهلية موضوعة، غير السدانة[207] والسقاية[208] . والعمد قود[209] ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيها الناس! إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس! (إما النسئ[210] زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حـــرم الله) . **إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الـــسموات والأرض** ، (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق الـــسموات والأرض ، منهـــا أربعة حرم) **ثلاثة متواليات وواحد فرد. ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجـــب الذي بين جمادي وشعبان، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد. أيها الناس ! إن لنـــسائكم عليكم حقاً، ولكم عليهن حق، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يـــدخلن**

---

[206] موضوع: ساقط ومحرم.

[207] السدانة: خدمة الكعبة

[208] السقاية: سقاية الحجاج.

[209] العمد: القتل المتعمد. القود: قتل القاتل بمن قتل.

[210] النسيء: شهر المحرم كانوا يحرمونه عاماً ، ويحلونه عاماً آخر إن أرادوا الإغارة، فيقولون إنه بعد شهر صفر ويؤجلونه.

أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن[211] وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح[212]. فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإنما النساء عندكم عوان[213] ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد ، أيها الناس! إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله ، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. أيها الناس! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير. ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. قالوا: نعم ، قال: فليبلغ الشاهد الغائب. أيها الناس! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، فلا تجوز وصية لوارث في أكثر من الثلث. والولد للفراش وللعاهر الحجر[214] ، من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، الا يقبل منه صرف[215] ولا عدل[216] . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وواضح أن الرسول r لم يكد يلم بالحمد لله والشهادة والوصية بالتقوى حتى انتقل يبين طائفة من التشريعات الإسلامية التي أقامها الدين الحنيف حدوداً بين حياة العرب في الجاهلية وحياتهم في الإسلام، فقد كانوا مفككين متنافرين يتحاربون دائماً طلباً للأخذ بالثأر ونهباً للأموال. وجمعهم الإسلام تحت لوائه في جماعة

---

[211] تعضلوهن: تضيقوا عليهن..

[212] الضرب غير المبرح: الضرب الخفيف.

[213] عوان: جمع عانية وهي الأسيرة، أي هن عندكم بمنزلة الأسيرات.

[214] للفراش: أي لصاحبه، وللعاهر الحجر: أي أن هذا مقضى به رغم أنفها أو لعله يشير إلى رجمها.

[215] السقاية: سقاية الحجاج.

[216] السقاية: سقاية الحجاج.

كبرى متآخية متناصرة لا يبغي بعضها على بعض. ولكي يقضي على كل سبب للحرب بينهم رد دم القتيل إلى الدولة فهي التي تعاقب عليه ولكي يستأصل هذا الداء دعا إلى التنازل عن حق الأخذ بالثأر القديم ، وحرم النهب والسلب تحريماً قاطعاً مشدداً فيه العقوبة.والرسول يفتتح في الخطبة أوامر الإسلام ونواهيه بإعلان أن دماء المسلمين وأموالهم حرام ، وأن على كل من كانت عنده أمانة أن يردها على صاحبها، وأن على كل مسلم أن يرعى أخاه في ماله، فلا يأخذ منه شيئاً إلا بالحق ، ومن ثم حرم الربا، وبدأ بعشيرته وتاجرها الموسر العباس بن عبد المطلب فأسقط عن رقاب المدينين له رباه. وعلى نحو ما أسقط الربا أسقط دماء الجاهلية ، فليس لمسلم أن يثأر لقتيل له، وبدأ بعشيرته فأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. ولم يبق من مآثر الجاهلية شيئاً سوى خدمة الكعبة وسقاية الحجيج، وأوجب في قتل العمد القود، ولكن الدولة هي التي تقوم به، وبذلك قضى الإسلام على حروبهم الداخلية. وقد جعل في القتل شبه العمد مائة بعير. كل ذلك ليحفظ للجماعة وحدتها ويسود بين أفرادها السلام والوئام.

ويحذر الرسول من الشيطان وغواياته، محرماً للتلاعب بالأشهر الحرم، واضعاً تقويماً قمرياً يتألف من اثنى عشر شهراً، منها أربعة حرم: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب. ويرفع من شأن المرأة ومعاني علاقاتها بزوجها، فيجعل لها حقوقاً وعليها واجبات، وفي الطرفين جميعاً يحفظ لها كرامتها. كما يحفظ لزوجها نفس الكرامة، داعياً إلى التعاطف بينهما والتراحم والتعامل برفق وإحسان.

ويعود إلى العلاقة بين الفرد وجماعته الكبرى من الأمة، فيقرر أن المؤمنين إخوة، لكل منهم على صاحبه ما للأخ على أخيه من التآزر والتعاون والتحاب، فلا بطش ولا ظلم ولا نهب ، ولا حرب ولا سفك للدماء. وإنه لعهد من نقضه عاد كافراً آثماً قلبه. لقد انتهى عهد الحياة القبلية وكل ما اتصل بها من تنابذ وتفاخر ، فالناس جميعاً لآدم، ولا عربي عدناني ولا عربي قحطاني، بل لا عربي ولا أعجمي ، فقد وضعت موازين جديدة لحياة العرب، فلم يعد التفاضل بالنسب

والحسب، إنما أصبح بالتقوى فهي معيار التفاضل. ويلفت الرسول سامعيه إلى ما قرره القرآن في الميراث وأنصبته، وأن للمورث أن يوصى بالثلث من ماله. ويرسى قاعدة مهمة في شرعية الأبناء ، وخاصة هؤلاء الذين تلدهم العواهر، فينسبهم إلى أصحاب الفراش ، وكانوا ينسبونهم إلى غير آبائهم، وقد لا ينسبونهم أبداً، فحرم ذلك تحريماً باتّاً. وبذلك قضى على نبالة النسب من جهة الخئولة قضاء مبرماً.

وعلى هذا النحو كان الرسول r يبين في خطابته حدود الحياة الإسلامية وما ينبغي أن يأخذ به المسلم نفسه في علاقاته الكبرى مع أفراد أمته وعلاقاته الصغرى مع أسرته. فإن ترك ذلك فإلى وعظ المسلمين وما ينبغي أن يأخذوا أنفسهم به، في سلوكهم حتى تزكو نفوسهم ، وفي عبادتهم لربهم وتقواه حق التقوى حتى لا يزيغوا ولا ينحرفوا عن المحجة، بل يتدرجوا في مراقى الكمال الإنساني.

وهذه الخطبة وسابقتها تصوران في دقة حسن منطق الرسول في خطابته ،وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع ولا بلفظ غريب، فقد كان يكره اللونين جميعاً من الكلام لما يدلاّن عليه من التكاليف ، وقد برأه الله منه إذ يقول في كتابه العزيز: قل يا محمد: **(وما أنا من المتكلفين)** . والذي لا شك فيه أنه كان يبلغ بعفوه قوي بفطرته ما تنقطع دونه رقاب البلغاء، وقد وصف الجاحظ بلاغته في خطابته أدق وصف ، فقال إنه : "**جانب أصحاب التقعيب**[217] ،**واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشى، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، لم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته. لم تسقط له كلمة ، ولا**

---

[217] التقعيب: التقعير وهو التكلم بأقصى قعر الفم.

زلت له قدم، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج[218] إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ... ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى ، ولا أبين في فحوى[219] من كلامه r " [220]. ونضيف إلى الجاحظ أنه **r** هو الذي فتق معاني هذه الخطابة الدينية التي لم يعرفها العرب قبله، فهو الذي رسمها ، وفجر ينابيعها بحيث أصبحت مادة للخطباء من بعده، وكأنما احتشد الكلم بأزمته إليه ، ليختار منه أفصحه وأسلسه وأبينه في الدلالة ، يسعفه في ذلك ذوق مرهف وحس دقيق نتبينها فيما روى عنه من قوله: "**لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل: قست نفسي**"[221] كراهية أن يضيف المسلم الطاهر إلى نفسه الخبث، مما يدل على أنه لم يكن ينطق إلا باللفظ المختار البرئ من كل ما يستكره ، اللفظ الذي يحبب إلى النفوس لحلاوته وعذوبته وصفائه ونقائه.

---

[218] الفلج: الفوز.

[219] فحوى: دلالة.

[220] البيان والتبيين 17/2.

[221] الحيوان 335/1 ولقست النفس: غثت.

3

خطابة الخلفاء الراشدين

كان **أبو بكر** وعمر وعثمان وعليّ في الذروة من الفصاحة والبلاغة، إذ سرى في نفوسهم بيان القرآن بترغيبه وترهيبه وبيان الرسول بمواعظه وتشريعاته، وتسرب هذا البيان إلى أجزاء نفوسهم وأخذ بمجامع قلوبهم.

وكان أبو بكر أول من أسلم من الرجال، وكان أحب رفيق إلى الرسول وألصق أصحابه به . وقد نوه القرآن بذكره. فقال جل شأنه: **(فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى)** ، وفيه نزلت آيات أخرى. وهو خير من يمثل المسلم بأخلاقه وفضائله وحميته للدين وتأثره بهدى القرآن الكريم ورسوله تأثراً استحوذ على كل نفسه ، فإذا لسانه يتدفق تدفق السيل، بما استشعر من معاني الإسلام وقيمه الروحية. وقد أثرت عنه خطب كثيرة ، تدل دلالة واضحة على شدة شكيمته في الدين ويقظته وصدق حسه، وأنه حقاً كان أجدر أصحاب رسول الله بخلافته. فمن ذلك أنه – لما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى واضطرب الناس وماجوا، وقالوا وقال معهم عمر بن الخطاب: إن الرسول لم يمت – أقبل فكشف عن وجهه ، فقبله، وقال: بأبي أنت وأمي طبت حياً وطبت ميتاً. وخرج من عنده فبدر الصحابة بخطبته المشهورة[222] التي قال فيها: "**من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت**" ثم أخذ في بيان غلط من كذبوا موته محتجاً عليهم بمثل قوله تعالى: **(إنك ميت وإنهم ميتون)** ، وتلا: **(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم)** ، ثم تلا: **(كل نفس ذائقة الموت)** ، ثم تلا: **(كل شئ هالك إلا وجهه)** . فثاب من كذبوا موته رضوان الله عليه إلى رشدهم. ولم يلبث أن عرف أن الأنصار قد اجتمعوا إلى سعد

[222] الطبري 444/2 وزهر الآداب 30/1.

بن عبادة في سقيفة[223] بني ساعدة ، يقولون: منا أمير ومن قريش أمير، فراعه ذلك وخشى على الأمة من الفرقة والطمع في الملك ، فبادر إليهم قبل أن يستفحل الشر ، وتبعه عمر وأبو عبيدة في نفر من المهاجرين . وهناك خطب في الأنصار ، فأقنعهم أن يجتمعوا على رجل من قريش ، وتمت البيعة له ، فخطب في الناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه وقال[224]:

"**أيها الناس! إني قد وليتُ عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني . أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم. ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم**".

وأخذت تتجلى مواقفه العظيمة ومآثره الكريمة ، فإنه أمر أن يخرج بعث أسامة إلى وجهته من حرب الروم كما أمر الرسول. وكان كثير من العرب قد منعوا الزكاة ، ومشى إليه كثير من المهاجرين والأنصار، يقولون له لا قبل لنا بحرب العرب ، فاقبل الصلاة منهم واترك الزكاة، فقال قوله المأثور: "**لو منعوني عقالا**[225] **مما أعطوه النبي لجاهدتهم عليه**" ، وجاهدهم بجيوشه ، حتى عادوا إلى الإسلام بعد ردتهم. وإذا أخذنا نقرأ في خطبه وجدنا جمهورها وعظاً يستمد مادته من القرآن وكلام الرسول ، على شاكلة قوله في خطبة لمه[226] :

"**إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن الله ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وحظ ظفرتم به ، وضرائب أديتموها ، وسلف قدمتموه ، من أيام فنية لأخرى باقية،**

---

[223] الطبري 445/2 وما بعدها.

[224] عيون الأخبار 234/2 والطبري 450/2.

[225] العقال هنا: كناية عن البعير.

[226] الطبري 460/2.

لحين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس وأين هم اليوم؟ أين الجبارون؟ .. أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب؟ قد تركوها لمن خلقهم، فتلك مساكنهم خاوية ، وهم في ظلمات القبور، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً [227] **... إلا الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه به سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره. واعلموا أنكم عبيد مدينون ، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته ، أما إنه لا خير بخير بعده النار ، ولا شر بشر بعده الجنة".**

واستن بجانب مثل هذه الموعظة سنة الوصية للجيوش الفاتحة، وهو في وصايا يصدر عن روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية في معاملة المسلمين لمن يغلبون عليهم ، إذ يطلب إليهم أن لا يخونوا ولا يغدروا ولا يمثلوا بقتيل ولا يقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا يفسدوا زرعاً ولا يستحلوا مالا إلا لمأكله ولا يتعرضوا لرهبان النصارى، وتصور ذلك كله وصيته لجيش أسامه بن زيد حين سره إلى مشارف الشام ، وفيها يقول[228] :

"أيها الناس اقفوا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عني: لا تخونوا ولا تغلوا[229] **، ولا تطروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تقعروا**[230] **نخلا ، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له" .**

---

[227] الركز: الصوت الخفي.

[228] الطبري 463/2.

[229] تغلوا: تخونوا في الفئ.

[230] تقعروا: تستأصلوا وتقطعوا.

واوضح مما تمثلنا به من خطابة أبي بكر أنه لم يكن يلهج بسجع ، إنما كان يلهج بكلم فصيح جزل واضح الدلالة عما في نفسه. وكان يتخير لفظه ، وربما كان من الأدلة على ذلك ما يروى من أنه عرض لرجل معه ثوب، فقال له: أتبيع الثوب؟ فأجابه: لا ، عافاك الله . فتأذى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ إذ قد يظن أن النفي مسلط على الدعاء، فقال له: لترا علتم لو كنتم تعلمون، قل: لا، وعافاك الله"[231].

وكان من صواب رأيه وصحة فراسته اختياره **عمر** خليفة من بعده، وكان على شاكلته نفاذ بصيرة وصدق عزم وبلاغة لسان، كما كان صفى رسول الله. وقد أعز الله به الإسلام في مكة حين أعلن ولاءه لرسوله ، وما زال منقطعاً إليه والرسول يقربه منه ويتخذه موضع مشورته، حتى توفي وخلفه أبو بكر ، فكان له نعم الظهير والمعين . ولما أسندت إليه مقاليد الخلافة نهض بها في رجاحة عقل، حتى إن أحداً لم يرد عليه رأياً واحداً ولا عملاً واحداً، وما زال يوطئ الأمر بسعة حلم وشدة عزم، مجنداً للأجناد ، حتى فتحت فارس وتم فتح الشام وفتحت مصر، وهو على ذلك كله نعم الكالئ والحافظ لرعيته. وكان بيانه في مقدار عقله قوة وسداداً، إذ كان في مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة، حتى قالوا إنه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أي شدقيه شاء[232] ، فما هو إلا أن يقف بين الناس واعظاً أو يقوم في الجنود ناصحاً حتى يهدر بكلامه وحتى تنصاع له القلوب انصياعاً، ونحن نكتفى بقوله في إحدى مواعظه[233]: "**إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسالة منكم له ولا رغبة منكم فيه إليه فخلقكم تبارك وتعالى ، ولم تكونوا شيئاً، لنفسه وعبادته... وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه**

---

[231] البيان والتبيين 261/1.

[232] البيان والتبيين 62/1.

[233] الطبري 283/3.

ظاهرة وباطنة ، وحملكم في البر والبحر، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون. ثم جعل سمعاً وبصراً. ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بني آدم، ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها، وفدحهم حقها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله، فأنتم مستخلفون في الأرض، قاهرون لأهلها ، قد نصر الله دينكم... والله المحمود مع الفتوح العظام في كل بلد... فنسأل الله الذي لا إله إلا هو الذي أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته".

وسار سيرة أبي بكر في تشييع الجيوش بالخطابة محرضاً على الجهاد، حتى ينتشر الدين الحنيف في أقطار الأرض ، وهو لن ينتشر إلا بالقوة التي تعز الحق وتعلي سلطانه. إنها معركة الإسلام، معركة النفوس المؤمنة التي وعدها الله أن ترث الأرض ومن عليها. وما زال عمر يبرز هذه المعاني محاولاً أن يرتفع العرب في جهادهم عن ضعف المخلوق، ويصبحوا قوة من قوات الخالق ، يقول في بعض هذه الخطب[234] :

"أين الطرَّاء[235] المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها، فإنه قال: (ليظهره على الدين كله) والله مظهر دينه، ومعز ناصره، ومولى أهله مواريث الأمم ، أين عباد الله الصالحون؟".

ولما اجتمع الجيش أمّر عليه أول من أجابه حينئذ إلى الجهاد ، وهو عبيد بن مسعود، وقال له: "اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشركهم

---

[234] الطبري 631/2.

[235] الطراء: الذين خرجوا عن ديارهم.

في الأمر، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث[236] الذي يعرف الفرصة والكف".

وتوفي عمر، فخلفه **عثمان** ، وكان يهبط درجة عنه وعن أبي بكر في الفصاحة والبيان. ويروى أنه أرتج عليه يوماً وقد أراد الخطابة في الناس فقال: "إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالاً ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب" . وليس معنى ذلك أنه كان يرتج عليه دائماً ، فقد كان يخطب أحياناً، فيملأ النفس بمواعظه ، على شاكلة قوله حين بايعه أهل الشورى والناس[237]:

"إنكم في دار قُلعة[238] وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتم ، صُبحتم أو مُسيتم. ألا وإن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغزنكم بالله الغرور. اعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يغفل عنكم، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً ؟ ألم تلفظهم ؟ اروموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا، فقال عز وجل: (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدراً، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً).

وامتحن في آخر أيامه بالثورة عليه ، فلم تنحرف نفسه ، بل ظل صابراً يتلو القرآن ويدعو الناس إلى أن لا يُحْدثوا فتق هذه الفرقة ، وهو في أثناء ذلك يعظهم أن لا تبطرهم الدنيا وأن يؤثروا ما بقي على ما يفنى فيلزموا الجماعة، ولا يتخاذلوا فيصبحوا أحزاباً.

---

[236] المكيث: الرزين المتبصر في الأمور.

[237] الطبري 305/3.

[238] قلعة: انقلاع أي أنها لا تدوم.

وولى **علي** الخلافة من بعده ، والفتنة تموج بالنـــاس ، وطلحـــة والزبيـــر والسيدة عائشة يؤلبون عليه أهل البصرة ومعاوية يؤلب أهل الشام، فاصـــطدم بهـــم جيمعاً ، وانتقل إلى الكوفة بجمع الناس ويحاربهم.

وانتصر على الثلاثة الأولين ، ودخل مع معاوية في حروب صـــفين ، ثـــم كانت خدعة التحكيم، وخرج عليه فريق من جيشه ، فاضطر إلى حربه ، وفي كـــل ذلك يخطب واعظاً حيناً وداعياً إلى جهاد خصومه حيناً آخر. وكان خطيباً مفوهاً لا يشق غباره ، ومن مـــواعظه قوله[239] :

"**إن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وإن الآخـــرة قـــد أقبلـــت وأشـــرفت باطِّلاع، وإن المضمار**[240] **اليوم والسباق غداً. ألا وإنكم في أيام أمل مـــن ورائـــه أجل ، فمن أخلص في أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ولم يضرره أمله ، ومن قصَّر في أيام أمله قبل حضور أجله خسر عمله ، وضره أمله، ألا فاعملوا لله في الرغبة ، كما تعملون له في الرهبة ، إلا وإني لم أر كالجنة نـــام طالبهـــا ، ولا كالنار نام هاربها!** ".

وطبيعي أن تكثر خطبه في حروب خصومه ، وقد ظل نحو أربع ســـنوات يجاهدهم ويخطب في أصحابه حاثًّا لهم على الجهاد ، ومن قوله في خطبة له بأخرة من أيامه وقد تقاعس بعض جنده وأخذت جنود معاويةَ تُغِير على أطراف العراق .

"**إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثـــوب الذل وشمله البلاء ، ولزمه الصغار ، وسيم الخسف ، ومنع النصف**[241] **. ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً، وقلت لكم: اغـــزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوم قط فـــي عقـــر دارهـــم إلا ذلـــوا فتـــواكلتم وتخاذلتم، وثقل عليكم قولي ، واتخذتموه وراءكم ظهريا ، حتـــى شـــنت علـــيكم**

---

[239] البيان والتبيين 52/2.

[240] المضمار: الزمن الذي تضمر فيه الخيل للسباق وكذلك الموضع.

[241] النصف: الإنصاف.

الغارات... فيا عجبا من جدِّ هؤلاء القوم في باطلهم ، وفشلكم عن حقكم... حتى صرتم هدفاً يرمي وفيئاً ينتهب ، يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون.. قد وريتم[242] صدري غيظاً ، وجرعتموني الموت أنفاساً[243] ، وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان" .

وقد خلَّف علي خطباً كثيرة ، نجد منها أطرافاً في البيان والتبيين وعيون الأخبار والطبري، على أنه ينبغي أن نقف موقف الحذر مما ينسب إليه من خطب في الكتب المتأخرة وخاصة نهج البلاغة فإن كثرته وضعت عليه وضعاً.

وواضح من كل ما قد منا كيف ارتقت الخطابة في هذا العصر، وكيف تحولت إلى وعظ الناس وإرشادهم لما فيه كمالُهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة، وقد أخذت ميادينها تتسع باتساع السيادة على الشعوب المفتوحة، كما أخذت تتشعب منذ فتنة عثمان شعباً كثيرة، منها ما يتصل بالجهاد والحرب ، ومنها ما يتصل بالمناظرة في الآراء السياسية المتعارضة بين عليٍّ وخصومه القرشيين من جهة ثم بينه وبين الخوارج من جهة أخرى. وهي في كل ذلك تستمد من القرآن وخطابة الرسول وأحاديثه، تستمد المعاني وتسمتد الأساليب ذات البهاء والرونق.

---

[242] وريتم: ملاتم، وأصله من ورى القيح جوفه إذا أكله.

[243] الأنفاس: جمع نفس بالتحرك ،وهو الجرعة من الماء ونحوه.

4

الكتابة

نوَّه الإسلام بالكتابة وفضلها منذ أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال جل شأنه: **(اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم)**. ومن تمام هذا التنويه القسم بالقلم في قوله تعالى: **(ن والقلم وما يسطرون)** وبالكتاب في قوله سبحانه: **(والطور وكتاب مسطور في رق منشور)**. وتتردد في القرآن كلمات اللوح والقرطاس والصحف في مثل قوله تبارك وتعالى: **(بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ)** وقوله: **(قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس يجعلونه قراطيس) ، وقوله: (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة)**.

وعمل الرسول عليه السلام جاهداً على نشر الكتابة بين أصحابه ، حتى لنراه يجعل فداء بعض أسرى قريش ممن حذقوا الكتابة عشرة من صبيان المدينة[244]، وقد حث القرآن على استخدامها في المعاملات، يقول عز سلطانه: **(يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق)**.

ومن غير شك كانت هي الوسيلة إلى نشر القرآن وتعلمه ، فقد كان الصحابة يكتبونه، حتى يحفظوه.

وكان هناك جماعة من الكتاب يكتبون آياته – كما قدمنا- بين يدي الرسول من مثل عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبي بن كعب وزيد ابن ثابت. وكان يكتب له في حوائجه خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية ابن أبي سفيان. وكان يكتب ما بين الناس المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير، كما كان يكتب بينهم في قبائلهم

[244] طبقات ابن سعد ج 2 ق1 ص14.

ومياههم عبد الله بن الأرقم والعلاء بن عقبة الحضرمي. وكان حنظلة بن الربيع يخلف كل كاتب من كتاب الرسول إذا غاب، فغلب عليه لقب الكاتب[245].

ومعنى ذلك كله أن الكتابة أخذت منذ هذا العصر تستخدم على نطاق واسع لا في كتابة القرآن فحسب ، بل في كتابة كل ما يهم المسلمين في معاملاتهم وعقودهم. وكان الرسول عليه السلام يستخدمها في جميع مواثيقه وعهوده، وكذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده، وتكتظ كتب الحديث والتاريخ والأدب بهذه العهود والمواثيق، سواء منها ما كان على لسان الرسول وما كان على لسان خلفائه. وقد أخذ هذا النثر يحمل تشريع دولة الإسلام الجديدة وما يُطوى فيه من تعاليم الدين الحنيف وحدوده وفرائضه. وأول ما يلقانا في هذا الكتاب أن جميع أهل يثرب: " **أمة واحدة من دون الناس" وهي أمة لا ترتبط بروابط النسب المعروفة في القبيلة وإنما ترتبط بروابط الدين. وعلى هذه الأمة أن تتعاون ضد كل من يبغي عليها منها أو من غيرها، وأن تكفل في داخلها مبادئ السلام كما تكفل حماية الجار ونصرة المظلوم. ومن تبعها من غير دينها له النصرة والأسوة إلا من ظلم وأثم. وهي أمة يعلوها سلطان الله الذي يُرَدُّ إليه وإلى رسوله كل اختلاف وكل حدث أو اشتجار يُخاف شرُّه.**

والكتاب بذلك كله يرينا تكوين الجماعة الإسلامية والعلاقات التي تربط بين أفرادها، وهو يوضِّح هذه العلاقات في داخل العشائر كدفع الدّية والولاء، كما يوضح العلاقات بين أعضاء الجماعة الكبرى التي يُشْرِف عليها الله ورسوله، وهي علاقات وثَّقتها روابط الدين توثيقاً شديداً، بحيث أصبح كل ما يدعو إلى اشتجار مرده إلى هذا الدستور الديني الجديد، الذي يُلْغى الفوارق القبلية ، ويقيم العدل والمساواة ، ولا يدع للناس حق الأخذ بالثأر، بل يرده إلى الله ورسوله، فلا ثأر يجر ثأراً بل عقاب عادل بالمثل في القتل وغير القتل.

---

[245] الوزراء والكتاب للجهشياري (طبعة الحلبي) ص 12.

ونمضي في تلك الوثائق فنقرأ المعاهدة التي كتبها الرسول بينه وبين قريش عام الحديبية[246]والتي نصت على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، دمه لا تنكث" وأنه من أحبَّ أن يدخل في عقْد محمد وعهْده دخله ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه". ونقرأ بعد ذلك كتابه إلى يهود خيبر ثم قسمة أموالها . وتتوالى كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والتصديق برسالته ، وممن دعاه النجاشي ملك الحبشة وهرقل ملك الروم والمقوقس صاحب مصر.

وكما يكتب إلى الملوك يكتب إلى أساقفة الشام وأمرائها وولاة شرقي الجزيرة من قبل كسرى، وكذلك جنوبيها. وقد يكتب إلى القبائل نفسها. وتلقانا معاهدته مع أهل نجران[247]، وفيها يبيِّن ما عليهم من خراج ثم يقول: " **ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. ولا يُغيِّر أسقف من أسقفيَّته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته. وليس عليهم دية ولا دم جاهلية ... ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين**" وعلى هدى هذا الكتاب كانت كتب أبي بكر وعمر التي كتباها إلى أهل البلاد المفتوحة. وتلقانا بعد ذلك عهوده إلى الأمراء الذين أبقاهم على إماراتهم في القبائل وفي اليمن، كما تلقانا عهوده إلى من كان يُرْسل بهم لتعليم الناس آفاق الجزيرة شئون دينهم ، وما ينبغي أن يأخذوه منهم من الزكاة، وقد يرسل بذلك إلى بعض أمرائهم. ومن خير ما يصور هذه العهود كتابه[248] إلى عامله باليمن ، وفيه يأمره بتقوى الله والأخذ بالحق وأن يعلِّم الناس القرآن ويفقههم فيه كما يعلمهم أوامر الدين ونواهيه وما فُرض عليهم من الحج إلى بيته المقدس ومن الصلاة ، وإيتاء الصدقات ويرسم له حدودها على الزروع والثمار والأنعام والأغنام وأن من زاد خيراً فهو خير له.

---

[246] مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة (طبع التأليف والترجمة والنشر) ص 13.

[247] مجموعة الوثائق السياسية ص80.

[248] مجموعة الوثائق السياسية ص104.

وعلى هذا النحو اتسعت الكتابة على عهد الرسول، إذ أصبحت تؤدي تعاليم الدين الحنيف، وكل ما أقامه لصلاح الجماعة الإسلامية وسعادتها، وكل ما فرضه من معانٍ إنسانية في معاملة من يدخلون في لوائه وفي ذمة الله وعَقْدِه.

ويتولى **أبو بكر** الصديق مقاليد خلافة الرسول، ويرتدُّ كثير من العرب، فيجند لهم الجيوش ويبعث مع قادتها بكتاب مفتوح يدعو الناس فيه إلى الاعتصام بدين الله وأن من استجاب وكفَّ وعمل صالحاً قبل منه وأُعين عليه، ومن أبى فلن يُعْجِزَ الله وقوتل حتى يُقِرَّ بالحق. وأتبع ذلك بعهد لأمراء الأجناد ضمَّنه نفس هذه المعاني وأن يستوصوا بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول . وما زال يتراسل معهم حتى رَئِبَ الصدع. وتتحول الأجناد بأمرائها إلى الفتوح، فيكتب لهم ناصحاً على نحو ما كتب لخالد بن الوليد[249] . وتلقانا له منذ هذا التاريخ كتابات وعهود مختلفة كان يرسل بها إلى رؤساء الأجناد في البلاد المفتوحة. وكان آخر ما كتبه عهده لعمر، وفيه يقول: "**إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن بر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب. والخير أردت و ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون**".

وولى **عمر**، فتمت في عهده فتوح إيران والشام ومصر، ومع كل بلد تفتح كان أمراء الأجناد يكتبون لأهلها العقود والعهود، وكان عمر لا يني عن مراسلتهم في كل ما يهمّ من الأمر، سواء فيما يتصل بالحرب وتنظيم الجيوش أو فيما يتصل بمعاملة أهل البلاد المفتوحة وما يعطى لهم من عهود، وعهده لأهل إيليا(بيت المقدس) ، وفيه يقول[250]:

"**هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها: أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهد ولا ينتقص منها ولا حيزها ولا صليبهم ولا من شئ من**

---

[249] مجموعة الوثائق السياسية ص227.

[250] مجموعة الوثائق السياسية ص268.

أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية.. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين" . وواضح أن عمر ترسم في هذا العهد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لنصارى نجران. وعلى نحو ما كان يستلهم صنيع الرسول في عهوده كان يستلهم وصاياك لولاته في سياسة الناس ومعاملتهم بإحسان، ومن خير ما أثر عنه في هذا الجانب رسالته إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة، وهي تمضي في البيان والتبيين على هذا النحو[251]:

"**بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أُدْلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يخاف ضعيف من جورك. البينة على من ادَّعى ، واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً أو أحلَّ حراماً ، ولا يمنعنَّك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه إلى الحق، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهمَ الفهمَ عندما يتلجلج في صدرك، مما لم يبلغك في كتاب الله ولا في سنة النبي صلى الله عليه وسلم. اعرِفِ الأمثالَ والأشباه، وقِسِ الأمور عند ذلك، ثم اعمِدْ إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى. واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بينته أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينه أخذت له بحقه، وإلا وجَّهت عليه القضاء، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حدٍّ أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً[252]في ولاء أو قرابة ، فإن اله قد تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم بالبينات والأيمان. ثم إياك والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق، التي يوجب الله بها الأجر، ويحسن بها الذخر، فإنه من يخلص**

---

[251] البيان والتبيين 48/2 وما بعدها.

[252] ظنيناً : متهماً.

نيته فيما بينه وبين الله تبارك و تعالى ، ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله ستره وأبدى فعله . والسلام عليك".

والرسالة وثيقة مهمة فيما ينبغي أن يكون عليه الحاكم قاضياً أو غير قاض من الرفق برعيته ومعاملة جميع أفرادها على قدم المساواة. وعمر يضع فيها أسس النظر في الادعاء وفي الصلح بين المتخاصمين، ويفتح الباب واسعاً أمام من يقضي في شأن من شئون الرعية ويتبين خطأ قضائه أن يرجع فيه. وما يلبث أن يضع للحاكم الأصول التي يصدر عنها في أحكامه ، وهي الكتاب والسنة فإن لم يجد فيهما ما ينير له الحكم اجتهد برأيه معتمداً على القياس. ويجعل للمدعي أمداً ينتهي إليه . ويقول إن الأصل في المسلم أن يكون عدلاً ، إلا أن تنتفي عدالته فلا تصح شهادته. ويوضح للحاكم قاضياً أو غير قاض موقفه من الخصوم فلا يتأذى بهم ولا يتنكر لهم. وقد ترك وصية[253] للخليفة من بعده تعد دستوراً رفيعاً للحكم، سواء فيما يتصل بحكم المسلمين أو حكم أهل الذمة وما ينبغي أن يؤخذوا به من الرفق.

وفي الحق أننا لا نصل إلى عهد عمر حتى تصبح الكتابة جزءاً أساسياً في أعمال الدولة، وحتى تتضمن كل تعاليمها وكل ما رسمته للمسلمين وأهل الذمة من العلاقات السياسية والاقتصادية في الخراج وقسمة الغنائم وكل ما يتصل بالأنظمة في الشعوب المفتوحة. وعمر في ذلك كله يستلهم القرآن والسنة النبوية، ويستشير أصحابه في كل ما يأخذ من أمر ويدع، وهو في ثنايا ذلك يجتهد ويفتح الباب لاجتهاد أصحابه. فإذا قلنا بعد ذلك إن الكتابة رقيت في العصر رقيّاً بعيداً لم نكن مغالين. إذ وسعت كل الحاجات السياسية التي جدت، وكل ما أُعْطى للمسلمين المحاربين والشعوب المفتوحة من حقوق.

---

[253] البيان والتبيين 46/2.

وقد مضى فاتحو الثغور في عهد عثمان يكتبون عهودهم لمن يغلبون عليهم أو يدخلون في طاعتهم دون حرب مقتدين بما رسمت العهود في عهد عمر وأبي بكر، وكان عثمان يكتب أحياناً إلى ولاته في الحرب والسلم. وخلفه على فكثرت الحاجة بحكم حروبه إلى مكاتبات مختلفة بينه وبين الخارجين عليه . ومن أهم ما كتب حينئذ وثيقة[254] التحكيم بينه وبين معاوية.

وواضح من ذلك كله أن الكتابة تطورت تطوراً واسعاً في هذا العصر، فقد تعددت الموضوعات التي تناولتها والتي لم يكن للعرب بها عهد قبل الإسلام ورسالة صاحبه النبوية ، إذ أخذت تحمل مجموع النظم الجديدة التي قامت عليها دولة الإسلام العتيدة. وكان الرسول عليه السلام هو الذي ذللها لتحمل هذه النظم، وخلفه عليها قواد الجيوش في عهودهم للبلاد المفتوحة وخلفاؤه الذين فصلوا هذه النظم وطابقوا بينها وبين حاجات المسلمين من جهة وحاجات من غلبوا عليهم من جهة أخرى، ولعمر من بينهم في ذلك القدح المعلَّى إذ ساعدت كتبه الكثيرة في الفتوح وإلى الولاة على أن ينال النثر الكتابي كل ما كان ينتظره زمن الخلفاء الراشدين من تطور ونهوض.

---

[254] مجموعة الوثائق السياسية ص281.

الباب الثاني

العصر الأموي

الفصل الأول (1)

أغراض الشعر في العصر الأموي

(1) دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي: د. محمد عبد القادر أحمد.

الغــزل

- **الغزل اللاهي الحسي (الصريح).**
- **الغزل العذري العفيف.**
- **الخصائص الموضوعية.**
- **الخصائص الفنية.**

الغزل

يعد الغزل فناً من فنون الشعر القديمة التي عرفها الشعراء منذ أقدم عصور الأدب العربي منذ العصر الجاهلي وكان القدماء يطلقون عليه اسم التشبيب أو النسيب أو الغزل وهي كلها في ألفاظ مترادفة،وبعض النقاد حاولوا أن يفرقوا بينها، واستمر فن الغزل في عصر صدر الإسلام وفي العصر الأموي إلا أن ظروف الحياة الاجتماعية ساعدت على وجود نوعين من أنواع الغزل.

النوع الأول: الغزل اللاهي الحسي (الصريح) :

ظهر هذا النوع من الغزل في بيئة الحجاز. وساعدت عوامل كثيرة على ازدهاره في هذا الإقليم منها الثراء الواسع الذي عمَّ مدن الحجاز نتيجة الفتوح الإسلامية فقد عادت الجيوش المحاربة ومعها الأسلاب والغنائم والذهب والفضة والنقود والملابس والحلي والأواني والتحف ، وقد صبت كثير من هذه الأموال في مدن الحجاز الرئيسية مكة والمدينة والطائف. يضاف إلى هذا المصدر الكبير مصدر ثانٍ وهو ما كانت تتمتع به بعض الأسر الغنية من ثراء كبير نتيجة اشتغالها بالتجارة منذ العصر الجاهلي، وهناك المصدر الدائم الذي يفيض بالخير على سكان الحجاز كل عام وهو الحج.

فقد جعل الله أفئدة من الناس تهوي إلى هذه الأماكن المقدسة كل عام بما ينشط التجارة والتعامل في هذه الأماكن وبما يعود على أهلها بالرزق الوفير. فالحج يفئ عليهم كل سنة بما يسد خلة كل محتاج. ولذلك وجدنا أبناء الصحابة والمجاهدين من سكان هذه الأماكن يتوسعون في بناء القصور الباذخة والدور الكبيرة ويحوطونها بالبساتين والكروم والأشجار والعيون. ومن مظاهر الثراء والنعيم ما كان ينعم به سكان هذه القصور فقد طعموا وشربوا في أواني الذهب والفضة ، ولبسوا الخز والديباج والإستبرق والحلل الموشاة.

" ولعل من أهم ما يلاحظ بصدد هذا الفن أنه أحال شعر الحجازيين إلى ما يشبه أن يكون عملاً مشتركاً بين الشعراء وبين المغنيات والمغنيين، إذ كان الشاعر ينظم شعره ، ثمَّ يعرضه على من حوله من المغنيين والمغنيات ليغنوا به، فكانوا يحورون به حتى يتلاءم مع ألحانهم وأنغامهم.

وإذن فالشعر لم يعد في الحجاز عملاً مستقلاً يقوم به الشاعر، بل أصبح عملا يعتمد علي عمل آخر ، أو قل أصبح فناً يعتمد اعتماداً علي فن الغناء وألحانه وأنغامه، وهو فن كان ينهض به الموالي من المغنين والمغنيات"[255].

وكان طبيعياً لاجتماع هذه العوامل كلها أن ينشط الشعر الغزلي الخالص على أيدي هؤلاء الشعراء حتى يصبح فناً مستقلاً.

وكان طبيعياً أيضاً أن يكون غزل هذه الطائفة المترفة اللاهية من شعراء مكة والمدينة والطائف مطبوعاً بالطابع اللاهي الصريح، فلم تكن عواطف هؤلاء الشعراء صادقة في جميع شعرهم، ولم يقتصر الشاعر في غزله على ذكر امرأة واحدة بل كان يشبب بكل النساء الجميلات اللائي يصادفهن في مجالس اللهو ومواسم الحج.

والشعراء في هذا اللون من الغزل مفتونون بالمرأة من حيث هي وسيلة تسلية وتزجية أوقات الفراغ من غير انحدار إلى السفوح المحرمة ومن غير فحش وتعهر .

فالمرأة عندهم وسيلة لتحقيق متعهم ولهوهم وإرضاء حواسهم وهي ليست غاية الحب ولكنها وسيلة إليه ، وهم دائماً ظامئون كلما رويت أنفسهم عاودهم الظمأ إلى أخرى. وهم في كل مرة لا يطلبون الكأس إلا لتروي ظمأهم وتبل صداهم ، وتطفئ نارهم، فالكأس نفسها لا تعنيهم إلا بقدر ما ينالون منها من شراب.

---

[255] التطوير والتجديد /29.

وأشهر شعراء هذا اللون من الغزل عمر بن أبي ربيعة، وعبيد الله بن قيس الرقيات في مكة ، وعبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان المشهور بالعرجى في الطائف والأحوص بن عبد الله الأنصاري في المدينة .

ويمكن القول بأن جانباً كبيراً من الغزل الحجازي يعد جديداً وانعكاساً طبيعياً للحياة الحضارية التي كان يحياها المجتمع في مكة والمدينة والطائف. وعلى الرغم من أن بعض هذا الغزل يشبه الغزل الحسي اللاهي الصريح الذي وجدناه عند امرئ القيس والأعشى والنابغة إلا أن جانباً كبيراً منه يعد جديداً على الأدب العربي فغزل الجاهلية كان يأتي إما في ثنايا القصيدة مع موضوعات أخرى أو يأتي به الشاعر في أول القصيدة ليكون وسيلة أو مقدمة لغيره من فنون الشعر الأخرى كالفخر والوصف وغير ذلك . ولكننا وجدنا الغزل في العصر الأموي موضوعاً مستقلاً يفرد له الشعراء القصائد الكاملة بل يتخصصون فيه تخصصاً دقيقاً فلا يكادون يتجاوزونه إلى موضوع آخر. ولعل خير أمثلة لذلك ديوان عمر بن ربيعة، وديوان تلميذه العرجى وشعر الحارث بن خالد المخزومي .

ولكن من الأمانة العلمية القول بأن غزل الجاهلية الذي كان موجوداً في عصر صدر الإسلام وعصر بني أمة كما في شعر كعب بن زهير وجرير والفرزدق والراعي ظل قائماً بعد هذين العصرين من عصور الأدب حتى العصر الحديث ونجد منه صوراً في شعر شوقي وغيره من الشعراء المحدثين.

وفي الغزل الجاهلي قلنا عبّر الشاعر عن عاطفته تعبيراً مباشراً إذ كان غزله في جملته وصفاً لمحاسن المرأة التي يتغزل بها ، أما شعراء الحجاز فإنهم لم يقتصروا على الناحية المادية من المرأة بل تحدثوا أيضا عن عاطفتهم حديثاً مباشراً ويظهر من شعرهم أنهم عرفوا الحب وتذوقوه، وأدركوا مواضع الفتنة في المرأة إدراك المنفعل لا إدراك المقلد المحاكى كما فعل كثير من الشعراء الجاهليين في مقدمات قصائدهم .

وفرق آخر بين غزل الجاهلية وغزل الحجاز في العصر الأموي يتمثل في خلو الغزل الحجازي اللاهي من المجاهرة بالفحش والصراحة في وصف العلاقة بين الرجل والمرأة فليس في غزل الحجاز ما يشبه قول امرئ القيس في معلقته.

كما نلاحظ مجئ هذا النوع من الغزل على هيئة المقطوعات القصيرة ذات الأوزان المجزوءة الخفيفة ومن سمات هذا الغزل الألفاظ المختارة الرقيقة والعبارات السهلة المألوفة التي تكاد تقرب من لغة الحياة اليومية، وذلك ليتناسب مع طبيعة فن الغناء . وقد حرص كثير من شعراء الغزل علي نظم شعرهم ليلحن ويغني ، وكان العطاء متبادلاً بين الشعراء والملحنين والمغنين، وكان المغنون يطلبون من الشعراء أن يزودهم بشعر الغزل الرقيق ليتغنوا به في مجالس اللهو والغناء.

ونتيجة للموسيقى التي امتزجت بالشعر ، وتطور الطباع ، ورقة الأذواق ، وصفائها تأثر الشعر، وأصبح ملائماً للحضارة الحديثة وما أنشأت من طباع جديدة وأذواق جديدة أيضاً فقصرت الأوزان وخفت لتكون ملائمة للتوقيع الموسيقي الحديث.

ومن **سمات هذا الغزل** اصطناع أسلوب الحوار للقصصي وهو في الغالب حوار بين الشاعر وبين امرأة شريفة تحيط بها أتراب كأمثال المها وقد برز في إتقان هذا الأسلوب عمر بن أبي ربيعة الذي تتجلى خبرته بمجالس النساء وأحاديثهن وميولهن. ونحن حين نقرأ هذا الحوار لا يسعنا إلا ذكر امرئ القيس الذي سن لمن بعده من الشعراء هذا السبيل إلا أن عمر أكثر منه، و افتن فيه ، وبرع في ابتكار القصص الغرامي براعة بزّ فيها شعرها الغزل كافة، وتتضح قصص المغامرات الغرامية في كثير من قصائده من ذلك رائيته الطويلة التي مطلعها :

أمن آلا نعم أنت غاد فمبكرُ غداة غد أم رائح فمهجر

وفي نهاية هذه الدراسة يبرز سؤال نختم بالإجابة عنه هذه الدراسة عن الغزل الصريح: وهو هل كل ما قاله شعراء الغزل اللاهي وكل ما قصوه علينا من مغامرات غزلية قد وجدت بالفعل في عالم الواقع أم أن كثيراً مما قالوه إنما كان من نسج خاليهم؟

والرأي عندي من الصعب علينا أمام هذه القصص الكثيرة أن نأخذها مأخذ الجد والتصديق فكثير مما حكاه لنا شعراء الغزل من نسج خيالهم وقد اضطروا إلى نسجه استجابة لطلبات المغنين العاجلة لإحياء الليالي الحالمة والحفلات الكثيرة المتكررة ولم يكن بدٌّ أمام الشعراء إلا اختراع هذه القصص فهي مجرد تجارب خيالية عاشوها في حياتهم الفنية، وليست تجارب حقيقية عاشوها في حياتهم الواقعية خاصة في مجتمع إسلامي وفي بيئات تعد قبلة للمسلمين في كل أنحاء المعمورة ولعل في هذا التفسير ما يوضح سكوت المجتمع على شعراء الغزل ووقوفه هذا الموقف السلبي منهم.

<u>النوع الثاني: الغزل العذري العفيف:</u>

وجد هذا النوع من الغزل في العصر الأموي بيئته الصالحة في وادي الحجاز ونجد حيث لا تزال حياة العرب الاجتماعية تقارب من بعض الوجوه حياتهم في الجاهلية فقد كانت تقاليد القبيلة العربية لا تزال تفرض سلطانها على أفرادها، وكان الاعتماد على الرعي وانتجاع مواطن الغيث والكلأ هو أسلوب العيش الأساسي فيه .

وكان تقاليد البادية تحرم على الشاعر الزواج ممن شبب بها أو عرف محبها وظلت هذه البوادي في عزلة نسبية عن المؤثرات الحضارية التي كانت تفد إلى مدن الحجاز وقراها فلم يتأثر بها، ولم يستجب لها.

لقد عاش سكان البادية عيشة فقيرة فيها شظف العيش وقسوة الحياة، وجدب البيئة. فقد كان مجتمعهم رعوياً تميز بالحرمان وخشونة الملبس والمأكل، وكان

عليهم في الإسلام أن يقتطعوا من أموالهم حقاً معلوماً للزكاة، كذلك لم يهتم خلفاء بني أمية بإمداد هذه البوادي بالأموال والعطايا والجواري والرقيق كما فعلوا مع مدن الحجاز لأغراض سياسية فمدن الحجاز كانت مهد الإسلام ومصدر قوته ومنها انبعثت الجيوش الفاتحة التي أزالت الدول وأخضعت البلاد، وفيها نشأت الخلافة، ومنها امتد سلطانها، لذا كان الخلفاء يدرون على ساكنيها من أبناء الصحابة ومن كانت لهم سابقة في الإسلام الأموال، ويوسعون عليهم في العطاء لمكانتهم، واصطناعاً لهم، وإبعادهم عن الخلافة والمطالبة بها. أما البوادي فلم يسكنها أبناء الصحابة من المهاجرين والأنصار ولم يكن لها شأن عظيم في الإسلام، ومعنى هذا أنها بعدت عن المؤثرات الحضارية التي وجدت مع الجواري والرقيق، وبعدت على التيارات السياسية التي كانت تعمل في بلاد الشام والعراق.

وإذا لم تتأثر بوادي الحجاز بالتيارات الحضارية الوافدة لحرمانها من الجواري والرقيق وما أشاعوه في مجتمع مكة والمدينة من مجالس الغناء والحديث والسمر والموسيقى فإنها تأثرت بتعاليم الإسلام ومبادئه السمحة التي كانت قد عمت الجزيرة العربية وخرجت منها إلى غيرها من البلاد المفتوحة . فقد نظم الإسلام العلاقة بين المرأة والرجل على أساس من الطهر والعفاف وفي ظل رباط الزواج المقدس ، وحرم البغاء ، وقذف الأعراض.

وقضى على مظاهر اللهو الجاهلية بتحريم الخمر والميسر والعلاقات غير المشروعة التي كانت تعد من متع الحياة الجاهلية . وحثهم علي التمسك بالفضيلة والعفة ومكارم الأخلاق ، والرقة ، والإحسان في معاملة المرأة. ومعنى هذا أن فرص الاتصال بالمرأة لم تكن ميسرة في البادية كما كانت ميسرة في مدن الحجاز . ولم تكن سبل اللهو وأبوابه مفتوحة أمام شباب البادية كما كانت مفتوحة أمام شباب الحجاز، ومن هنا غلبت سمة الحرمان على المجتمع البدوي، وظل الكبت هو العنصر الكامن في أعماقه ومعنى هذا أن مجتمع البادية في هذا العصر تخلص من

شيئين: تخلص من روح الجاهلية القديمة في حياته الدينية والخلقية، وتخلص من روح العصر الجديد في حياته الاجتماعية والسياسية ، فخلص له شيئان : خلص له الروح الإسلامية الجديدة في بعض جوانب حياته، كما خلص له روح البداوة الموروث في بعضها الآخر.

ومن هنا كان طبيعياً أن تختفي منه مدرسة الحب اللاهي القديمة التي مثلها امرؤ القيس والأعشى، كما كان طبيعياً أيضاً أن لا تظهر فيه مدرسة الحب الحجازية الجديدة التي مثلها عمر بن أبي ربيعة ، لأن العوامل التي هيأت المدرسة القديمة الظهور واختفت منه، والعوامل التي خلقت المدرسة الجديدة لم تتوافر له كما توافرت المجتمع المدن الحجازية" [256]

تخلص من كل ذلك إلى أن عوامل كثيرة تضافرت وساعدت على تخصيص بوادي الحجاز ونجد في مثل هذا اللون من الغزل فالإسلام بمبادئه السامية، ومثله الأخلاقية التي سمت بالنزعات البشرية، والدولة وسياستها، والبيئة بفقرها، فقد تأثرت نفوسهم بالإسلام والقرآن فرقت طباعهم ولانت، وقد صرفهم الإسلام عن الموضوعات التي انصرف إليها شعراء البدو والجاهليون والتي كانت تدعو إليها العصبية القبلية، وحياة القتال والغزو المتصل، وكذلك صرفوا عن المشاركة في سياسية الدولة العامة لأن قريشاً استأثرت بالحكم ، وأبت على القبائل الأخرى مشاركتها فيه، ومن أراد منهم أن يصبح شاعراً سياسياً كان عليه أن يرتحل إلى الشام أو إلى العراق. فلم يجد الذين استقروا في بوادي الحجاز ونجد ملاذاً لهم إلا في الشعر الغزلي، ولم تكن بيئتهم البدوية العفيفة الفقيرة لتتيح لهم الانغماس في حياة اللهو التي انغمس فيها شعراء الحواضر، فجاء غزلهم عفيفاً لا مجون فيه ولا تعهر يتفق وطبيعتهم البدوية ، ويتفق ونفوسهم المتأثرة بتعاليم الإسلام التي تدعو إلى الزهد والعفة وإلى الإعراض عن المجون والتعهر ، ويتفق

---

[256] تاريخ الشعر العربي في العصر الإسلامي /96.

وبيئتهم الفقيرة التي لا تتيح لهم الانصراف إلى حياة اللهو أو المجون التي انصرف إليها شعراء الحجاز.

وفرق بين هذا النوع من الغزل وغزل مدن الحجاز، ففي الغـزل العـذري العفيف يتحدث الشاعر عن مشاعر الحب الكريمة التي تنشأ بين الرجـل والمـرأة، وتغلب فيه نوازع الروح على نوازع الجوع الجسدي ، وفيه يتعلق العاشق بمحبوبة واحدة، يرى فيها مثله الأعلى الذي يحقق له متعة الروح، ورضاء النفس واستقرار العاطفة. وهو استقرار يجعل فتنته بواحدة، تقف عندها آماله، وتتحقق فيها أمانيـه، وهو الهدف الذي يطلبه، والغاية التي يسعى إليها، والأمل الذي يرتجيه، والمعبـود الذي يقضي عمره في محراب حبه، يوقد له الشموع، ويحرق له البخور، مثله مثل الفراشة التي تتهافت على النور ولا تزال تحوم حوله حتى غيّرهـا، ولا يتجاوزهـا إلى سواها، لأنه لا يطلب الري في أي كأس ، ولكنه يطلبه في كأس بعينهـا هـي التي تعجبه وترضيه.

وقد عرف أصحاب هذا الحب بالعفة والطهر والشرف والنزاهة والبعد عن الفحش والادعاء، ومما لا يليق بشرف الفتاة البدوية المسلمة، خاصـة وأن هـؤلاء كانوا يحبون في كثير من الأحيان بنت العم أو بنت القبيلة التي ينتمون إليها بروابط الولاء والدم. فهذا جميل أمام العاشقين العذريين يقرر أنه لم يرتكـب جرمـاً قـط يعاقب عليه الإسلام **قال عباس بن سهل الساعدي:" لقيني رجل مـن أصـحابي ، فقال : هل لك في جميل، فإنه يعتل ، نعوده؟ فدخلنا عليه، وهو يجود بنفسه فنظر إليّ وقال: يا ابن سهل ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قط، ولم يقتـل الـنفس، ولم يسرق: يشهد أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ قلت أظنه قـد نجـا، وأرجو له الجنة. فمن هذا الرجل ؟ قال: أنا قلت: لا نالتني شفاعة محمد إن كنـت وضعت يدي عليها لريبة ".**

وينسب هذا النوع من الغزل إلى قبيلة بني عذره وهي قبيلة عربية كانت تنزل في البادية شمال الحجاز في وادي القرى وكانت تمتد مضاربها إلى تبوك وأيلة (ميناء العقبة) على ساحل البحر الأحمر. ولكن ليس معنى هذا أن هذا الحب اقتصر على هذه القبيلة إنما وجدناه في بوادي أخرى غير هذه البادية لكنه شاع وانتشر بكثرة في هذه القبيلة حتى عرف به وعرفت به، ومن بين شعرائها المشهورين جميل بن معمر، وعروة بن حزام وقد يصل الحال بالمحبين إلى الإشراف على الموت لمرضهم وضعفهم وهزالهم من قلة الطعام. قال رجل منهم ذات مرة: " **لقد تركت بالحي ثلاثين شاباً خامرهم السل، مابهم داء إلا الحب**[257] " **وقيل لآخر ، ممن أنت؟ قال من قوم إذا أحبوا ماتوا ، فقالت جارية سمعته : عذري ورب الكعبة**".

وقيل لأعربي عذري: ما بال قلوبكم ثنماث كما ينماث الملح في الماء؟ أما تجلدون ؟ قال. إنَّا لننظر إلي محاجر أعين لا تنظرون إليها.

وتكاد لفظة "**عذري**" تأخذ مفهوم شاعر **الحب العفيف** الذي ظهر في بادية نجد والحجاز في العصر الأموي ، فلم تطلق على شعراء الغزل في الجاهلية وصدر السلام، وقد جاء الوصف بها على لسان جميل رائد العذريين في العصر الأموي، ويُرْوى أنه استضاف رجلاً يُدْعى جعفراً وضع له خبزة فجعل الرجل يأكل بنهم ويحدث جميلاً عن بنت عم له يحبها حتى أتى على الخبزة فقال جميل[258].

وقد رابني من جعفر أن جعفراً ألحَّ علي قرصي ويبكي على جُمْل
فلو كنت عذري العلاقة لم تكن بطينا ونساك الهوى كثرة الأكل

وتكاد قصص هؤلاء العشاق تتشابه فالشاعر تقع عينه على فتاته فيحبها من أول نظرة ثم يقول فيها شعراً تتناقله الركبان ثم يخطبها من أهلها فيرفضون

---

[257] تزيين الأسواق 9/1.

[258] ديوانه (جميع جمعين نصار) 182.

تزويجها من الشاعر إما لفقرة، أو لاشتهار حبه لها، وقد يتم هذا الرباط بين العاشقين ولكن ظروفاً تطرأ فتفرق بينهما فلا يزيده هذا إلا إمعاناً في حبها والتغزل بها " ثم يزوجه قومه غيره فيشتد هيامه بها وهيامها به فيتواعدان ويلتقيان فيستعدي أهلها الخليفة عليه فيهدر دمه فيضطر إلى الفرار وإلى أن يهيم على وجهه في الصحراء حيث يدركه حينه يائساً محطم القلب ، وهذه القصص نجدها مروية في كتاب الأغاني عند كلامه على هؤلاء الشعراء .

وشعراء الغزل العذري في العصر الأموي كثيرون منهم من اقترن اسمه باسم حبيبته فاشتهر بذلك مثل : جميل بثينة، ومجنون ليلي، وقيس لبنى، وكثير عزة، وعروة وعفراء، ومنهم اشتهر باسمه مجرداً من اسم حبيبته، كتوبة بن الحمير عاشق ليلي الأخيلية، ونصيب بن رباح، ورؤبة بن العجاج وكان يحب سليمى، والصمة بن عبد الله طفيل القشيري، وأبو صخر الهذلي، وأبو دهبل الجمحي، وابن الدمينة وقد وصل إلينا من غزل هؤلاء الشعراء شعر كثير رسموا فيه صورة واضحة للمآسي الحزينة التي عاشوها.

والغزل العذري جاهلي النشأة فقد عرفنا في العصر الجاهلي مجموعة من الشعراء المتيمين تغنوا في شعرهم بعواطفهم الحارة الصادقة، وسموا بها فوق نوازع الجسد ولذلك كانوا بحق النواة الأولى لظاهرة الحب العذري الذي انتشر في العصر الأموي.

ويشتمل التراث الشعبي الجاهلي في قصة حب عفيف تماثل قصص الحب العذري في عصر بني أمية وهي قصة مضاض بن عمرو الجرهمي مع ابنة عمه مي بنت مهليل بن عامر فهي تشبه قصة مجنون ليلى فالشاعر يعشق ابنة عمه، ويحرم منها بدس الوشاة ويموت لفراقها . وقد عبر عربي عن موت مضاض لفراق حبيبته بقوله[259] :

---

[259] كتاب التيجان في ملوك حمير 118.

أمُوت إذا جَدَّ الفِراقَ بيثرب كما مات من حر الفراق مضاض

وإذا مضينا إلى **الخصائص الموضوعية** لشعر الغزل العذري العفيف وجدنا هذا الشعر يدور حول عدة معان تتردد بكثرة في شعر هؤلاء الشعراء أهمها:

1- **العفة والطهر** : لأنه حب روحي عفيف طاهر ، لا سلطان فيه لشهوات الجسد، ونوازع الغريزة، تسيطر عليه عاطفة تتسامى على الغرائز والشهوات، ولا تجعل لها سبيلاً إليها، فشعرهم يضوع بهذا العصر النقي الصافي ، عطر الطهر والعفة والفضيلة يقول جميل:

يموت الهوى مني إذا ما لقيتُها ويحيا إذا فارقتها فيعود

لئن كان في حبِّ الحبيب حدود لقد حلت على حدود

لقد عاش الشاعر العذري حياته يمثل العاشق العفيف الزاهد في المتع الجسدية الرخيصة، واللذات الشهوانية العابرة فالشاعر قانع باللقاء الروحي فنسيم الجو يجمع بينه وبين حبيبته، وهما يبصران غياب الشمس، أرواحهما تلتقي بالليل ويستظلان بالظل في وقت القيلولة ، وينظران إلى النجوم يقول قيس بن ذريح.

فإن تك لبنى قد أتى دون قربها حجاب منيع ما إليه وصول

فإن نسيم الجو يجمع بيننا ونبصر قرن الشمس حين تزول

وأرواحنا بالليل في الحي تلتقي ونعلم أنا بالنهار نقيل

وتجمعنا الأرض القرار وفوقنا سماء نرى فيها النجوم تجول

2- **شكوى الحرمان** : تتردد شكوى شعراء الغزل العذري من الحرمان، وضن الوصال، وخلف الميعاد، ونتيجة لهذا الحرمان يصف الشاعر نفسه بسقم الجسم والهزال والضنى.

وعلى قسوة هذا الحرمان لم يفكر العذريون في السلو والنسيان أو للتماس المتعة في حب جديد. ولقد حاول الشعراء العذريون أن يروضوا أنفسهم على هذا الحرمان يقول جميل معبراً عن الرضا ذلك:

وبي من هــوى ليلــى لــو أبثــه ولو كان أعدى الناس لي كان ينصبح

هوى لم تغيره الحروب ولم يــزل على عهــد ليلــي أو يزيــد فيــربح

فالشاعر شديد المعاناة من حبه لليلي ، بحيث لو بث هذا الوجد إلــى عــدو لتطوع بنصيحته عطفاً عليه.

3- **الوحدانية في الحب** : من السمات البارزة في شعر الشعراء العذريين يتغنــي الشاعر بمحبوبة واحدة يخلص لها

وفي ذلك يقول قيس بن الملوح معبراً عن هذا التوحيد الذي محا من قلبه كل حــب كان فيه من قبل :

محا حبها حب الأُلى كــن قبلهــا وحلت مكاناً لم يكن حل من قبــلُ

4- الشكوى من صد الحبيبة : ويكثر شعراء الغزل العذري من الشكوى من صــد حبيباتهن لهم بعد زواجهن وكأن شدة الوجد، ومرارة الحرمان، وغلبة الهــوى قــد أنستهم تقاليد البادية الصارمة، وتقاليد الزواج في المجتمع المسلم.

وهذا جميل يخاطب بثينة معبراً لها عن أن ما به من حــب يكــاد يقتلــه، متوسلاً أن تشفق فتصله وترد عليه بعض عقله ليتمكن من العيش مع الناس، ولكنها ترد بالرفض فقد تعودت الرفض بعد أن تمكن حبها من جميل ، وهــي لا تعــرف طريق الجود يقول:

إذا قلت : ما بي يابثينــة قــاتلي من الحب قالت: ثابــت ويزيــد

وإن قلت ردي بعض عقلي أعش به مع الناس قالت: ذاك منك بعيــد

إذا فكرت قالت : قــد أدركــت وده وما ضرني بخلي،فكيــف أجــود

أما الخصائص الفنية التي يمتاز بها الغزل العذري العفيف فتتمثل في:

1- **الالتزام بالوحدة الموضوعية في سائر القصيدة** فقد وجدنا قصائد هــؤلاء الشعراء تقتصر على الغزل دون خروج إلى موضوع آخر، ويتعجب القارئ مــن هذه الوحدة الموضوعية التي لم يعهدها في الشعر الجاهلي.

فقد اتخذ شعراء الجاهلية الغزل على أنه وسيلة إلى غاية، أما شعراء الغزل العذري فاتخذوه غاية لا وسيلة.

فأبيات القصيدة كلها في غرض واحد لا تتعداه لأن هؤلاء الشعراء قد عاشوا مخلصين لحبهم فأفردوا له قصائدهم، وأداروا حوله غزلهم، وإذا عدنا إلى دواوين هؤلاء الشعراء وجدنا جميع ما تضمه من قصائد ومقطوعات في موضوع الغزل اللهم إلا بعض المقطوعات التي قد تكون في الهجاء أو الفخر أو المدح. وهي على كل حال شديدة الصلة بالغزل فهو السبب فيها، والباعث على قولها فقيس بن ذريح لم يمدح ابن أبي عتيق إلا لأنه ذهب مع أشراف قومه إلى زوج لبنى وحمله على تطليقها ليتزوجها قيس، وجميل في مقطوعاته القليلة التي هجا فيها وفاخر لم يهج رغبة في الهجاء، ولم يفاخر رغبة في الفخر، كما كان يفعل الأخطل والفرزدق وجرير، إنما هجا لأن غزله اضطره إلى الهجاء، وفاخر لأن غزله اضطره إلى الفخر هجا قوماً كانوا يعيبونه ويهجونه لغزله ونسبيبه، وفاخر هؤلاء القوم أنفسهم، ولو لم يعرضوا له لما فاخر ولا هجا، هجاهم لأنهم هجوه هو وأخته بعد أن استمعوا إلى غزله في بثينة فاضطر أن يرد على عبيد الله بن قطبة وأخيه حواس.أما هجاؤه للحزين الديلي وخوَّات فسببه المفاضلة الأدبية والفخر القبلي[260].

ويشابه هذا التخصص في الغزل العذري التخصص الذي وجدناه عند ابن أبي ربيعة وإضرابه في مدن الحجاز من تخصص في الغزل الحسي اللاهي وكلاهما تطور جديد يمتاز به الغزل في العصر الأموي المقارنة بالغزل الجاهلي.

2- **العناية بالعاطفة**: والحرص على تمثيلها، فأهم ما يتصف به الغزل العفيف صدق العاطفة، وحرارة الانفعال، وفرق بين غزل الجاهليين وبين غزل الأمويين فلم يكن الجاهليون يعنون في غزلهم بدخائل نفوسهم، وبيان أثر الحب وتأثيره في النفس، وبالآلام المختلفة التي تنشأ عنه، أي لم يعنوا بالعاطفة فجاء غزلهم مادياً

---

[260] انظر مقدمة ديوان جميل 12.

خالصاً لاروح فيه. وإن وجدت في غزل بعضهم عاطفة كانت عاطفة مادية غليظة تصدر عن الشهوات الجسدية وكانوا كما يقول الدكتور طه حسين يصفون لذة الحب كما يصفون لذة الصيد ولذة الحرب، وكانوا يصفون النساء كما كانوا يصفون الإبل[261]. أما الغزل الأموي فقد عني الشعراء فيه بالحب وما يتركه في القلب من أثر، وما يبعثه في النفس من عاطفة، فقد نظر شعراء الغزل للمرأة على أنها شطر من النفس لا تطيب للنفس حياة إلا به، ويدلل الدكتور طه حسين على هذا التطور في النظرة والاتجاه علي رقي للعقل العربي والشعور العربي، ويري أن الفرق بين العصر ين عظيم لأن بينها القرآن، وأثر القرآن في نفس المسلمين عظيم[262] .

3- **شيوع الرومانسية الحالمة الحزينة الشاكية،** فشعرهم يحلق الشاعر فيه في آفاق الخيال، وهو يختلف عن الشعر الجاهلي لأن الشعر الجاهلي كان يعتمد على الواقعية .

وتتضح الرومانسية في هذه الأبيات التي يناجي فيها المجنون صاحبته بقوله:

فأنت التي إن شئت أشقيت عيشتي وإن شئت بعد الله أنعمت باليا
وأنت التي ما من صديق ولا عدا يرى نضو ما أبقيت إلا رثي ليا
أعد الليالي ليلة بعد ليلة وقد عشت دهراً لا أعد الليالیا
أراني إذا صليت يممت نحوها بوجهي وإن كان المصلى ورائيا
أصلي فما أدري إذا ما ذكرتها اثنين صليت الضحى أم ثمانيا
وما بي إشراك ولكن حبها كمثل الشجا أعيا الطبيب المداويا
هي السحر إلا أن للسحر رقية وإني لا ألفى لها الدهر راقيا

4- **سهولة الألفاظ وجمال الأسلوب**: فألفاظ الغزل العذري بسيطة سهلة ولا تعسف فيها ولا تكلف ، بعيدة عن الحوشي والغريب ، فأنت قد تقرأ القصيدة

---

[261] انظر حديث الأربعاء 221/1.

[262] انظر المصدر السابق 222/1.

فتفهمها لأول مرة دون حاجة إلى أن تعود إلى معجم تبحث فيه عن معنى كلمة من كلمات .

وهذه البساطة تتعدى الألفاظ إلى التراكيب فإذا بها تساير سهولة الألفاظ بلا تكلف ولا التواء، لا تلحظ فيها مشقة في الصياغة ، أو تعسفاً في التأليف، كأنما تقرأ نثراً لا شعراً، هذا مع متانة وجزالة بدوية لا خفاء فيهما. وهنا تكمن براعة هؤلاء الشعراء في الصنعة إذ يبدو للمطلع أن الشاعر العذري لم يبذل كبير جهد في نظم شعره، وإنما كان همه الإفصاح عن حبه العفيف بأقرب لفظ وأحلى عبارة.

5- امتاز الغزل العذري **بالروحانية الصافية الشفافة** فأنت حين تقرأ هذا الغزل تحس بأثر الإسلام فيه، ففيه التسامي، وفيه القيم الروحية، لأنه نشأ في مجتمع أشرب الإسلام، واختمرت فيه روحه، وهذا ما جعل المتصوفة يعشقون الحب العذري يتناولونه وأصحابه بالدراسة والإعجاب، ويتأثرون في حبهم الصوفي بهذا الحب العذري، ووجد الصوفية في تسامي مجنون ليلي بعاطفته، وفي أشعاره وأخباره مجالاً خصباً لخيالهم وأفكارهم، كما وجد شعراؤهم في الغزل العذري العفيف مادة طيبة استمدوا منها أفكارهم للتعبير عن حبهم الإلهي ومواجدهم الروحية. ويشك الدكتور طه حسين في كثير من شعر الغزل سواء الحسي اللاهي أو العذري العفيف، ويرجع صنعة هذا الشعر إلى المغنيين أنفسهم لأن الأشعار التي كانت تصدر صدوراً طبيعياً عن الفريقين كانت أقل من أن تكفي حاجة المغنين، كما يرجع هذه الصنعة إلى شعراء آخرين كانوا يصنعون الشعر ويضيفونه إلى أهل البادية حيناً وإلى أهل الحاضرة حيناً آخر[263]. كما يشك في الأخبار أو القصص الذي يروي لتفسير أشعار العذريين ، ويري أنها متكلفة في أكثر الأحيان . ويذهب الدكتور طه حسين إلى إن الكثرة من شعراء الغزل العذري ومن الفتيات اللاتي كانوا يتغزلون بهن إنما هم جميعاً رموز لا حقائق[264].

---

[263] حديث الأربعاء 186/1.

[264] الصدر السابق 190/1.

فليلي ولبنى وعزة وبثينة وعفراء وهند ودعد وسعاد و أسماء من وجهة الدكتور طه حسين _ إنما هي أسماء نساء اتخذها الشعراء لهذا المثل الأعلى الذي كانوا يلتمسونه ويطمحون إليه حين كانوا يتغنون الحب، سواء منهم في ذلك الشعراء المعروفون والشعراء المجهولون. فليلي ولبني، وبثينة، بالقياس إلى هذا النوع من الغزل أسماء تشبه "هيلانة" بالقياس إلى القصاص من شعراء اليونان المتقدمين، ولسنا ندري أوجدت حقاًابل أكبر الظن أنها لم توجد، وإنما هي المثل الأعلى في الجمال والحب واللين والرقة والدعة وغير ذلك من هذه الخصال التي يتغناها الغزليون.

ويستدل علي ذلك بما رواه الأصمعي قال[265]:" سألت أعرابياً من بني عامر ابن صعصعة عن المجنون العامري فقال : عن أيهم تسألني؟ فقد كان فينا جماعة رموا بالجنون فعن أيهم تسأل؟فقلت: عن الذي يشبب بليلي فقال كلهم كان يشبب بليلي قلت: فأنشدني لبعضهم، فأنشدني لمزاحم بن الحارث المجنون:

ألا أيها القلب الذي لج هائماً وليداً بليلي لم تقطع تمائمه
أَفِقْ قد أفاق العاشقون وقد أنى لك اليوم أن تلقي طبيباً تلائمه
أجدك لا تنسيك ليلى ملمة تلم ولا عهد بطول تقادمه

قلت :فأنشدني لغيره منهم، فأنشدني لمجنون آخر.

قلت : فأنشدني لغير هذين ممن ذكرت ، فأنشدني أيضاً

قلت له: فأنشدني لمن بقى من هؤلاء، فقال: حسبك! فو الله إن في واحد من هؤلاء لمن يوزن بعقلائكم اليوم .

ويري الدكتور **طه حسين** أن الأصمعي لو سأل أعرابياً آخر غير هذا الأعرابي من قبيلة أخرى غير قبيلة بني عامر عن شاعر من شعراء قومه نسب لليلي أو بثينة أو لبني أو بعزة أو ريا، لإجابة الأعرابي هذا الجواب نفسه أو شيئاً

---

[265] المصدر السابق 189/1.

يشبهه، ولأنشده شعراً كثيراً لشعراء كثيرين كلهم ينسب بفتاة من فتيات قومه وجدت حقاً أو اخترعها خياله اختراعاً، ويصرح الدكتور طه حسين :" **أن الثقاة من الرواة ينكرون وجود المجنون أو يشكون فيه، أو يختلفون في أمره اختلافاً عظيماً**".

ويدلل الدكتور طه حسين على شكه في هؤلاء الشعراء وفي شعرهم وما يدور حوله من قصص وأخبار باختلاط أمرهم. على الرواة فهم – كما يرى – يضيفون إلى قيس بن ذريح شعر جميل، وشعر المجنون، وهم يضيفون إلى جميل شعر ابن ذريح وابن الملوح ، بل هم يضيفون إلى كل واحد من هؤلاء الشعراء شعر كثير من أولئك الشعراء الذين لم يتح لأسمائهم الخلود، ولم يعرف عنهم إلا بعض ما قالوا من الشعر. ويستشهد بقول **الجاحظ : " ما ترك الناس شعراً مجهول القائل ذكرت فيه ليلى أو لبنى إلا نسبوه إلى المجنون أو إلى قيس بن ذريح وتستطيع أن تقول ما ترك الناس شعراً مجهول القائل فيه ذكر بثينة أو عزة إلا نسبوه إلى جميل أو إلى كثير، بل تستطيع أن تقول: ما ترك الناس شعراً مجهول القائل فيه ذكر عفراء إلا نسبوه إلى عروة بن حزام**" .

وآراء الدكتور طه حسين في الغزل العذري اللاهي الحسي لا ينبغي قبولها جملة وتفصيلاً إذ فيها غير قليل من المبالغة وهي امتداد لنظرية الشك التي يذهب إليها في الشعر العربي القديم، فنحن نسلم معه في أن هؤلاء الشعراء حمل الرواة عليهم شعراً ليس لهم، وتزيدوا في تفسير مناسبة ما قاله الشعراء لتحليه مجالس الأنس والسمر، ولامتاع الجلساء بالحديث الشيق في الليالي الطويلة، واستثارة للتشويق والتطلع ، وطلباً للإغراب والإعجاب.

ونحن مع الدكتور طه حسين في اختلاط أشعارهم فما ينسب لأحدهم قد ينسب للآخر. **ولكنا لا نوافقه** في إنكار شخصياتهم وشخصيات محبوباتهم وإنكار شعرهم .

فهؤلاء الشعراء وجدوا حقيقة يروي صاحب الأغاني أن المجنون هو قيس بن الملوح بن مزاحم بن قيس بن عدي بن ربيعة الخ ويستدل على أن اسمه قيساً يقول صاحبته ليلى .

ألا ليت شعري والخطوب كثيرة متى رحل قيس مستقل فراجع

ثم يسوق عديداً من الأقوال تجمع على أن اسم المجنون هو قيس بن الملوح.

لقد تضافرت عوامل كثيرة على خلق هذا النوع من الغزل سبق أن عرضنا لها. ويرى الدكتور طه حسين أن هؤلاء الشعراء اتفقوا في كثير من المعاني حتى لا يكاد المرء يفرق بين صفات الحبيبة عند أكثرهم، وهذا ما جعل الرواة كثيراً ما يسندون شعراً إلى أكثر من شاعر منهم بنفس ألفاظه، أو بتحريف قليل .

ونحن مع الدكتور طه حسين في أن شعر هؤلاء الشعراء يتشابه في كثير من أفكاره ومعانيه وتعبيراته وعواطفه، فأفكار وعواطف شاعر توشك أن تكون هي عواطف الشاعر الآخر ،والصيغة الفنية التي يعكس بها هؤلاء الشعراء تجاربهم الذاتية توشك أن تكون صيغة واحدة أو قريبة. ومع تسليمنا بحقيقة هذه الملاحظة إلا أننا ينبغي أن نقيدها فلا نطلقها على عواهنها، فعلى الرغم من وجود هذا التشابه إلا أنهم يختلقون في التعبير عن مكونات نفوسهم، وعن تجاربهم بما يؤكد ذاتية الحس، واستقلالية التعبير، ومن الممكن تمييز شعر كل شاعر على حدة بعد دراسة حياته ومعجم ألفاظه دراسة جادة متأنية. ولا يمكن أن يقوم التشابه الفني العاطفي دليلاً على إنكار وجود هؤلاء الشعراء التاريخي، وما صدر عنهم من شعر، بل إن هذا التشابه يؤكد وحدة العصر، ويقوم دليلاً على وجودهم، فهم جميعاً تأثروا كل ما وجد في العصر، كل ما وجد في البيئة وعرفوا طريقهم على التعبير عما أحاط بهم في بيئاتهم، فهذا الالتقاء ينهض دليلاً على تاريخية أولئك الشعراء ووجودهم.

وعلى كل حال فهذا الشعر نتاج عصر تهيأت فيه لخلقه عوامل متعددة، وهو جزء من تراث الأمة العربية لا ينبغي أن نشك فيه الشك الذي يجعلنا ترفضه وبذلك نسقط جزءاً من أدبنا العربي فيه من الجمال الشئ الكثير.

فالإطار العام الذي دارت فيه أحداث قصة الحب العذري في فصليها الجاهلي والأموي إطار سليم لم تمسه أيدي الرواة ولم تعبث به أخيلتهم، وإنما دخل العبث والتزيد والخيال في التفاصيل والحواشي وحسبنا هذا الإطار السليم مادة صالحة وكافية للبحث والدراسة. وكذلك الشأن في الشعر الذي حملته إلينا هذه القصة، فإن اختلاط نسبته إلى أصحابه لا يدفعنا إلى رفضه وإهماله، أو إلى اتهامه والشك فيه، لأنه في مجموعه تعبير صادق عن هذه القصة، وهو – على كل حال نتاج مجموعة من الشعراء تشابهت حياتهم فتشابه فنهم .

المـــــدح

- **مدح الخلفاء .**
- **مدح الولاة .**
- **مدح القضاة وأصحاب الشرطة وعمال الخراج**
- **المديح السياسي.**
- **خصائص شعر المديح .**

المـــدح

يعد المدح من الموضوعات القديمة في الشعر العربي فقد وجد في الـــشعر العربي منذ العصر الجاهلي. ووجدنا شعراء الجاهلية يمدحون سادة قبائلهم أو سادة القبائل الأخرى الذين يجدون عندهم حسن الجوار، أو كرم الوفادة، أو طيب الإقامة، أو حماية الجار، أو النجدة ، أو المروءة، ونماذج الشعر الجـــاهلي فـــي موضـــوع المديح كثيرة كما عند أمرئ القيس الذي مدح سادة القبائل الذين نصروه عندما تنقل بين القبائل يدعو لا ستر داد ملكه السليب.

وكما عند النابغة الذي مدح النعمان بن المنذر ملك الحيرة ثم مـــدح ملـــوك الغساسنة في الشام، وكما عند زهير الذي تخصص في مـــدح هـــرم بـــن ســـنان، والحارث بن عوف وكما عند حسان في مدحه لملوك الغساسنة، وكما عند الأعشى الذي تحول المدح عنده إلى ما يشبه الاحتراف لنيل الجوائز والهبات والعطايا.

وعندما يعم نور الإسلام أرجاء الجزيرة العربية يتطور مفهوم المدح عنـــد الشعراء فيصبح مفهوماً دينياً فيمدح شعراء المسلمين رسولهم الكريم وسيجلون لـــه الصفات التي وصفه بها القرآن الكريم، ويمـــدحون صـــحابته الأجـــلاء بالمعـــاني الإسلامية. كما تحول الغرض من المديح فلم يعد يبغي الشعراء مـــن ورائـــه إلـــى التكسب ونيل الجوائز إنما كان احتساباً إلى الله، ومشاركة في الدعوة إلـــى الـــدين الجديد.

وعندما قامت الدولة الأموية قصد الشعراء خلفاءها بمدائحهم لنيل عطاياهم، والحصول علي جوائزهم وتحول المدح إلى ما يشبه الحرفة عند بعـــض الـــشعراء. ولم يعد الشعر عندهم هواية يشبع الشاعر بها حاجة نفسية، وإنما أصبح حرفة توفر لصاحبها المال الجم، والحياة الهانئة. وأصبح الشاعر مقابل هذا الكسب مـــدعوا لأن يحسن هذه الحرفة ويجودها.

ويزدهر فن المديح في عصر بني أمية ويحتل المنزلة الأولى بين أغـراض الشعر العربي الأخرى فقد شجع خلفاء بني أمية شعراء المديح وفتحوا لهم أبـواب قصر الخلافة، وأكرموا وفادتهم، فجاءوا من أرجاء الدولة محملين بقصائد المـديح التي نظموها في مدح خلفاء بني أمية والتغني بفضائلهم ومحامدهم.

ونجح قصر الخلافة في دمشق في أن يخلق للمدح في بيئـة الـشام سـوقاً رائجه تتدفق فيها الأموال في حجور الشعراء كما تتدفق القصائد في مسامع الخلفاء والأمراء وقد أعطي الخلفاء والولاة الشعراء عن سعة وبـذخ فـساعدت ضـخامة العطايا وانتعاش الدولة اقتصادياً وكثرة الأموال في خزائن الخلفـاء والـولاة مـع الرغبة في الشهرة وحسن الأحدوثة وجمع الأنصار على ازدهار فن المديح.

وقد تضافرت **بعض العوامل** على أن يطغى فن المديح على سـائر فنـون الشعر، ويوجه إليه الشعراء جل عنايتهم لتجويده، منها عروبة خلفـاء بنـي أميـة وفهمهم الجيد للشعر العربي وتذوقه والمكافأة عليه، ومنها حاجة الدولة أما الأحزاب المعارضة إلى اصطناع مجموعة من الشعراء لتقوم لها بمهمة الدعاية التي تؤيـد بها سياستها، وتفند آراء خصومها، وتؤكد حقها أمام شعراء الأحزاب المعارضة .

وكان الشعر في ذلك الوقت من أهم وسائل الدعاية الناجحة، ومنها شدة الحـساسية عند العرب فالعربي يتأثر تأثراً عميقاً بما يقال فيه من ذم أو مدح ويهتم كثيراً بآراء الناس فيه، وما أن كشف الشعراء هذا الضعف عند العرب حتـى اسـتغلوه أسـوأ استغلال، وكانوا يبتزون أموال السادة تحت تأثير الترغيب حينـاً والترهيـب حينـاً أخر[266] .

ولم يقتصر الشعراء على خلفاء بني أمية في دمشق بل شدوا الرحال إلـي ولاة بني أمية على 9أقاليم الدولة المترامية الأطراف، وكان هؤلاء الـولاة عربـاً

[266] انظر تاريخ الشعر العربي للكفراوي 262/1.

يتذوقون الشعر ويطربون له ويثيبون عليه بغير حساب. ومد هؤلاء الشعراء مدحهم لكل من يجيزهم منَ القادة والقضاء وأصحاب الشرطة ، والأشراف وسادة الأقوام.

مدح الخلفاء :

يحتل مدح خلفاء بني أمية قسماً كبيراً من موضوعات المديح في العصر الأموي ويتوقف المديح كثرة أو قلة على الفترة التي عاشها الخليفة طولاً أو قصراً وعما عرف عنه من عدل وحزم وسخاء، والفتوحات التي تمت في عهده، وما قدمه للدولة العربية من انتصارات في بلاد السند، وبلاد الروم أو بلاد الترك وإفريقية تلك الفتوحات التي أنطقت ألسنة الشعراء وجعلتها تلهج بالثناء والمديح.

ونرجح أيضاً أن شعراً قيل في مدح يزيد ولكنه ضاع بتأثير العوامل السياسية كما ضاع المديح الذي أنشده الشعراء في والده معاوية بن أبي سفيان.

ومعاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية امتد حكمه زهاء عشرين عاماً من سنة 41هـ - 60هـ كانت حافلة بالأحداث الجسام، وفد عليه خلال فترة حكمه شعراء أكرم مثواهم، وأحسن قراهم، وقضي حوائجهم، وممن وفد عليه من الشعراء: أبو الأسود الدؤلي، ومسكين الدارمي، واتصل به من الشعراء أيضاً الأخطل، و النعمان ابن بشير، ومعين بن أوس، وعبد الله بن همام السلولي، وأبو الورد العنبري، وكعب بن جعيل، وخيار بن أوفى النهدي.

وقد عرف عنه أنه كان يكرم وفادة الشعراء ويجزيهم كما أن فترته كانت فترة خصبة وطويلة إلى حد كبير.

ونرجح أن شعراً كثيراً قيل في مدح معاوية، ولكنه ضاع بفعل العوامل السياسية، وما وصل إلينا من شعر في مدح معاوية يعد قليلاً جداً قياساً إلى هذا العدد الكبير من الشعراء الذين اتصلوا به وقصدوا بلاطه. ومن الشعراء الذين مدحوا معاوية الأخطل، فقد صور كفاحه في وقعة صفين، واعترف بفضله في إخماد الفتنة، وبلائه في جمع الكلمة ، وفوه بخلاله التي أهلته للخلافة، واحتج له في محاربة على وأشياعه، وأقر بحقه في الأخذ بثأر عثمان.

وقد كانت هذه الأحداث مجالاً خصباً لشعراء الأحـزاب الأخـرى لهجـاء الدولة الأموية وخليفتها يزيد. أما مديح الشعراء ليزيد فنرجح أن شعراً كثيراً قيـل في مدحه ولكنه ضاع بتأثير العوامل السياسية كما ضاع المديح الذي أنشده الشعراء في والده معاوية ابن أبي سفيان ونجد الأخطل يمدح يزيد بأربع قصائد ومقطوعـة وبيتين مفردين .

وإذا مضينا قليلاً في استعراض خلفاء بني أمية فتجاوزنا عن معاوية الثـاني مـن 63هـ - 63هـ ومن بعده مروان بن الحكم 64هـ -65 هـ سنجد أول خليفة مـن خلفاء الدولة المروانية التف حوله الشعراء ومدحوه هو عبد الملك بن مروان.

وقد عرف بالفصاحة والبلاغة، وحفظ القرآن الكريم، وقراءة العلوم الدينيـة على مشيخة الحجازيين في المدينة. كما كان أديباً عالماً بنقد الشعر، وتمييز جيـده من رديئه. وله مع الشعراء والأدباء مجالس مشهورة تجد أخبارها في كتـب الأدب مثل الكامل للمبرد، والأمالي لأبي علي القالي وغيرهما من كتب الأدب.

وقد وصفه الشعبي بقوله: ((**ما جالست أحداً إلا وجدت لي الفضل عليـه إلا عبـد الملك بن مروان، فإني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني فيه، ولا شعراً إلا زادنـي فيـه**)).

وفي عهده توطدت دعائم الدولة، وانتشر الأمن ، وعم العدل. وقد أعجـب الشعراء كثيراً بعبد الملك بن مروان ومدحوه ووفدوا عليه ومن هـؤلاء الـشعراء أعشى ربيعة، وعبيد الله بن قيس الرقيات، وعمر بن أبي ربيعـة، والفـضل بـن العباس بن أبي لهب وهو أول هاشمي مدح أموياً، والنابغة الشيباني، وكثير عـزة، وأبو عمرو عامر بن شرحبيل الشعبي الحميري، والحكم بن عدل.

ومن **الشعراء الفحول** الذين اتصلوا بعبد الملك بن مروان وكانت لهم منزلة كبـرى في بلاطه الأخطل وجرير والفرزدق.

أما **الأخطل** فعلى الرغم من نصرانيته إلا أنه كان شاعر عبد الملك المفضل فكان يدخل على عبد الملك بغير إذن، ويجئ وعليه جبة خز وفي عنقه سلسلة ذهب يتدلى منها صليب من ذهب، وتنفض لحيته خمراً[267]

وتقريب عبد الملك للأخطل يعود بجانب إجادته الفنية في شعر المديح إلى موقف قبيلته تغلب المسيحية في صف بني أمية ومعاداتها لقبيلة قيس التي اتخذت موقف العداء من بني أمية.

وتقد قصيدته ((**خُفُّ القطين**)) من أروع ما قال الأخطل من مديح في عبد الملك بن مروان. وفيما يلي بعض أبيات المديح التي وردت في هذه القصيدة، يقول فيها :

إلى امرئٍ لا تُعدِّينا نوافلهُ أظفره الله فليهْنئ لهُ الظفَرُ [268]

الخائض الغمرة الميمون طائره خليفة الله يستسقى به المطر [269]

والهم بعد نَجِيِّ النفس يبعثه بالحزم ، والأصمعان القلب والحذَرُ [270]

أما **جرير** فعنده عدة قصائد من مدح عبد الملك بن مروان، ويستغرق المدح بصفة عامة معظم ديوانه، وأكثر مدائحه في الحجاج وبني أمية وقبيلة قيس المضرية ولم يترفع جرير عن مدح أي شخص أفاض عليه نوافله حتى أنه مدح الموالي .

---

[267] ديوان الأخطل ، 9 ، 112، 146، 231، 232، 266.

[268] لا تعدينا : لا تغيب عنا ، النوافل: العطايا ، فليهنئ له: فليسره، يقال هنأ الطعام لفلان يهنئه اذا صار هنيئا له وساغ. يصف الشاعر ممدوحه بالكرم ويدعو له بالظفر.

[269] الغمرة: الشدة ، وتعرب الخائض خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هو الميمون: المبارك وميمون الطائر: مبارك الطلعة ، يستسقى به المطر : اذا دعا الناس الله به أنزل المطر ليمنه وبركته.

[270] الهم: مصدر هم بالشئ هما اا اراده وعزم عليه وقصده ، النجى: من تساره وتناجيه: والسر ، الاصمع: الذكي المتوقد ، والأصمعان عند العرب: القلب الذكي ، والرأي الحازم. يريد اذا هم بأمر حدثته به نفسه فانه يمضي لتحقيقه مؤيدا بالحزم ، والقلب الحذر.

يقول جرير في مدح عبد الملك بن مروان :

تعــزَّت أمُّ حــزرة ثــم قالــت رأيــت الــواردين ذوي لقــاح[271]

تعلــل وهــي ســاعبة بَنِيهــا بأنفاس مــن الــشبم القــراح[272]

ســأمتاح البحــور فجنبينــي أداة اللوم وانتظري امتيــاحي[273]

ثقــي بــالله لــيس لــه شــريك ومــن عنــد الخليفــة بالنجــاح

أغثنــي يــا فــداك أبــي وأمــي بسيب منك، إنــك ذو ارتيــاح[274]

فــإني قــد رأيــت علــيَّ حقــاً زيــارتي الخليفــة وامتــداحي

سأشكر إن رددت علــي ريــشي وأنبت القــوادم فــي جنــاحي[275]

ألستم خير مــن ركــب المطايــا وأندى العــالمين بطــون راح[276]

وواضح من أبيات القصيدة إسراف جرير في الاســتجداء، وتــصوير مــا يعانيه من الفاقة والمسغبة، فهمه الحصول على نوال الخليفة. وقد أجاد الشاعر فــي رسم هذه الصورة المؤثرة لزوجته وهي تسكت بنيها الجائعين بجرعات من المــاء البارد كما أجاد في تشبيه الخليفة بالبحور. كما أجاد في تشبيه نفسه بالطــائر الــذي فقد ريشه وينتظر من الخليفة أن يعيد إليه ريشه، كما أجاد أبلغ إجادة، ووفــق كــل التوفيق حين صور رفعة منزلة الأمويين وجودهم في البيت الأخير.

وقد وقعت هذه الأبيات من عبد الملك موقعاً حسناً وأعجبته إعجاباً شــديداً وجعلته يعطيه مائة ناقة وثمانية من الرعاء كما بوأته أن يكون بعد إنشادها شــاعر بني أمية.

---

(271)أم حرزة: زوجة جرير، الواردين: القوم يردون الماء ، اللقاح: جمع لقوح: الإبل.

(272)ساغبة: جائعة ، أنفاس: جرعات. الشبم. البارد، صفة للمساء ، القراح: الخالص من الشوائب.

(273)امتاح الماء: اغترفه ، واستماح فلانا: استعطاه.

(274)السيب: العطاء ، الارتياح: الاهتزاز للعطاء.

(275)القوادم ، الريشات في مقدم جناح الطائر شبه جرير نفسه بالطائر الذي فقد ريشه.

(276) المطايا: جمع مطية ، كل ما يمتطي من الحيوان كالإبل والجياد، الراح جمع راحة: باطن الكف . والبيت كناية عن شجاعة الأمويين وجودهم وهو من خير ما قيل في المدح.

وثالث الشعراء الكبار الذين مدحوا عبد الملك بن مروان **الفرزدق** يقول له [277]:

إذا أتيت أمير المؤمنين فقل بالنصح والعلم قولاً غير مكذوب
مجاهدٍ لعداة الله محتسب جهادهم بضراب غير تذبيب
إذا الحروب بدت أنيابها خرجت ساقاً شهابٍ على الأعداء مصبوب
فالأرض لله ولاها خليفته وصاحب الله منها غير مغلوب

ومن الأبيات يتضح أن الفرزدق لم يصل في مدح عبد الملك إلى المستوى الرائع الذي وصل إليه الأخطل، أو حتى إلى المستوى الذي وصل إليه جرير من حيث إجادة المديح. فقد أجاد الفرزدق في فن الفخر أكثر من غيره من فنون الشعر الأخرى.

ويأتي بعد عبد الملك ابنه الوليد وقد ظل في الخلافة عشر سنين، وكان عهده عهد يسر وفتح ورخاء، فاتسعت في أيامه رقعة الدولة الأموية شرقاً وغرباً، كما خفت أعباء الحياة على جمهور المسلمين بعطفه على الفقراء والمعوزين، واهتمامه بأحوال رعيته وسهره على مصالحهم، وعمله على تخفيف آلام مرضاهم، وتخصيصه أعطيات للمجذومين لمنعهم من سؤال الناس، كما أعطى كل مقعد خادماً يهتم بأمره، وكل ضرير قائداً يسهر على راحته.

واتصل بالوليد كثير من الشعراء عصره وكانوا يتناشدون الأشعار في حضرته مثل الأخطل وجرير والفرزدق ، وممن وفد عليه الأحوص فأكرمه، ثم بلغه عنه شئ فنفاه إلى دهلك فبقى فيها حتى أطلقه يزيد بن عبد الملك. ومن الذين وفدوا على الوليد النابغة الشيباني . وفي ديوان النابغة[278] قصيدة يمدح فيها الوليد بن عبد الملك ويشير إلى فتح "طرندة" على يد مسلمة بن عبد الملك.

---

[277] ديوان الفرزدق 24/1.

[278] ديوان النابغة الشيباني من 51 -54.

ومن شعر جرير في مدح الوليد [279]:

إن الوليد هو الإمـــام المـــصطفى بالنصر لُـــزَّ لِـــواؤه والمَغْـــنم[280]

ورث الأعنـــة والأســـنة وانتمـــى في بيت مركمـــة رفيـــع الـــسُّلَّمِ

ورأيت أبنيـــة خـــوَتْ وتهـــدَّمت وبناءُ عرشِكَ خالدٌ لـــم يهْـــدَمِ[281]

نزل النجاة وحـــل حيـــث تمنعـــت أعياصـــه فلكـــل خيـــر ينتمـــي

عـــرف البريـــة أن كـــل خليفـــة من فرع عيصك كالفنيق المقرم[282]

خزم الأنوف وقـــاد كـــلَّ عمـــارة صعب القياد مخـــاطر لـــم يخْـــزَم

وبنو الوليد مـــن الوليـــد بمنـــزل كالبدر حـــفّ بواضـــحات الأنجـــمِ

فجرير يمدح الوليد بأنه الإمام المختار من بين خلق الله، وقد شد الله لـــواءه بالنصر والغنم، لا عجب فقد ورث مقومات الحرب من خيل وسلاح ونشأ في بيـــت كريم رفيع العماد، ويشير الشاعر إلى هدم الوليد لكنيسة النصارى التي كانت تؤذي أصوات نواقيسها المصلين في المسجد الجامع. ويصفه بعلو المنزلة وانتمائـــه إلـــى الخير، وقد عرف الناس جميعا إن الخلفاء من أسرتك عرفوا بالفحولة وكرم النجار. ولشجاعة الخليفة أخضع القبائل وانقادت له الأقوام أما هو فصعب القياد، لـــم يقبـــل الذل من إنسان. ثم يختم الشاعر بقوله إن أبناء الوليد وهم يحيطون بـــأبيهم كالبـــدر وقد أحاطت به النجوم اللامعة.

ومن خلفاء الدولة المروانية سليمان عبد الملك بن الخليفة عبد الملك بـــن مـــروان وأخو سابقة الوليد بن عبد الملك. ولم تطل فترة حكمه أكثر مـــن عـــامين 96- 99 هـــ اتصل به ومدحه خلال فترة حكمه أعشى ربيعة والخطيم [283]وجرير والفرزدق

---

[279] ديوان جرير (دار المعارف) 71,70/1.

[280] لذ: شد والصق.

[281] يقصد بالأبنية التي تهدمت: هدم الوليد لكنيسة النصارى التي كانت تقرع نواقيسها آذان المصلين في المسجد الجامع.

[282] النجاة: العلو ، الأعياص ، بنو أمية بن عبد شمس.

[283] شعراء أمويون 266/1.

وعبد الله بن همام السلولي، ويزيد بن الحكم الذي أجرى له ما يعادل عمالة فارس [284]، وموسى شهوات الذي كان من شعرائه المقربين[285]

ومن أجمل ما قيل في مديح سليمان بن عبد الملك قول الفرزدق[286]

فما أصبحت في الأرض نفسٌ فقيرة ولا غيرها إلا "سليمانُ" مَالُها

فأصبحتَ خَير الناس والمهتدى به إلى القصد والوثقى الشديد حبالها

يداك يد الأسرى التي أطلقتهم وأخرى هي الغيث المِغيثُ نوالهُا

فهو يصفه بالكرم، وهداية الناس إلى الطريق المستقيم، وإحدى يديه تمتد بالعفو عن الأسرى فتطلقهم، أما الأخرى فتشبه الغيث المنهمر ينتظر الناس نوالها. وعلى يديه تفك القيود، وتنفرج العقد، وتقضى حوائج الناس.

ويأتي بعد سليمان بن عبد الملك الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز من 99- 101 هـ .

ويعد عمر بن عبد العزيز من أحسن الخلفاء بني أمية سيرة، وأتفاهم سريرة وأنزههم يداً، وأعفهم لساناً، حتى لقد شبه المسلمون خلافته بخلافة جده عمر ابن الخطاب في عدله وزهده، وقد نشأ عمر في المدينة تحت رعاية عمه عبد الملك ابن مروان فتفقه في الدين وروى الحديث وعكف على دراسة الأدب ونظم الشعر، وبلغ من علو كعبه واستبحاره في العلم أن قيل " كان العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة"، وزوجه عمه من ابنته فاطمة. ثم نجد أن الوليد يوليه المدينة المنورة فيظل بها سبع سنين كان فيها مثالاً في الورع والتقوى حتى أنه روى عن أنس بن ملك قوله " ما صليت وراء إمام بعد رسول الله أشبه صلاة برسول الله من هذا الفتى، يعني عمر بن عبد العزيز، وهو أمير على المدينة".

---

[284] الأغاني 28/12 وما بعدها.

[285] المصدر السابق 351/3 – 365 ، والشعر والشعراء 577.

[286] ديوان الفرزدق 623/2.

ولم يحظ خليفة بمدح الشعراء، واحترامهم وتقديرهم مثلما حظي عمر، على الرغم من أنه لم يكن يجود عليهم بالعطايا والجوائز ولم يوسع لهم في مجلسه، ولم يكن لهم نصيب في بلاطه مثل من سبقوه من الخلفاء، فقد مدحوه بالعدل والوفاء والتمسك بالدين والزهد والتقشف والتمسك بالكتاب والسنة والتواضع والصلاح. وأعجب الشعراء بتصرفاته خاصة في اختيار الولاة بين الأقاليم وترك لعن علي عليه السلام على المنابر[287] وكثير من شعراء العصر الأموي مدحوا عمر بن العزيز وتغنوا بأفضاله وصفاته منهم عتبة بن شماس [288]وعويف القوافي [289] والأحوص [290]

ودكين بن سعيد الدارمي[291] وكثير عزة [292]، وجرير [293]، ومحارب بن دثار[294]، ومحمد بن خالد بن الوليد بن عقبة[295]، وعون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود.

ويروى أن مجموعة كبيرة من الشعراء قدمت على عمر بن العزيز ليقدموا له التهاني ويتقربوا له بالمديح بعد أن ولي الخلافة منهم عدي بن أركاه، وعمر بن أبي ربيعة ، وجميل بن معمر العذرى، وكثير عزة، والفرزدق، والأخطل، وجرير فلم يسمح لأحد منهم بالدخول سوى جرير فلما أذن له دخل وهو يقول:

---

[287] مروج الذهب 167/2.

[288] الكامل 271/2، والحيوان 521/3.

[289] الكامل 278/2، والأغاني 155/19.

[290]شعر الاحوص 183.

[291]الشعر والشعراء 116/2، وتهذيب ابن عساكر 248/5، ومعجم الأدباء 118/11

[292] ديوان كثير 333 ، 168 ، 338.

[293] ديوان جرير (دار المعارف) 413، وديوانه (الصاوي) 415 ، وشرح شواهد المغنى 196/1، وابن كثير 263/9 ، وشرح العيون 242.

[294] أخبار الفضاء 33/3.

[295] معجم الشعراء 354، والمحمدون من الشعراء 297، والمنازل والديار 274/2.

إن الذي بعث النبي محمـــدا جعل الخلافة فـــي إمـــام عـــادل

فلما مثل بين يديه قال له الخليفة: اتق الله يا جرير ، ولا تقل إلا حقاً فأنـــشد جرير يقول قصيدته التي منها:

كم باليمامة من شعثاء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والنظـــر

فقال: يا جرير والله لقد وليت هذا الأمر ولم أملك إلا ثلثمائة درهم، فمائـــة أخذها عبد الله، ومائة أخذتها أم عبد الله، يا غلام، أعطه المائة الباقية. فقال: والله يا أمير المؤمنين، أنها لا حب مال كسبته إلى، ثم خرج، فقالوا له: ما وراك قال: مـــا يسوءكم خرجت من عند أمير المؤمنين، يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء، وإني عنـــه لراضٍ، ثم أنشأ يقول:

رأيت رقي الشيطان لا يـــستفزه وقد كان شيطاني من الجن راقيا

لقد كان عمر بن عبد العزيز مثالاً حقاً للحاكم الأموي التقي فأكثر الـــشعراء من رسم إطار التقوى الذي يطيف به ويحكم على شاكلته.

ومن الشعراء الذين تغنوا في شعرهم كثيراً بمدح عمر بن عبد العزيز كثير عزة الذي صور زهده، وإعراضه عن الدنيا، وفتنتها ومتاعها الزائل الذي يتهالـــك عليه الناس يقول له:

وليـــــت فلـــــم تـــــشتمْ عَلِيَّـــــا ولم تخف بريّاً ولم تقْبلْ إشارة مُجْرم
وأظهرت فور الحـــقِّ فاشـــتدَّ نُـــوره على كل لبس بـــارق الحـــق مظلـــم
وصدَّقت بالفعل المقـــال مـــع الـــذي أتيت فأمـــسى راضـــياً كـــل مـــسلم
تكلمـــت بـــالحق المبـــين وإنمـــا تبـــين آيـــاتُ الهُـــدى بـــالتكلمّ
تركت الذي يفنـــى وإن كـــان موفقـــا وآثـــرت مـــا يبقـــى بـــرأي مـــصمم
ولو يـــستطيع المـــسلمون لقـــسَّموا لك الشطر من أعمـــارهم غيـــر نـــدم
فعـــشت بـــه مـــا حـــج لله راكـــبٌ مُغـــذٌ مُطيـــفٌ بالمقـــام وزمـــزم
فـــأرْبِحْ بهـــا مـــن صـــفقةٍ لُمبـــايعٍ وأعظِمْ بها أعظـــم بهـــا ثـــم أعظـــم

وواضح من الأبيات عظم إعجاب كثير بعمر بن عبد العزيز وعنايته باستخدام الصفات الدينية في المديح فهو يمدحه معدداً مآثره فهو يسب عليّاً على منابر بني أمية كما كان يفعل أسلافه من الخلفاء، وأمن الناس في عهده وأمسوا راضين مطمئنين. وانتشر الحق وعم نوره ربوع الدولة، ويمدحه لأنه يتمسك بما عند الله ويدع الدنيا الفانية بزينتها وبهجتها، ويختم بهذا التخيل الجميل. فلو يستطيع المسلمون لشطروا حياتهم شطرين ووهبوك شطراً من حياتهم لينسأ الله في أجلك فتعيش عمراً مديداً تتمتع فيه بدعاء حجاج بيت الله فهنيئاً لك دعاء الطائفين والقائمين والشاربين من ماء زمزم.

أما هشام بن عبد الملك فقد تولى الخلافة بعد أخيه 105هـ 125هـ . وطالت فترة حكمه إذ امتدت إلى تسع عشرة سنة وأشهراً أنفقها في إصلاح الدولة بتعمير الأرض وتقوية الثغور وحفر القنوات والبرك في طريق مكة.

وكما ساهم الخلفاء في توسيع حركة المديح في العصر الأموي ساهم الولاة البارزون والقضاة وقادة الشرطة أيضاً بما بذلوه من هبات وعطايا وتشجيع للشعراء ليلتفوا حولهم فمدحهم الشعراء ونوهوا بجهودهم في تثبيت دعائم ملك بني أمية وحمايته من أعدائه، كما نوهوا بحسن سياستهم في الرعية وعدلهم وكرمهم الفياض وتأمينهم للطرق من اللصوص.

ولم يكن القصر الأموي في دمشق هو القصر الوحيد الذي التف حوله شعراء المديح في هذه الدولة المترامية الأطراف، وإنما وجد القصر الأموي في كل إقليم من أقاليمها فمثلاً في قصور الأمراء والولاة والقضاة وقادة الشرطة، وقد كانوا جميعاً قوماً يتذوقون الشعر ويطربون له، ويغدقون على أصحابه الأموال بغير حساب.

ولكن هذه القصور – بطبيعة الحال – لم تكن تعدل في نظر الشعراء القصر الأكبر الذي تلمع أضواؤه أمامهم في دمشق، فظل هذا القصر الأمل البعيد للذين يراود أحلام كل شاعر في هذا العصر.

وتعد العراق من أهم البيئات التي قصد ولاتها شعراء المديح في العصر الأموي، وأول وال من ولاتها كان زياد بن أبيه مدحه حارثة بن بدر الفدائي التميمي، ومسكين الدارمي، وعندما ولّى عبد الله بن الزبير أخاه مصعبا مدحه عبيد الله بن قيس الرقيات، وأعشى همدان، ودكين الفقيمي، ويولى عبد الله بن مروان أخاه بشرا فيمدحه جرير، والأخطل، وكثير، وأعشى بني شيبان، ونصيب، والاقيشر الأسدي، وأيمن بن خريم[296] وغيرهم.

ويأتي بعد بشر الحجاج بن يوسف الثقفي وتمتد فترة ولايته إلى حوالي عشرين عاماً يمدحه خلالها كثر من الشعراء مثل جرير، والفرزدق، وحميد الأرقط، وليلى الأخيلية ، والعديل بن الفرخ العجلي ، وحمد بن عبد الله النميري الثقفي، ولجرير قصيدة طويلة يمدح فيها الحجاج منها:

دعا الحجَّاجُ مثْلَ دُعاءِ نوحٍ فأسمع ذا المعارجِ فاستجابا[297]

ولو لم يرض ربُّك لم ينزل مع النصر الملائكة الغضابا

إذا سجر الخليفة نار حربٍ رأى الحجاج أثقبها شهابا[298]

ترى نصر الإمام عليك حقاً إذا لبَسُوا بدينهمُ ارتيابا[299]

تشُدُّ فلا تكذِب يومَ زحفٍ إذا الغَمرات زَعزعَتِ العقابا[300]

وأشمط قد تردَدَ في عماهُ جعلت لشيبِ لحيتِه خضابا[301]

إذا علقت حبالكَ حبل عاصٍ رأى العاصي من الأجل اقتراباً

جعلتَ لكلِّ مُحْترسٍ مخوفٍ صفوفاً دارعين بهِ وغار[302]

---

[296] الموشح 347.

[297] دعاء نوح: "رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا" .ذو المعارج . من صفات الله تعالى: "من الله ذي المعارج" والمعارج جمع معرج ومعراج: مكان العروج أو إليه ويراد بها السموات.

[298] سعر: أوقد ، ثقبت النار: اتقدت ، الشهاب: الكوكب ، واصله لما يرى في الليل منقضا كأنه الكوكب.

[299] الإمام: أمير المؤمنين عبد الملك، الملبس: الاتصال والاختلاط والاشتباه.

[300] تشد: تحمل على الأعداء، الغمرات: جمع غمرة ، العقاب: الراية.

[301] الأشمط: الذي يخالط سواد رأسه بياض. خضابا: صار الدم خضاباً للحيته.

فهو يمدح ويصفه بالتقوى واستجابة الدعاء من الله ونزول الملائكة من السماء تقاتل في صفوفه كما يصفه بالحزم والعزم وقوة الشكيمة والدهاء والتشدد في القيام بأحكام الشريعة وحماية البلاد، ونشر الأمن ومده إلى مختلف الربوع.

ونلاحظ أن جريراً لم يصفه الحجاج في هذه القصيدة بالكرم مع أنه يحرص في أكثر أماديحه على وصف ممدوحه بالجود لهز أريحيته.

ومن ولاة العراق لعهد سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب وقد ضم له سليمان بعد ذلك خراسان وبذلك أصبح حاكماً للشرق ومن مداح نخيله، وأعشى تغلب، وكعب الأشقري، وزياد الأعجم، وحمزة بن بيض، والمغيرة بن حبناء التميمي، ونهار بن توسعة ، والفرزدق ، وحاجب الفيل، وثابت قطنة، والعديل بن الفرخ العجلي، ومن الشعراء الذين مدحوه حمزة بن بيض، والكميت.

ومنهم مالك بن المنذر بن الجارود صاحب شرطة البصرة لخالد القسري: ومن الذين مدحوه الفرزدق. ومثل بلال ابن أبي بردة أبي موسى الأشعري ولاه خالد القسري أمارة البصرة وقضاءها وهو ممدوح ذي الذمة ، والفرزدق، وحمزة بن بيض يقول له ذو الرمة مادحاً:

أتتنا من نداك مُبشِّراتٌ ونأملُ سَيب غيْثِك يا (بلالُ)

دعا لكم الرسولُ فلم تضلوا هدى ما بعد دعوته ضلالُ

بنى لكم المكارمَ أوَّلوكم فقد خلدتْ كما خلد الجبالُ

فذو الرمة يمدحه بالكرم وعراقة الأصل فجده الصحابي أبو موسى الأشعري، ويسجل دعوة الرسول لهم ويقول له إن دعوة الرسول ليس بعدها ضلال ، وقد بنى لكم أسلافكم المكارم ، تلك المكارم التي خلدت على مر الأيام كما تخلد الجبال الراسيات.

---

(302) المحترس: المكان الذي يحترس منه ويخاف ، دارعين: لابسين الدروع أو مقيمين في الليل ،. الغاب: جمع غابة يريد أنه نشر الأمن في جميع الربوع.

ومن ولاة المدينة المنورة سعيد بن العاص من قبل معاوية بن أبي سفيان وكان كريماً وقد مدحه الحطيئة والفرزدق وسعيد بن سلمان الذي تولى قضاءها، ومدحه موسى شهوات بقوله له: [303]

من سرَّهُ الحكمُ صِرْفاً لا مزاج له من القُضاةِ وعدْلُ غيرُ مغمُوزِ[304]

فليأت دار بني زيد فإن بها أمضى على الحكم من سيف بن جرموز[305]

فهو يصفه بالعدل، والحكم الخالص، والرأي القاطع الذي يشبه في حدته، وصرامته سيف ابن جرموز الذي قتل به الزبير بن العوام.

المديح السياسي:

يعد المديح السياسي مظهراً من مظاهر التطور الذي طرأ على قصيدة المديح العربية في العصر الأموي، وقد ظهر هذا المديح بظهور الأحزاب السياسية التي بدأت في الظهور بعد أن ولي الخلافة عثمان بن عفان الذي رأى بنو أمية في خلافته ظفراً سياسياً على بني هاشم ، وعلى سائر القرشيين . وكانت هناك طائفة أخرى من المسلمين ترى أن الخلافة يجب أن تكون في آل علي ، وكانت هذه الطائفة النواة الأولى لحزب الشيعة. وما لبثت سياسة عثمان القائمة على تمكين بني أمية من أموال المسلمين أن أكثرت أعداءه ، والناقمين عليه ، وانتهى الأمر بمقتله وتولية علي الخلافة.

ولكن بعض القرشيين كانوا يطمعون في أن تكون الخلافة لهم بعد عثمان فاستغلوا مقتله ليطالبوا بالخلافة تحت ستار المطالبة بدمه ، وبدأ النزاع بين علي وبين أصحاب الحل، ثم بين علي وبين معاوية وانقسم المسلمون حزبين أحدهما يناصر علياً ويمدحه ، والآخر يناصر معاوية ويثني عليه ، وعلى أثر وقعة صفين

---

[303] أخبار القضاة 168/1.

[304] المصرف: الخالف الذي لا يخالطه شئ.

[305] ابن جرموز: هو عمرو بن جرموز ، قاتل الزبير بن العوام.

وجد حزب الخوارج ، وبدأ التطاحن بين هذه الأحزاب حول الخلافة والحكم وانتهى الأمر بانتصار الأمويين ، واستقرار الحكم في أيديهم يرثه الأبناء عن الآباء.

ولكن الأمر لم يصف لهم مدة حكمهم فإن عبد الله بن الزبير كان يرجو أن تكون له الخلافة بعد معاوية فأبى مبايعة يزيد وقاتل الأمويين مدة عشر سنوات، وكاد الأمر يتم له لولا سوء سياسته، وانتهى الأمر بمقتله في زمن عبد الملك بن مروان. بيد أن حزب الخوراج ظل يناضل الأمويين ويزعجهم طوال مدة حكمهم على الرغم من انقسامه على نفسه، وعلى الرغم من سياسة الإبادة التي اتبعها الأمويون حياله.

أما حزب الشيعة فكان حزباً مستضعفاً نصره للناس بقلوبهم أكثر مما نصروه بسيوفهم ، ولم يتوان الأمويون عن البطش به وبزعمائه بلا هوادة.

وهذه الأحزاب الملوئة لبني أمية لم تبق متحدة الكلمة بل سرعان ما انشقت على نفسها ، وافترقت فرقاً كثيرة.

وهذه الأحزاب التي كانت تصطرع من أجل الخلافة لم يكن صراعها حربيًّا فحسب ، وإنما كان لسانياً أيضاً، فكان لكل حزب شعراءه وخطباؤه المدافعون عنه، الناطقون بلسانه، وكان هؤلاء الشعراء بمثابة الصحف في أيامنا هذه، وكان لهم كبير الأثر في الدعاية للحزب ، ولذلك حرص كل حزب على أن يتكثر من الشعراء والخطباء ليقوى بهم جانبه. وبعد أن كانت هذه الأحزاب سياسة خالصة لا غاية لهم إلا الظفر بالحكم ، أصبحت لبعضها أصول دينية تتصل بصفات الحاكم وارتكاب كبائر الذنوب ، والقتال ونحو ذلك. وكان الشعر المقول على ألسنة شعراء هذه الأحزاب ذا صبغة سياسية تشوبها صبغة دينية ، ولا سيما شعراء الخوارج والشيعة.

وكان الحزب الأموي أقوى هذه الأحزاب وأقدرها على اجتذاب الشعراء واصطناعهم بالأموال والهبات ، فكان الشعراء في العصر الأموي في صف بني أمية منهم: الفرزدق والأخطل وجرير، ومسكين الدارمي، وأبو العباس الأعمى،

وعبد الله بن خارجة الشيباني، والنابغة الشيباني ، وعدي بن الرقاع العاملي، وأبو صخر الهذلي ، وأعشى ربيعة ، وعبد الله بن الزبير الأسدي، ونصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان وغيرهم.

وكانت المنفعة متبادلة بين هؤلاء الشعراء وبين الدولة الأموية فالدولة الأموية كانت في حاجة إلى ألسنة هؤلاء الشعراء لتثبيت دعائمها والإشادة بخلفائها والاحتجاج لخلافتهم ،ومناهضة أعدائهم ، والوقوف إلى جانب عمالهم وقوادهم في كفاحهم ضد أعداء دولتهم . والشعراء كانوا في حاجة إلى عطاء الخلفاء وجوائزهم. وكان نصيب بن رباح ممن يكيلون الثناء لعبد العزيز بن مروان فيجزل له العطاء ، فلما قيل له: هرم شعرك. قال: "لا والله ما هرم ، ولكن العطاء هرم" وهو القائل لهشام بن عبد الملك حين أعجب بمدحه ، وقال له. يا أسود بلغت غاية المدح فسلني. فقال: يدك بالعطية أجود وأبسط من لساني ، فأجزل له العطية[306].

وجل هؤلاء الشعراء كانوا يناصرون الأمويين ويمدحونهم رغبة في جوائزهم لا حبالهم. ولهذا لا نستغرب أن تنطوي نفوس بعضهم على بعض بني أمية أو على التشيع للأحزاب الأخرى كالذي يروى عن الفرزدق من أنه كان متشيعاً لعلي.

ويرجع الفضل في نهضة شعر المديح السياسي إلى هؤلاء الشعراء الذين انضموا إلى الحزب الأموي ، وقد بلغوا من الكثرة حداً يصعب معه الإلمام بشعرهم ، أو محاولة إحصاء عددهم . وليس من قبيل المبالغة للقول بأن قصيدة المديح السياسي احتلت في عصر بني أمية منزلة كبيرة لم تحتلها من قبل.

ولعل الأخطل يعد أبرز شاعر تخصص في قصيدة المديح السياسي لحزب بني أمية ، فقد انقطع إليهم و واصطفاهم المدائح الغر فقربوه وأغدقوا عليه العطايا

---

[306] الأغاني 141/1.

والأصفاد حتى جعلوه شاعرهم الخاص ، وفضلوه على جميع الشعراء على الرغم من نصرانيته ، ونحن نعلم أن سياسة بني أمية كانت عربية أكثر منها إسلامية ، فلا عجب أن يلقى لديها شاعر نصراني هذه المنزلة الرفيعة ، ولا سيما أن مدائحه فيهم كانت تهئ لها دعاوة سياسية البعيدة المندى فمدح الأخطل لبنى أمية نموذج لشعر المدح السياسي الرفيع يقول لبني أمية:

وقد علمت أمية أن ضِغْني إليها والعُداة لها هرير[307]

وأني ما حييت على هواها وأني بالمغيب لها نصورُ

فميوله مع بني أمية وذلك يحفظ قلوب الأعداء عليه ، وقد شبه أعداء بني أمية بالكلاب النابحة. وسوف يستمر في حبه لبني أمية ومناصرتها.

ولا يقل تشيع جرير لبني أمية عن تشيع الأخطل ، بل يقف على قدم المساواة مع الأخطل شاعر القصر الأموي بل أن جرير في بعض مدائحه يتفوق على الأخطل الذي وقفت نصرانيته حائلاً دون استغلاله للعناصر الإسلامية الجديدة على نحو ما كان جرير يستغلها في مدائحه.

يقول في مدح بني أمية:

إلى المهدي نفزع إن فزعنا ونستسقي بغرتهِ الغماما

وَحَبْلُ اللهِ تعْصِمكم قُواهُ فلا نخْشىلعروته انفصاما

رضينا بالخليفة حين كنا لهُ تبَعاً وكان لنا إمَامَا

تباشرت البلاد لكم بحكمْ أقام لنا الفرائض واستقاما

فهشام هو المهدي المنتظر الذي يفزع إليه الناس. وبني أمية يتمسكون بجبل الله ومن تمسك بحبل الله لا يخشى انتكاثاً والناس جميعاً راضون عن خلفاء بني أمية متباشرون بحكمهم.

---

[307] ضغني: ميلي . والعداة لها هرير: الواو حالية ، والهرير: النباح شبه أعداء بنى أمية بالكلاب النابحة.

ففي عهدهم استقامت الأمور وأقيمت شعائر الله في الأرض، ومن خلال مدح جرير لعبد الملك بن مروان يتوجه للمروانيين بقوله:

يا آل مروان إن الله فضَّلكم فضلاً عظيماً على من دينهُ البدَعُ

إن البريَّةَ ترضى ما رضيتَ لها إن سرتَ ساروا وإن قلت أربعوا ربعوا

فمديحه هنا للمروانيين بأن الله فضلهم فضلاً عظيماً لأنهم حاربوا البدع، ونشروا الأمن والطمأنينة وأخمدوا الثورات. والناس جميعاً متعلقون بالخليفة يرضون إن رضي عنهم ويسيرون إن سار. وإن أمر بالسرعة أسرعوا ، فأمره مطاع وأحكامه مجابة.

ويلاحظ أن جريراً في مديحه السياسي للأمويين يلح على فكرتين فكرة الجبرية، وفكرة المهدي المنتظر. أما فكرة الجبرية فتقوم على أساس خلفاء الله ورسوله في الأرض ، اختارهم الله واصطفاهم لولاية المسلمين ، وليس بعد اختيار الله اختيار ، ولا فوق إرادته إرادة فخلافتهم قدر مقدور قدره الله على الأمة الإسلامية ، وعلى الأمة أن تطيعهم وترضى بحكمهم. وكان الأمويون يروجون هذه الفكرة بين الناس حتى ينصرفوا عن التفكير في معارضتهم والخروج عليهم.

أما فكرة المهدي المنتظر فيستمدها من الشيعة وهو كثيراً ما يصف خلفاء بني أمية بها وقد رددها كثيراً في مدحه لعبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، وهشام بن عبد الملك آخر الخلفاء الأمويين الذين مدحهم.

ويأتي حزب الخوارج بعد حزب بني أمية ولم يكن شعراؤه من المتكسبين المرتزقة، وإنما كانوا من المؤمنين بمذهب الخوارج المدافعين عنه بلسانهم وقلوبهم وربما بحسامهم أيضاً، فكانوا أصدق عاطفة من شعراء الأمويين ، ومنهم من كان شاعراً وزعيماً معاً، واشتهر منهم قطري بن الفجاءة ، وعمران بن حطان الذهلي، والطرماح بن حكيم، وعمرو بن الحصين ، وأبو بلال مرادس بن أدية، وعيسى ابن

فاتك الخطى، وكعب بن عميرة، والرهين بن سهم المرادي، ومنير بن صخر ابن يعمر الراسي. وعطية بن سمرة الليثي .... وغيرهم كثير.

ومن الملاحظ أن شاعر الخوارج كان منصرفاً للحرب ، لذلك أكثر في شعره من الحماسة والفخر والرثاء، وكان شاعر الخوارج يمدح باعتدال، بل أن شاعرهم عمران ابن حطان ثار على الشعراء المتملقين الذين يكذبون من أجل الحصول على المال إذ يقول في من يمدح لينال العطاء:

أيها المادح العباد ليعطى إن لله ما بأيدي العباد

فأسأل الله ما طلبت إليهم وارج فضل المقسم العواد

لا تقل في الجواد ما ليس فيه وتسمي البخيل باسم الجواد

ويتردد المديح السياسي في شعر الخوارج فشاعر الخوارج حريص على أن يصف أصحابه بالشجاعة والتمسك بالدين ونحول الجسم من العبادة والجهاد يقول عمرو القنا بن عميرة العنبري التميمي عن أصحابه[308]:

معى كل أواهٍ برى الصوم جسمَهُ ففي الجسم منه نهكة وشحوب[309]

فأصحابه أهل عبادة وتبتل برى الصوم أجسامهم فصارت هزيلة منهكة شاحبة.

ويصف عمرو القنا أصحابه فيقول[310]:

القائلين إذا هم بالقنا خرجوا من غمرة الموتِ في حوماتها عودوا

عادوا فعادوا كراماً لا تنابلةً عند اللقاء ولا رعشٌ رعاديد[311]

لا قومَ أكرمُ منهم يوم قال لهم مُحرضُ الموت: عن أحسابكم ذودوا[312]

---

[308] معجم الشعراء228.

[309] نهكة: أثر المرض من هزال ونحوه.

[310] معجم الشعراء 228 ، وشرح ديوان الحماسة المتبريزي 108/2.

[311] تنابلة: جمع تنبال وهو الرجل القصير . الرعش: الجبان وكذلك الرعديد.

[312] محرض الموت: المحرض على الحرب.

فهو يمدح أصحابه بأنهم لا يكادون يخرجون برماحهم من موقعة حتى يعودوا إلى حومة الوغى مرة أخرى، ولكنهم يعودون إلى الحرب شجعاناً، كراماً يثبتون عند اللقاء، يذودون عن أحسابهم وحرماتهم.

ويقول عمران بن حطان المجوسي أحد رؤوس الخوارج من القعدية في وقعة للخوارج عن ميجاس (موضع بالأهواز) مادحاً أصحابه[313]

وإخوة لهم طابت نفوسُهمُ بالموتِ عند التفافِ الثامن بالناس

والله ما تركوا من منسع لهدى ولا رضوا بالهويا يوم ميجاس

أتعجزون وترجون اللحاقَ بهم أنَّى يكونُ ذوو عَجزٍ كأكياس

فهو يصفهم بالشجاعة لأنهم يقدمون نفوسهم إلى الموت عندما يشتد أوار المعركة ، كما يصفهم بالهداية ورفض الذل، ولا يرى في الناس من يكون نداً لهم.

وشعراء الخوارج في كل موقف من المواقف يعلنون عن سياستهم وموقفهم من أي خطأ يحدث في الأمة حتى ولو صدر هذا الخطأ عن الخليفة يقول عمرو بن ذكينة الربعي لعمر بن عبد العزيز لما استخلف[314]

إنا شرينا بدين الله أنفسنا نبغي بذاك إليه أعظم الجاه

فنهى الولاة بحد السيف عن سرف كفى بذاك لهم من زاجرناه

فهم قد باعوا أنفسهم واشتروا بها دين الله يبغون بذلك ثواب الآخرة، وهم يقفون في وجه الخلفاء – إن حادوا- بسيوفهم. وحسبهم ذلك من جهاد في سبيل الله.

ركز شعراء الخوارج في مدحهم لأصحابهم على فكرتين الشجاعة والبسالة في حومات الوغى ، والخشوع، والتقوى يقول أحد الخوارج[315]:

---

[313] معجم البلدان (ميجاس) والتاج (وجس) ، وقناطر الخيرات 144/2.

[314] معجم الشعراء 223 ، وسيرة عمر لابن الجوزي 229.

[315] شرح نهج البلاغة 366/1.

وهو الأسود لــدى العــرين بــسالةً ومن الخــشوع كــأنهم أحبــارُ

يمضون قد كسروا الجفون إلى الوغي مبتسمين وفــيهم استبــشار[316]

فكأنمـــــا أعـــــداؤهم أحبـــــابهم فرحاً إذا خطــر ألفنــا الخطــار

يـــردون حَومْـــاتِ الحمـــام وأنهـــا تـــالله عنـــد نفوســـهم لـــصغار

فأصحابه كأنهم الأسود بسالة، وكأنهم الأحبار خشوعا وهم يمــضون إلــى الحرب لطلب الموت مستبشرين، ولا يأملون العودة سالمين، وما أسهل علــيهم أن يردوا حومات الموت.

[316] الجفون: الأغماد ، وهم يكسرونها كأنهم يطلبون الموت ، ولا يأملون العودة سالمين.

وفي الوقت الذي وجدنا فيه شعراء الخوارج يقفون شعرهم في الغالب على الانتصار لمذهبهم نجد شعراء الشيعة لا يقفون شعرهم كله على مناصرة مذهبهم بل كانوا يعنون بفنون الشعر الأخرى أيضاً ، وكان يحملهم على مناصرة الحزب الشيعي اعتقادهم بحقه في الخلافة إلا أنهم ما كانوا كشعراء الخوارج يدافعون عنه دفاعاً حربياً، وكثيرا ما كانوا يأخذون بالتقية، ويمدحون خلفاء بني أمية خوفاً أو تكسباً ولذلك لا نجد في شعرهم تلك القوة التي نجدها في شعر الخوارج، وأشهر شعرائهم الكميت بن زيد الأسدي الذي نظم قصائد عديدة في مدح بني هاشم والاحتجاج لهم أسماهم الهاشميات، وقد اضطهده الأمويون لمدحه بني هاشم، وهددوه بالقتل مما اضطره إلى ممالأتهم ومدحهم.

ومن الشعراء الذين عرفوا بتشيعهم كُثيِّر عزة، وأيمن بن خريم الأسدي، والسيد الحميري، وهم قلة إذا قيسوا بكثرة شعراء الحزب الأموي، وربما كانت هذه القلة ترجع إلى أن حظ أهل البيت من الثروة والسلطان كان محدوداً في هذا العصر كما أن الشعراء الذين يمدحون آل البيت كانوا يتعرضون لسخط أصحاب السلطان ونقمتهم، وما من شك في أن الناس إلى نعيم الدنيا وزينتها أميل، وعلى إيثار السلامة أحرص.

وعلى الرغم من ذلك فلا نعدم وجود بعض القصائد في مدح أهل البيت أو رثاء موتاهم، أو هجاء أعدائهم ، ومن الطبيعي أن يكثر أمثال هؤلاء الشعراء لكثرة المحبين لآل الرسول$.

يقول أبو وجزة السعدي في مدح عبد الله بن الحسن و إخواته في المدينة المنورة[317]:

فكرم الله ذاك البيت تكرمَةً ... تبقى وتخلدُ فيه آخر الأبد
هم السدى والندى ما في قناتهمُ ... إذا تعوجت العيدَان من أود[318]
مُهذَّبون ، هجانٌ أمهاتُهمُ ... إذا نُسِبْنَ زُلال البارقِ البرد[319]
بين (الفواطمِ) ، ماذا ثمَّ من كرم؟ ... إلى (العواتِكِ) مجدٌ غير مُنتقدِ[320]
ما ينتهي المجدُ إلا في (بني حَسنِ) ... وما لهُم دُونه من دَارِ مُلتحد

فالشاعر يدعو لبيت النبي $ بالتكريم، فأهله أهل معروف وندى، قناتهم مستقيمة، مهذبون كرام الأحساب أمهاتهم من خير الأمهات أصلاً ، إليهم ينتهي المجد والشرف.

ويمدح أيمن بن خريم وهو شاعر من شعراء الشيعة بني هاشم ويثنى عليه فيقول[321]:

نهارُكم مكابدَةٌ وصوْمٌ ... ولـيلُكمُ صَلاةٌ واقتراء[322]
وليتُم بالقرآنِ وبالتزكي ... فأسرعَ فيكمُ ذاك البلاءُ
بكى "نجدٌ" غَداةَ غدَوْا عليْكمْ ... و "مكةُ" و"المدينةُ" و "الجِواءُ"
وحق لكل أرض فارقُوها ... عليكم – لا أبالكم - البُكاءُ[323]
أأجعلكم وأقواماً سواءً ... وبينكُم وبينَهمُ الهواء؟[324]

---

[317] الأغاني 248/12.

[318] السدى: المعروف ، أود: الاعوجاج.

[319] هجان: كرام الأحساب، الزلال: الماء البارد العذب الصافي ، البرد: الذي فيه برد..

[320] الفواطم: جمع فاطمة ، وأم عبد الله هي فاطمة بنت الحسين ، العواتك: جمع عاتكة.

[321] الأغاني 273/20.

[322] مكابدة: مشقة في طلب العبادة ، اقتراء: قراءة للقرآن.

[323] حق له أن يفعل كذا: هو جدير به ، لا أبالكم: لا يراد به الدعاء حقيقة، بل هو أسلوب كثير في العربية ومثله: تربت يداك.

[324] الهواء: يريد ما بينكم وبينهم مثل ما بين السماء والأرض.

فهو يقول لهم إن نهاركم تصرفونه في طلب الصوم والعبادة ، أما ليلكم فتقطعونه في قراءة القرآن، ولأنكم تمسكتم بكتاب الله واعتصمتم بالطهارة حدث لكم ما حدث. ولقد بكت عليكم نجد ومكة والمدينة و الجواء لما أصابكم من ضراء وحل بكم من بلاء. ولن يستوي ما بينكم وبين غيركم من أقوام آخرين فما بينكم وبينهم مثل ما بين السماء والأرض.

ونجد بعض الشعراء لا يلجأون إلى التقية ويؤثرون السلامة كما فعل غيرهم من الشعراء بل مدحوا خلفاء بني أمية وأضمروا حبهم لآل البيت ، ومن هؤلاء الشعراء الذين يعلنون حبهم لعلي وأبنائه من بعده صراحة ودون خوف عدي العبلي ، وإبراهيم بن هرمة.

أما إبراهيم بني هرمة فيعلن حبه على شاكلة قوله[325]:

ومهما ألامُ على حبهم فإني أحبُّ "بني فاطمة"
بني بنتِ من جاء بالمحكما ت والدينِ والسنة القائمة
ولست أبالي بحبي لهمْ سواهم من النعم السائمة[326]

فالشاعر يعلنها صريحة بأنه يحب أبناء فاطمة الزهراء الحسن والحسين غير عابئ بلوم اللوام لأنهما أبناء بنت النبي $ الذي جاء بالآيات المحكمات وجاء بالدين القويم وخلف لنا السنة المتبعة ، ومادام يعتنق حبهم فهو غير عابئ بعد ذلك بغيرهم من الناس الذين يشبههم بالنعم السائمة.

أما حزب ابن الزبير فلم يكن ينصره كثير من الشعراء لما عرف به عبد الله ابن الزبير من الشح والبخل فانفض عنه الشعراء ولم يأخذ يناصره إلا عبيد الله بن قيس الرقيات الذي كان معجباً بمصعب بن الزبير، محباً له، وكان ناقماً على بني أمية لنقلهم مركز دولتهم من الحجاز إلى الشام شفقاً من ذهاب سلطان قريش

---

[325] شعره 214 ، وتهذيب ابن عساكر 240/2 ، وطبقات ابن المعتز 20.

[326] النعم: واحد الأنعام وهي المال الراعية، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل السائمة : الراعية.

فناصر الزبير حتى قتل مصعب وأخوه عبد الله فاضطر بعدهما إلى مصانعة الأمويين ومدحهم.

ولما ولّى عبد الله الزبير أخاه مصعباً والياً على العراق قصده كثير من الشعراء ومدحوه ومن هؤلاء الشعراء أعشى همدان ، ودكين الققيمي ، وعبد الله ابن الزبير.

ويبدو أن مصعبا كان كريماً فلم يبخل على الشعراء ويقول قيس الرقيات [327]:

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه جبروت ولا به كبرياء
يتقي الله في الأمور وقد أفلح من كل همه الاتقاء

وندخل في المديح السياسي ما تضمه مصادر الأدب من قصائد لبعض الشعراء قالوها في مديح قبيلة قريش.

يقول القطامي فيهم[328]:

أما "قريش" فلن تلقاهُم أبداً إلا وهم خَيْرُ من يحفى وينتَعِلُ
إلا وهم جبلُ اللهِ الذي قصُرتْ عنه الجبالُ فما سَوَّى به جبلُ
قومٌ همُ ثبَّتوا الإسلام واتبَّعوا قول الرسولِ الذي ما بعدهُ رُسُلُ
من صالحوه رأى في عيشهِ سعةً ولا يُرى من أرادوا ضره يئلُ[329]

فهم خير الناس على كل حال في اليسر والعسر وهم الجبل الأشم في علو المنزلة ولهم الفضل في تثبيت أركان الإسلام وفي اتباع خاتم الأنبياء. ويكرر للشعراء فكرة أن القرشيين خير الناس جميعاً.

---

[327] ديوانه 91.

[328] ديوانه 29.

[329] يئل: ينجو.

يقول عروة بن أذينة[330] :

إذا (قريشٌ) تولَي خيرُ صـــالحها فاسْتَيْقِنَنَّ بأن لا خير فـــي أحـــد

رَهطُ النبي ، وأوْلى الناس منزِلةً بكل خير وأثرى الناس في العدد

خصائص شعر المديح:

1. ضمت قصيدة المديح موضوعات مختلفة في العصر الأمـــوي، ولـــم تعـــد قاصرة على موضوع المديح إنما صارت مزيجاً من موضوعات مختلفة هي المدح والفخر والهجاء[331] ، فها هو جرير يمدح عبد الملك بن مروان ويهجـــو الأخطـــل وتغلب فيقول[332]:

الله طوقـــــك الخلافـــــة والهـــــدى والله لـــيس لمـــا قـــضى تبْـــديلُ

إن الخلافـــــة بالـــــذي أبليـــــتمُ فـــيكمُ فلـــيس لملكهـــا تحويـــل

ولَّـــى الخلافـــة والكرامـــة أهلهـــا فالملـــك أفـــيحُ والعطـــاءُ جزيـــلُ[333]

فعليك جزيـــةَ معـــشرٍ لـــم يـــشهدُوا لله أن "محمَّـــــــدا" لرســـــــولُ

تبعُوا الضلالةَ نـــاكبينَ عـــن الهُـــدى والتغلبـــيُّ عَمِـــيٌّ الفـــؤاد ضـــلُولُ

فجرير في أبياته السابقة يمزج بين المدح والهجاء فهو يمدح عبد الملك بن مـــروان من ناحية ويهجو الأخطل وقبيلته تغلب من ناحية أخرى ، وهـــو يـــردد فكـــرة أن الخلافة قدر مقدور من عند الله فالله طوقه الخلافة والهدى، ولا تبديل لما قضى بـــه الله، ولن تتحول الخلافة عنكم بعدما أظهرتموه من بلاء حسن وبصفة بسعة الملك، وجزيل العطاء ، ثم ينقلب متحولاً على الأخطل وتغلب فهم قوم لـــم يـــشهدوا بـــأن

---

[330] البيان والتبيين 361/1.

[331] الأخطل شاعر بن أمية 178 ، والتطور والتجديد 151.

[332] ديوان جرير (دار المعارف) 95.

[333] أفيح: واسع.

محمداً رسول الله ولذلك استحقوا الذل وحقت عليهم الجزية ووجبت المطالبة بهـا، فقد اتبعوا الضلالة وتنكبوا طريق الهدى وعميت أفئدتهم.

وتعد قصيدة الأخطل "وخف القطين" في مدح عبد الملك بن مـروان خيـر نموذج لاشتمال قصيدة المدح في العصر الأموي على موضوعات أخـرى بجانـب الغرض الأصلي من القصيدة فقد اشتملت هذه القصيدة على الغزل، ووصف الخمر، ومدح عبد الملك، ومدح بني أمية، وهجاء جرير وكليب.

2. دخلت المعاني الإسلامية إلى قصيدة المدح الأموية وسارت جنباً إلى جنـب مع المعاني التقليدية الموروثة التي كان المدح القديم يعتمد عليها. فقد تأثر الـشعراء بالإسلام وبظروف الحياة العربية الجديدة وما حدث فيها من انقـلاب فـي نظـام الدولة، وظهور الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وفـرق بـين أن يمـدح الـشاعر الجاهلي سيد القبيلة وأن يمدح الشاعر الأموي والى العراق المسلم الـذي يتـصف بصفات دينية هي صفات الإسلام.

وقد تحول المديح في كثير من جوانبه إلى تصوير الفضيلة الدينية في الممدوح، وقد وثق هذا التصوير المعتقد السائد من أن الحكم والدين كل مرتبطين ارتباطاً وثيقـاً، وقد وجد الشعراء في ذلك مجالاً للحديث عن التقوى والعدالة السماوية، وكان عمر بن عبد العزيز مثالاً حقاً للحاكم الأموي التقي فأكثر الشعراء من رسم إطار التقوى الذي يطيف به ، ويحكم على شاكلته.

وقد صور كُثيِّر زهده، وإعراضه عن الدنيا. وفتنتها ومتاعها الزائل الـذي يتهالك عليه الناس.

ومن الواضح اشتمال قصيدة المدح الأموية على معاني الشعراء الـسابقين في المدح ، فلم يستطيع شعراء العصر الأموي أن ينفصلوا من هذا التراث لأنه كان يمثل أمامهم أروع صورة وصل إليها شعرهم العربي في عصره القـديم، وأرفـع نموذج لهذا الفن الذي استقرت تقاليده واكتملت مقوماته على أيدي القمم الشامخة من شعراء هذا العصر. ومراعاة من شارع العصر الأموي للعناصر القديمة في المـدح

ظلت الصفات التقليدية التي كان يمدح بها شعراء الجاهلية قائمة في هذا العصر من مثل المدح والكرم والشجاعة والحلم والمروءة والنجدة . كما نلاحظ أن الشاعر الأموي أضاف إلى هذه الصفات التقليدية الصفات الإسلامية مثل العدل، والعفاف، والتقوى، وأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ، وقد جمع بعض الشعراء الأمويين هذه المناقب في قوله[334]:

وتتضح المعاني الإسلامية في مدح جرير لمعاوية بن هشام بن عبد الملك[335]:

من يهده الله يَهْتَدْ لا مضلَّ له ومن أضَل فما يهديه من هادي
لاقَوا بعوث أميرِ المؤمنين لهم كالريح إذا بعثَتْ نَحْساً على "عادِ"
فيهم ملائكة الرحمن مالهُمُ سوى التَوكُّلِ والتسبيح من زادِ
أنصارُ حقٍ علىُ بُلْقٍ مسَوَّمةٍ أمداد ربِّك كانوا خير أمَدادِ

فجرير متأثر في البيت الأول بقول الله تبارك وتعالى: "من يهد الله فهو المهتدي ، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون"[336] وقوله جل وعلا: "ومن يضلل الله فلا هادي له[337]" وكثير من الألفاظ التي وردت في أبياته ألفاظ قرآنية مثل "عاد" و" ملائكة الرحمن" و "التوكل" و "التسبيح" و "بلق مسومة".

ولم يبرأ الأخطل الشاعر النصراني من التأثر بالثقافة الإسلامية التي كانت شائعة في عصره ، وقد استغل الأخطل هذه الثقافة استغلالاً كبيراً في مدحه بني أمية يقول في مدح عبد الملك بن مروان:

إلى امرئٍ لا تَعدينا نوافلُهُ أظفَرَهُ اللهُ فليهنئْ لَهُ الظفَرُ
الخائضُ الغمْرة الميمونُ طائرُهُ خَليفةُ الله يُستَقَى به المطر

---

[334] تهذيب ابن عساكر 82/6.
[335] ديوان جرير (الصاوي) 153.
[336] الأعراف 178.
[337] الأعراف 186.

في نبْعةٍ من قريش يعصبون بها ما أن يوازي بأعلى نبتها الــشجر

فعبد الملك عند الأخطل كريم، ومنتصر بقوة الله، ومبارك الطلعة وميمــون الطائر ، إذا دعا الناس الله به حين يشتد بهم الجذب نزل المطر ليمنــه وبركتــه ، وجعل ظفر بني أمية هبة من لدن الله ، ويقول إن الله قد فضلهم على سائر قريش.

3. ضمت قصيدة المديح الأموية عناصر سياسية جديدة لــم تعرفهــا قــصيدة المديح العربية لا في العصر الجاهلي ،ولا في عصر صدر الإسلام وبخاصة فــي الأشعار التي مدح بها شعراء العصر الأموي خلفاء وولاة بني أمية.

وقد اتخذ شعراء بني أمية من البيئة السياسية التي احتكوا بها في بلاط بني أمية مادة خصبة استرفدوا منها في مدحهم ، واتكأوا على الصراع السياسي القــائم في تنويع عناصر أغراضهم الرئيسية.

فتناول الشعراء في مديحهم للأمويين موضوعات جديدة كحــسن الــسياسة والقيام على مصالح الرعية واستتاب الأمن ونشر الطمأنينة بين الناس والبراعة في تدبير شئون الملك وإخماد الثورات والفتن والضرب على أيدي العصاة والمتمــردين ، وتصوير مظاهر عظمتهم ومجدهم وقوتهم ، وكثرة أنصارهم.

ومن العناصر السياسية التي دخلت قصيدة المديح الأموية تصوير الــصراع بني الأمويين وبقية الأحزاب الأخرى من زبيريين وشيعة وخوارج وأشادة الشعراء بانتصار الأمويين على أعدائهم سواء في مرج رهط أم في العراق أم فــي المدينــة المنورة ومكة.

ومن العناصر السياسية أيضا تصوير قتال الأمويين للروم وتــصوير قتــال الخلفاء لهم، من ذلك جهاد عبد الملك وبلاء ابنه الوليد في حربهم، والإشــادة بمــا قامت به جيوش الوليد من فتوح كما عند الأخطل وبلوغها إلى ما لــم تبلــغ إليــه جيوش أحد من قبل.

ومن العناصر السياسية التي دخلت قصيدة المديح الأموية الإشارة إلى مواقف القبائل السياسية المؤيدة أو المعارضة لها. فقد وقفت قبيلة تغلب قبيلة الأخطل في صف بني أمية وحاربت قبيلة قيس التي وقفت في صفوف المعارضة للأمويين ولذلك لقي الأخطل رغم نصرانيته منزلة رفيعة لدى الأمويين وهيأت مدائحه لهم دعاوة سياسية بعيدة المدى.

أما الفرزدق فيفخر بقبيلته تميم لموقفها المؤيد من الدولة الأموية وسياستها ، ويهاجم قبيلة قيس المعادية للأمويين.

ومن العناصر السياسية التي دخلت قصيدة المديح الفكرة التي روج لها شعراء بني أمية من أنهم أحق الناس بالخلافة وأنها جاءتهم بمشيئة الله وإرادته.

ويردد الفرزدق في إشادته بعبد الملك بن مروان بأن خليفة بني أمية اختاره الله للحكم وأنهم أصحاب الحق في وراثة عثمان فيقول[338]:

فالأرض لله ولاها خليفته وصاحب الله فيها غير مغلوب

تراث عثمان كانوا الأولياء له سربال ملك عليهم غير مسلوب

ويكرر جرير كثيراً في شعره فكرة الجبرية في الخلافة وهي فكرة تدخل في النظرية السياسية في الخلافة والتي حرص الأمويون على أن ينشروها بين الناس، كما تدخل فكرة المهدي المنتظر ضمن العناصر السياسية التي دخلت في قصيدة المديح الأموية وهي فكرة شيعية دارت في مدائح جرير منذ عصر سليمان بن عبد الملك يقول في مدح هشام بن عبد الملك:

إلى المهدي نفزع إن فزعنا بغرته الغماما

ونلاحظ أن خلفاء بني أمية روجوا كثيراً لانتشار فكرة الجبرية، وفكرة المهدي المنتظر والحق الإلهي القائم على اختيار الله لمقاومة الأفكار الدينية الأخرى التي كانت تنادي بها أحزاب المعارضة فكل حزب كان يدعي لنفسه حقا شرعياً في

---

[338] ديوان الفرزدق 25.

الحكم قائماً على أسس دينية ، لذلك ناهض خلفاء بني أمية أفكار الأحزاب الأخرى على لسان شعرائهم ورموهم بالكفر والضلال ، واستباحة المحرمات والانقياد لشيطان وإتباع الهوى.

قد يلجأ الشعراء في مدح خلفاء بني أمية إلى المبالغة في المديح فيبغون على الخلفاء من الصفات ما يرفعهم إلى مقامات ليسوا أهلا لها، تزيدا وتهويلا، وربما كان دافع الشعراء إلى ذلك الرغبة في الحصول على عطاء الأمويين بسخاء لذلك أجهدوا أنفسهم في اختبار اللفظ والعبارة ، والتفنن في الخيال ، والمبالغة في المعاني ، ومن هنا جاءت أشعارهم خالية من العاطفة الصادقة.

ومن قبيل المبالغة في المدح قول جرير[339]:

لولا الخليفة والقرآن يقرؤه ما قام للناس أحكام ولا جمع
أنت الأمين أمين الله لا سرفٌ فيما وليت ولا هيابة ورع
أنت المبارك يهدي الله شيعته إذا تفرقت الأهواء والشيع
يا آل مروان إن الله فضلكم فضلاً عظيماً على من دينه البدع

فجرير يبالغ بقوله بأنه لولا وجود عبد الملك وقراءته للقرآن لتوقفت الحياة فلا معاش للعباد ، ولا أحكام تصدر ، ولا جمع تقام ، فهو أمين الله معتدل في أحكامه ، ورع في سلوكه ، لا يخشى إلا الله ، وبه يهدي الله الرعية.

ويبالغ عدي بن الرقاع العاملي في مدح الوليد بن عبد الملك فيقول[340] :

أو لا ترى أن البرية كلها ألقت خزائمها إليه فقادها[341]
ولقد أراد الله إذ ولاكها من أمة إصلاحها ورشادها
أعمرت أرض المسلمين فأقبلت وكففت عنها من يروم فسادها

---

[339] ديوانه 355.

[340] تاريخ الشعر العربي للكفراوي 104/1.

[341] الخزائم: جمع خزامة على وزن رسالة ، وهي حلقة تجعل في جانب منخر البعير ليقاد بها.

وأصبت في أرض العدو مـــصيبة عمَّت أقاصـــي غورهـــا ونجادهـــا

ظفراً ونصراً مـــا تنـــاول مثلـــه أحد من الخلفـــاء كـــان وأرادهـــا

فإذا نشرت لـــه الثنـــاء وجدتـــه جمع المكارم طرفهـــا وتلادهـــا[342]

فأتتـــه أســـلاب الأعـــزة عنـــوة قسراً ويجمـــع للحـــروب عنادهـــا

فقد جعل الله صلاح هذه الأمة ورشادها على يدي هذا الخليفة الأموي الذي قاد البرية كلها بعد أن أسلمت إليه قيادها فنجح في تعمير الأرض، وإبعاد المفسدين. وأن الانتصارات التي حققها الوليد لم تتحقق على يد أحد مثله من الخلفاء، وهو من هذه الناحية جمع المكارم قديمها وحديثها ، ويمدحه بالشجاعة فقد جاءته الغنائم التي حصل عليها جيشه عنوة بعد أن هزم الأعزة قسراً وهو دائم الاستعداد لأنـــه يأخـــذ للحرب لبوسها ، ويعد لها عدتها.

[342] الطرف: بكسر الطاء والطريف: الحديث ، والتلاد: القديم.

النقائض

- **معناها.**
- **أسبابها:**
  - **عوامل سياسية.**
  - **عوامل اجتماعية.**
  - **عوامل عقلية.**
- **مقوماتها.**
- **خصائص شعرها.**

النقائض

تعد النقائض من فنون الشعر القديمة ، لأنها عرفت منذ العصر الجاهلي فقد كان شعراء القبائل المتحاربة يتراشقون بالشعر كما يتراشقون بالسهام. وكان يهجو بعضهم بعضاً، ويفاخر بعضهم بعضاً، ويناقض بعضهم بعضاً، وقد وصلت إلينا بعض هذه النقائض التي تتصل بأيام الجاهليين ووقائعهم ، كالتي قيلت في الوقائع التي دارت بين عرب الجنوب وعرب الشمال، وبين الأوس والخزرج من اليمن، وبين عبس وذبيان، وبين تغلب وبكر، وبين بكر وتميم وغيرها، منها نقائض حسان بن ثابت الخزرجي ، وقيس بن الخطيم الأوسي، ونقائض رشيد بن وميض العنزي الربيعي ، ومحرز بن المكعبر الضبي ، ونقائض النابغة الذبياني وعامر بن الطفيل، وغيرها، وثمة نقائض أخرى أسبابها لا تمت إلى العصبية القبلية بل إلى أمور أخرى كالتي كانت بين أبي ذؤيب الهذلي وخالد بن زهير ونحوهما.

ثم جاء الإسلام وكان شعراء المسلمين والمشركين يناقضون ويذكرون ما يكون بينهم من غزوات ووقائع فشعراء المدينة يدافعون عن الإسلام والمسلمين وشعراء مكة يدافعون عن دينهم الوثني . ولما انقسم المسلمون إلى أحزاب كان شعراء هذه الأحزاب يتناقضون كالتناقض الذي قام بين كعب بن جعيل المناصر لمعاوية والنجاشي المناصر لعلي.

على أن فن النقائض لم يرتق ولم يزدهر إلا في العصر الأموي الذي استيقظت فيه العصبية القبلية بعد أن حددها الإسلام ، وانضمت إلى العوامل القبلية عوامل أخرى سياسية واجتماعية واقتصادية وشخصية أدت إلى ازدهار هذا الفن وشيوعه شيوعاً عظيماً، وكانت نقائض هذا العصر تختلف عن نقائض العصر الجاهلي بطولها وإفحاشها ، واتساع الخيال فيها.

ولم تنشأ النقائض من فراغ إنما تطورت من فن الهجاء الجاهلي القديم . وقد كان الشعراء يهجون القبائل التي تناصبهم العداء ، وفي الإسلام تهاجي شعراء

المسلمين مع شعراء المشركين. ولكن عناصر الهجاء سواء في الجاهلية أو في صدر الإسلام كانت بسيطة لا تعقيد فيها فقد كان الشاعر يقف عند بعض المعاني التي يرمي بها المهجو منها: الجبن ، والبخل ، والقعود عن الثأر ، وعدم الوفاء ، وعيّر بعض شعراء المسلمين بالكفر. وكانت قصائد الهجاء بسيطة فلم يتقيد الشعراء بالرد على شعراء خصومهم بقصائد من نفس الوزن والقافية ، ونفض كل معنى من المعاني التي وردت في هجاء خصومهم، وكان الهجاء يتوقف بتوقف الحرب وبعودة السيوف إلى أغمادها.

أما في العصر الأموي فقد تعقدت قصيدة الهجاء ، وكثر عدد أبياتها واتخذ الشعراء من هزائم بعضهم في أيام الجاهلية سهاماً يصوبونها إلى صدور خصومهم، وتحول الهجاء إلى غرض دائم مستمر، وجد لدى الناس قبولاً واستحساناً، لأنهم بدأوا يتحلقون حول هذه الحلقات ليسمعوا الجديد من الشتائم، والغريب من الأخبار، والنوادر من الحوادث. وكثيراً ما كانوا يتحركون من شاعر إلى أخر ليلهبوا الحماسة، ويثيروا النفوس، وينتظروا النتائج. وتغيرت صورة الهجاء فأصبح ينشد يومياً، وأصبح الشعراء يحترفونه احترافاً، وتحولت الرغبة في إعجاب الناس من الخصوم وغير الخصوم، وأصبح هم الشاعر أن ينال رضا الناس ويثبت تفوقه على خصمه، كل هذه الظواهر الجديدة التي شغلت الناس والمؤرخين زماناً تجعلنا نقول إن الهجاء تحول إلى غرض جديد عرف باسم (النقائض) وإن كانت بوادر هذا الغرض تحددت منذ العصر الجاهلي.

كذلك خرج عن المعاني التي كان الشعراء يدورون فيها فقد تعقدت المعاني البسيطة ، وتوسعت مدلولاتها، وتعمقت مفاهيمها.

لقد كان فن النقائض الجاهلية والإسلامية يحمل طابع السذاجة الفنية، وكان الشاعر لا يكلف نفسه مشقة في الغوص على المعاني البكر، وصور الهجاء الطريفة، وتقصي المثالب القبلية.

أما نقائض العصر الأموي فمثلت عقلية جديدة، وفكراً متطوراً، يعتمد على المنطق وطرق الاستدلال والبرهنة والقياس مما كان يستعمله علماء المنطق والفلسفة والكلام والفقه في محاوراتهم ومناظراتهم: ومن هنا كانت هذه النقائض تستقل عن الهجاء القديم، إذ أصبحت فناً معقداً، هو تعقيد يقوم على المزج بين عناصر قديمة وأخرى جديدة، كما يقوم على طرق الاستدلال الحديثة التي كان يستمع إليها جرير والفرزدق في بيئات الفقهاء والعلماء في أثناء محاوراتهم ومناظراتهم[343] .

ولم تكتمل صورة النقائض الفنية إلا في عصر بني أمية على يد فحول شعراء الهجاء الذين تألقوا، أمثال جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم. ومن جهة أخرى نلاحظ أن الهجاء القديم الذي التزم فيه قالب النقائض قليل بالقياس إلى سائر الهجاء القبلي، أما في عصر بني أمية فقد كاد هذا القالب أن يستأثر بجل الهجاء القبلي المقول فيه، وهذا يحقق لنا القول بأن فن النقائض يوشك أن يكون فناً أمويّاً خالصاً.

لقد كان الشاعر الجاهلي مطلق الحرية في قصيدة الهجاء لا يلتزم بحراً معيناً ولا قافية موحدة ، ولا يكلف نفسه عناء نقض معاني خصمه معنى معنى ، أما شاعر النقائض الأموية فقد كان مقيداً بالتزام القالب الشعري الذي بدأ به خصمه وعليه أن يتقصى معاني خصمه معنى معنى ونقضها واحداً إثر آخر، مع إجادة الصنعة وإطالة القصيدة والتزود بألوان من الثقافة لا غنى عنها، لذا كانت النقائض تطور لفن الهجاء القبلي أتاح له استكمال صورته الفنية.

والنقائض جمع نقيضة مأخوذ في الأصل من نقض البناء إذا هدمه، ونقض الحبل إذا حله، ونقض العهد إذا تحلل منه، ونقض فلان كلام فلان إذا أثبت بطلانه، وكل هذه المعاني نجدها متمثلة في القصيدة الثانية التي يرد فيها الشاعر على

---

[343] التطور والتجديد 194.

القصيدة الأولى ففيها هدم المعاني الأولى وحلها وإذابتها، والتحلل مما يحاول الشاعر الأول أن يلحق به الشاعر الثاني وإثبات بطلان إدعائه.

والنقائض لون من ألوان الهجاء والتحدي بين شاعرين يبدأ أحدهما فيهجو الآخر ويفاخره بقصيدة من وزن خاص وقافية خاصة فيرد عليه الآخر بلغة النقائض ينقض الآخر القصيدة بقصيدة أخرى من نفس الوزن والقافية، وكأنه يريد أن يثبت تفوقه عليه من حيث الموسيقى والصياغة الفنية بجانب تفوقه عليه من حيث الفخر والهجاء. كما يريد الثاني أن يمحو حلاوة الشعر الأول من أذهان الناس ليضعف تأثيره عليهم، فناسب أن يشتد الشبه بين الشعرين ليعرف أن هذا نقيض ذلك وتصبح كل قصيدة نقيضة للأخرى أي مخالفة لها، على أن النقض في الأصل من صفات القصيدة الثانية التي نهضت بالرد على الأولى وتعقب معانيها.

وهو في أثناء نقضه يتعرض للمعاني التي وردت في القصيدة الأولى فيرد عليها معنى معنى، وكلما ألم الشاعر بكل هذه المعاني تناولها بالرد والتفنيد كلما بلغ مرحلة من النجاح في رده، ولكن ترتيب الأبيات في النقيضة لا يلزم أن يكون على وفق ترتيب الأولى.

ويرجع الدكتور شوقي ضيف اتفاق الأسلوب أحياناً في النقيضة إلى أن النقيضة الأولى كانت ترسل إلى الشاعر الثاني مكتوبة فينظر الشاعر إليها ويرد على معانيها معنى معنى " ... ولا يتأتى ذلك من الوجهة العملية إلا إذا وضعت النقيضة الأولى تحت بصره، ونظر في أفكارها فكرة فكرة، ولعل هذا يحل إشكال اتفاق الأسلوب أحياناً فبعض الأبيات يكاد يكرر مع اختلاف بسيط ، ويظهر هذا خاصة في الأبيات الجيدة التي يقولها الشاعر الأول"[344]

ويشترط في قصيدتي النقائض من حيث البناء الخارجي توفر ثلاث وحدات وحدة الموضوع ، ووحدة الوزن ، ووحدة القافية ، أما وحدة حركة الروي

---

[344] التطور والتجديد 197.

(المجرى) فأكثر النقائض تلتزمها وتتقيد بها ، وان تكن طائفة منها لم تلتــزم بهــا اكتفاء بالتزام حرف الروي والتقيد به كما حدث في لامية الرزرق التي مطلعها:

إن الذي سمك السماء بنى لنــا بيتــا دعائمــه أعــز وأطــولُ

ولامية جرير التي ناقض بها ومطلعها:

لمن الديار كأنهــا لــم تحلــل بين الكناس وبين طلح الأعــزلِ

فحركة الروي في الأولى الضمة ،وحركة الروي في الثانية الكسرة.

ومن الشعراء المشهورين الذين هاجاهم جرير الراعي النميري فقد استماله عرارة النميري نديم الفرزدق فجعله يفضل الفرزدق على جرير بقوله:

يا صاحِبَيَّ دنا الرواحُ فــسيرا غلب الفرَزْدَقُ في الهجاء جريــرا

وقال أيضاً:

رأيت الَجحْشَ جحشَ بني كليب تيمَّم حــوضَ دِجلــةَ ثــمَّ هابــا

وقد حاول جرير معاتبة الراعي لإرجاعه عن استمرار مناصرة الفــرزدق، عله يعتذر إليه وينتهي الموضوع عند هذا الحد، وكان جريراً كان يلتفت إلى الصلة القوية التي تربط بينه وبين الراعي، فالراعي من قبيلة قيس وجرير يناصر قيماً.

ونجده يذكر أنه ذهب إليه وخاطبه بقوله "إنك شيخ مضر وشــاعرها، وقــد بلغني أنك تفضل عليّ الفرزدق، وأنت يُسمع قولك، وهو ابن عمي دونك فإن كــان لابد من تفضيل فأنا أحق به لمدحي قومك وذكري إياهم. فلم يستجب، فما أصــبحت حتى هجوته فقلت:

فغض الطرفَ إنك مــن نُمَيْــر فــلا كعبــاً بلغــت ولا كلابــاً

قال فقدمت عليه من الغد فأخذت بعنانه ، فما فارقته حتى أنشدته إياها.

وقد بلغ جرير في قصيدته هذه في هجاء بني نمير غاية الإقذاع والإفحاش حتى صار بنو نمير يتهربون من نسبهم هذا وينسبون إلى بني عامر بعد أن كــانوا يفاخرون به.

ويمكن أن نرد نمو فن النقائض في العصر الأموي لأسباب يرجع بعضها إلى **عوامل سياسية واجتماعية وعقلية**.

أما العوامل السياسية فترجع إلى تشجيع حكام بني أمية لصرف الناس عن التفكير في السياسة والحكم فقد كانت سياستهم في بيئة الحجاز صرف أبنائها المهاجرين والأنصار عن المطالبة بالخلافة وذلك بمدهم بالأموال وإشغالهم بمباهج الحياة ، أما سياستهم في بيئة العراف فكانت بصرف الناس وتسليتم بالنقائض.

ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن الدولة الأموية كانت تشجع المعركة الأدبية بين شعراء النقائض أحياء العصبيات التي تفرق بين القبائل وتشغلها عن السياسة العليا للدولة.

أما العوامل الاجتماعية فمردها إلى حاجة المجتمع العربي خاصة في البصرة إلى ضرب من التسلية يقطع به الناس أوقاتهم الطويلة. وقد انبرى الهجاءون في العراق يملأون أوقات الناس بأهاجيهم وسرعان ما تحولوا بها إلى نقائض مثيرة. وقد كان لتشجيع جماهير العرب وحثها للشعراء على المزيد الأثر الكبير في نمو هذا الفن وتطوره فقد وجدت الجماعة في هذا الشعر ما يسليها ويلهيها ويقطع أوقات فراغها خاصة في مدينتي البصرة والكوفة حيث القبائل العربية قد استقرت فيهما ، وكان عندها من الثراء والمال الذي غنمته من الفتوح الإسلامية ما أغناها عن البحث عن أسباب الحياة والسعي وراء مئونه العيش.

أما العوامل العقلية: فمردها إلى نمو العقل العربي، ومرانه الواسع على الحوار والجدل والمناظرة في النحل السياسية والعقيدية وفي الفقه والتشريع. وكانت المحاورات والمناقشات تدور في كل مكان في مدينة البصرة في المساجد وفي المجالس بل وفي الطرقات والأسواق، وعلى ضوء من ذلك كله أخذ شعراء النقائض يتناظرون في حقائق القبائل ومفاخرها ومثالبها، وكل منهم يدرس موضوعه دراسة دقيقة ويبحث في أدلته ليوثقها، وفي أدلة خصمه لينقضها دليلاً، وكأننا أصبحنا بإزاء مناظرات شعرية، وهي مناظرات كانت تتخذ سوق المربد في

البصرة والكناسة في الكوفة مسرحين لها فالشعراء يذهبون هناك، ويذهب إليهم الناس ويتحلقون من حولهم، ليروا من تكون له الغلبة على زميله أو زملائه.

خصائص شعر النقائض:

يمكن لدراسة شعر النقائض الأموية أن يتوصل إلى بعض الخصائص العامة التي تعد قاسماً مشتركاً بين شعراء النقائض في العصر الأموي وذلك بجانب الخصائص الفردية التي تتمثل في شعر كل شاعر من هؤلاء الشعراء على حدة. ويعنينا هنا المميزات العامة لهذا الفن الأموي ، ويمكن حصر بعض هذه المميزات في:

1- **التأثر بالإسلام**: فهؤلاء الشعراء نشأوا في بيئة إسلامية دستورها كتاب الله ، ويتلى القرآن أمامهم في الليل وفي النهار ومنهم من قيد نفسه وآلى عليها ألا يفك قيده حتى يحفظه، ووجدنا كثيراً من شعراء العصر الأموي تأثروا تأثراً كبيراً بالإسلام، واتضح ذلك في شعرهم كشعراء الخوارج والشيعة . واتخذ هذا التأثر أشكالاً متنوعة فهناك تضمين آي الذكر الحكيم في الشعر، أو تضمين أحكام الإسلام، أو مسايرة روحه، أو الفخر به، أو إنكار ما عداه كالمسيحية وشعائرها. ودخلت هذه المعاني في صلب النقائض فخراً وهجاء أو فيما لابسهما من نسيب ورثاء[345] .

ومن هذا التأثير ما يبدو في نقيضة الفرزدق المسماة باسم (الفيصل) يقول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

من قوله تعالى: "**أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها**" وقوله:

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل

---

[345] انظر تاريخ النقائض 406.

من قوله تعالى: "**مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعملون**".

2- **الإفحاش في الهجاء والإقذاع فيه:** فقد هتك شعراء النقائض الأعراض وأباحوا الحرمات ، وصوروا العورات ، واختلقوا الشناعات و ألحوا في وصفها، وسردوا تفاصيلها بلغة مكشوفة، وأفحشوا فحشاً لم يعرفه تاريخ الشعر العربي منذ الجاهلية حتى الآن، فصرحوا لهُ بألفاظ تستحي الأذواق السليمة، والألسنة العفيفة أن تنطق بها ولا سيما في نقائض جرير والفرزدق، أما الأخطل فقد كان دون زميليه في هذا النوع من السباب.

ولقد كان لبعض الأبيات أثر شديد على نفوس من وجهت إليهم وذلك لحسن سبكها، وسرعة انتشارها وحفظها من العرب خاصة وأن العرب أمة ملكت ناصية البيان ، وعرفت بالبلاغة وفصل الخطاب ، فقد روى عن بني كليب زعمهم أنهم لم يهجوهم أحد بشئ أشد عليهم من قول البُعيث:

وكل كليبي يقود أتانَه له حاجة من حيث تُشْفَر بالحَبْلِ

وزعمت بنو مجاشع أنهم لم يهجو بشئ أشد عليهم من قول جريرا:

وَبَرحْرَحَانَ غداةَ كبِّل مَعْبَدٌ نكحت نساؤكُم بغير مهور

وقال جرير: ما هجينا بشئ قط أشد من قول الأخطل:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم بولي على النار

ولما قال جرير في بني نمير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

قالوا: والله لوددنا أننا افتديناه بأملاكنا.

3- **توليد المعاني وابتكار الصور:** وربما كان سبب ذلك أن المعاني التي كان يتناولها الشعراء في النقائض تكاد تكون معاني محدودة يكررها الشعراء فجرير حسبما ذكر النقاد كان يكرر في هجائه للفرزدق أربعة معان وهي: قتل

مجاشع للزبير، والفرزدق قين ابن، وهجاؤه لأخته جعثن، ونبو السيف في يده حين ضرب الرومي. أما الفرزدق فكان يكرر ذل أصل جرير، ويرميه بأمه. لذلك لم يجد شعراء النقائض من مخرج لتوسيع دائرة معانيهم إلا في توليد المعاني وتطعيمها بمعاني الإسلام الجديدة وما استمدوه من حلقات المناظرات العقلية التي كان الشعراء يذهبون إليها . فالمعنى الذي كان يدور في نقائضهم كانوا يعرضونه في صور مختلفة. وقد لاحظ ابن الأثير اتجاه هؤلاء الشعراء في توليد المعاني ففكرة أن الفرزدق قين وابن قين يستغلها جرير ويتعمق فيها ويغوص في أعماقها ويستخرج منها معاني متعددة فهو يقول للفرزدق:

ألهى أباك عن المكارم والعُلا لِيٌّ الكتَائِفِ وارتفاعُ المِرجَلِ[346]

فهو يقول له إن أباك شغل عن المكارم بصناعة القيون.

ويقول له:

يَبْكي صداه إذا تَصدْعَ مِر جَلٌ أولمن تثلَّم بُرمةٌ أعشارُ[347]

فهو يقول له إن أباك عندما يموت لا يبكيه الناس ، ولا يبكيه المجد ، وإنما تبكيه أدوات صناعته المرجل والقدر المحطمان.

ويقول له:

إذا آباؤنا وأبوكَ عُدُّوا أبانَ المُقرفاتُ من العراب[348]

فأوْرَثَكَ العَلاةَ وأوْرَثونا رِباط الخيلِ أفنيَة للقبابِ[349]

فهو يقول له: إن أباك أورثك آلة القيون أو آلة الحدادة . أما أبي فاورثني آلة الشجاعة أو رباط الخيل.

ويقول جرير[350]:

---

[346] الكتائف: جمع كتيفة وهي الضبة من حديد أو نحوه تشعب بها الآنية والقدور ، والمرجل: القدر.

[347] الصدى هنا: بدن الميت ، برمة اعشار: القدر المحطم.

[348] المقرفات: الهجان ، وهن الاثي يولدن من عربية وغير عربي أو العكس ، والعراب: الأصيلات في العروبة.

[349] العلاة: أداوة يحلب فيها.

ورقـــعْ لجـــدك أكبـــارَهُ وأصْـــلحْ متاعـــكَ لا تُفـــسْدِ

وأدْنِ العَـــلاة وأدْنِ القَـــدومَ ووســـعْ لكبـــرك فـــي المقعـــدِ

فهو يسخر منه ويهزأ به وبحرفة جده فيتظاهر بنصحه ليرقع كير الحـــدادة بعدما أصابه من ثقوب، وأن يوسع له في مكانه، وينبهه إلى ما ينبغـــي أن تكـــون عليه العلاة والقدوم.

ويتفنن جرير فيستخرج معنى جديداً يقول[351]:

وجد الكتيف ذخيرة في قبـــرهِ والكلبتـــانِ جمِعْـــنَ والمِيـــشار

فقد دفنت أدوات الحدادة مع أبي الفرزدق في قبره.

ويقول له ساخراً مستغلاً مشاكل الفرزدق مع زوجه[352]:

حدْراءُ أنكرتِ القيونَ وريحَهُـــمْ والحـــرُّ يمنَـــعُ ضـــيْمَهُ الإنكـــارُ

لما رأت صَدَأ الحديـــد بِجِلْـــده فاللون أورَقُ والبَنَـــانُ قِـــصارُ[353]

فقد أنكرته زوجه حدراء وكرهته للرائحة الكريهة التي تفوح منه ، ولـــسواد لون جلده.

ويتوجه بالسخرية المؤلمة له يقول[354]:

هو القينُ وابن القين لا قينَ مثْلُهُ لفطح المساحي أو لجَدْلِ الأداهـــم[355]

فكرر كلمة القين للاستهزاء ويعترف له بأنه يحـــسن صـــناعته وخاصـــة صناعة المساحي والأداهم وهي القيود.

---

[350] النقائض 801.

(م 6 – دراسات في أدب ونصوص)

[351] النقائض 852 ، والديوان 202.

[352] النقائض 852.

[353] الأورق: الأسود.

[354] النقائض 766.

[355] الفطح: من فطح العود براه وعرضه.

ويدخل جرير فكرة الحدادة وصناعة القيون في المعاني الأخرى التي كان يهجو الفرزدق بها ، فإذا نبا السيف في يد الفرزدق عند ضرب الرومي يهزأ به ويذكرانه يحسن صناعة الفئوس ولا يحسن الضرب بالسيف يقول[356]:

عَنيفٌ بِهَزِّ السَيْفِ فَينُ مُجاشعٍ رفيقٌ بأخْراتِ الفئوسِ الكَرازم[357]

فهذه ثمانية معان ولدها جرير من فكرة القين ، ولكن من يستعرض النقائض يستطيع أن يجد جريراً قد استخرج من هذه الفكرة التي سب بها الفرزدق أفكاراً كثيرة عرضت في صور متنوعة ومعارض مختلفة.

وكذلك فعل في قصة جعثن أخت الفرزدق فقد صورها في أبشع صورة وأطنب فيها، وأكثر من مناظرها، وشنع بها.

وقد جاءته هذه المقدرة نتيجة الرقي العقلي الذي ثقفه والفرزدق من مجالس المتكلمين في علوم التشيع ومناظرات القدر ومحاورات علماء الكلام.

4- **<u>الميل إلى الاستقصاء:</u>** فشاعر النقائض عندما ينقض على خصمه يحاول أن يستفيد كل ما في جعبته من سهام يوجهها إليه ويستغل في ذلك كل ما يعرف عن مثالب الشاعر لا يكاد يترك موضع نقص إلا ذكره، أو عار إلا سجله ليهول الأمور البسيطة ويضخمها فهو يستقصى المثالب عند خصمه ويستقصى المآثر فيسندها لقومه فيتحدث عن كرمهم وشجاعتهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام ومجدهم ونسبهم وفضائلهم.

وهب القصائد لي النوابغ إذ مضوا وأبو يزيد ذو القروح وجرولُ[358]

ولقد ورثت لآل أوسٍ منطقا كالسُّم خالط جانبيه الحنْظل[359]

---

[356] النقائض 419.

[357] أخرات : جمع خرت ، وهو الثقب في أعلا الفأس يوضع فيه الخشبة التي يمسك منها ، والكرازم: الفئوس ذات الرءوس الضخمة.

[358] المقرفات: الهجان ، وهن الاثي يولدن من عربية وغير عربي أو العكس ، والعراب: الأصيلات في العروبة.

[359] العلاة: أداوة يحلب فيها.

5- **طول النقائض:** فقد تتجاوز النقيضة أكثر من مائة بيت وهي ظاهرة تلفت نظر دارس النقائض فليست قصائد الهجاء مقطوعات لشعر الغزل، وليست قصائد قصيرة كأكثر الأهاجي القديمة، وإنما هي قصائد طويلة بل كثيراً، ما تسرف في الطول فلم تعد المسألة هجاء عاجل بل أصبحت مسألة هجاء معقد يقوم على البحث والدرس في تاريخ القبائل، فكل شاعر يحاول أن يعدد مناقب قبيلته وينال من تاريخ القبيلة المعادية فجرير مثلاً إذا ناقض الأخطل يدرس تاريخ قيس القبيلة التي يتعصب لها ويدرس تاريخ تغلب قبيلة الأخطل، والأخطل بدوره يدرس تاريخ قبيلته ويدرس تاريخ قيس ليتحدث عن أمجاد قومه ويعير بأسلاب خصمه.

6- **التكرار:** وهو نتيجة طبيعية لطول النقائض فقد كان الشاعر يستنفد معاني الهجاء بسرعة، ونراه بعد مجموعة من الأبيات يكون قد أفرغ ما في جعبته من موضوعات الهجاء ومعانيه، وهذا ما دفعهم إلى التكرار وترديد المعاني والأيام والأحداث، فالأخطل يكرر أيام قومه على قيس، ومآثر دارم، ومثالب كليب. والفرزدق يفعل ذلك بالأيام والرجال. أما جرير فقط لا حظ النقاد إلحاحه على الفرزدق بمعان محدودة هي: الزبير، وجعثن، والفسق، والنفي من المدينة، والسيف، كما لاحظوا ترديده بعض المعاني في مناقضاته للأخطل مثل: الخمر، والنصرانية، والجزية، وقذارة نسوة تغلب، وهزائم رجالهم[360].

وقد يكرر شاعر النقائض معاني الشاعر الأول كما قد يكرر بعض أبيات أو شطور يأخذها من الأول إما استحسانا أو ملامعة لمقتضى الحال ، وإما لسيرورتها ودورانها على الألسن ، وشدة تأثيرها في الأذهان ، وقد يجئ هذا التكرار إما عمداً أو عرضاً من ذلك قول الفرزدق:

جَعلَ الخلافةَ والنبوةَ ربنا فينا وحُرمةَ بيتهِ المعمور

---

[360] انظر تاريخ النقائض 421.

فيتأثره جرير في قوله للأخطل:

إن الـــذي حـــرمَ المكـــارم تغلبـــا جعـــل النبـــوة والخلافـــة فينـــا

ويقول الأخطل في كليب بن يربوع:

الآكلـــون خبيـــث الـــزاد وحـــدهم والسائلون بظهر الغيب ما الخبر

فيتأثره جرير فيقول في بني تغلب:

والآكلون خبيـــث الـــزاد وحـــدهم والنازلون إذا واراهـــم الخمـــر

7- **الجزالة:** تمتاز النقائض الأموية بالجزالة اللفظية فشعرها شديد الأســـر قـــوي اللفظ، فحم العبارة، خاصة وأن أهم هذه النقائض، صدرت عن شعراء فحـــول شابهوا في أساليبهم أساليب شعراء الجاهلية فقد عرف الفـــرزدق مـــن بنـــيهم بجزالة أسلوبه وغرابة ألفاظه، وسعة مفرداته حتى أن القدماء قالوا" لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب" ورووا عن أبي عمرو بن العلاء قوله: "لم أر بدوياً أقام في الحضر إلا فسد لسانه غير الفرزدق ورؤبة" وكان لنشأة جريـــر البدوية أثرها في شعره فطبع بطابع الجزالة في ألفاظه ومتانة تراكيبه وبساطة معانيه وبعدها عن التعمق والغلو وبداوة صوره وأخيلته. وكان أهـــل الباديـــة يعجبون بشعر جرير لما رأوا فيه من جزالة[361].

أما الأخطل فقد نشأ في البادية فحاكى شعراء الجاهلية في جزالـــة الألفـــاظ ومتانة الشعر وتأثر خطو شعراء مدرسة الصنعة في تهذيب شعره وتوفير ضروب التحسين. وتبدو خاصية الجزالة واضحة إذا وازنا بين النقائض بما تشتمل عليه من فخر وهجاء وبين قصائد الغزل ، وقصائد الشعر السياسي فسنجد جزالة النقـــائض ورقة الغزل ، وسهولة الشعر السياسي.

---

[361] طبقات فحول الشعراء 375.

أحلامنا تزن الجبال

قال الفرزدق يفخر، ويهجو جريراً:

إنَّ الذي سَمَكَ السَّماءَ بَنَــى لَنَــا ... بيْتاً دعائمــه أَعــزُّ وَ أَطْــولُ[362]

بيتْا بِنَاه لنا المَليــكُ وَمَــا بَنَــى ... حكَمُ الــسماء فإنَّــهُ لا يُنْقَــلُ[363]

بيتــــاٌ زُرَارَةُ مُحْتَــــبٍ بِفِنائــــهُ ... ومُجاشِعٌ وأَبو الفوارس نَهْشَلُ[364]

يَلجونَ بَيْتَ مَجُاشِعٍ وإذا احْتَبَــوْا ... بَرَزوا كــأَنهُمُ الجبَــالُ المثَّــلُ[365]

ضَرِبَتْ عَلَيْكَ الْنكبُــوتُ بِنَــسْجِها ... وَقَضى عَلَيْكَ بِهِ الكِتابُ المُنْزَلُ[366]

أحلامُنــا تَــزنُ الْجِبَــالَ رزانَــة ... وتَخَالُنــا جِنــاًّ إذا مــا نَجْهَــلُ[367]

فَــادْفَعْ بِكَفِّــكَ إن أرَدْت بناءَنــا ... ثَهْلاَنَ ذا الهضبات هل يتَحلْحلُ[368]

يا ابن المراغةَ أيْن خالُكَ؟ إننــي ... خالي حُبَيْش ذو الفعال الأفضَلُ[369]

خالي الذي غصب المُلوكَ نفوسهم ... وإليه كان جباءُ جَفْنَــةَ يُنْقَــلُ[370]

وَشْغلْت عَنْ حَسَبِ الْكِرَام وما بَنوْا ... إن اللئــيم عــن المكــارِم يُــشْغَلُ

---

[362] سمك السماك : رفعها.

[363] المليك وحكم السماء: لله جل شأنه.

[364] زرارة ومجاشع ونهشل: أولاد دارم بن مالك ، قوم الفرزدق. محتب بفنائه: قد اشتمل بالثوب في جلسة الوقور بفناء داره.

[365] الاحتباء: أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بثوب أو نحوه. المثل: المنتصة الراسخة.

[366] ضربت عليك العنكبوت: يريد أن بيت جرير واهن ذليل كخيوط بيت العنكبوت.

[367] أحلامنا: عقولنا . نجهل: نغضب ونثور.

[368] ثهلان: جبل بنجد . يتحلحل: يزول ويتحرك.

[369،9] المراغة: الأتان، وهو لقب نبزت به أم جرير. حبيش بن دارم: خال الفرزدق وكان قد أسر عمرو بن الحارث أحد ملوك الغساسنة ، وجز ناصيته، واشترط عليه أن يبعث إليه بجزية من المال كل عام حتى يموت.

فأجابه جرير بأبيات يهجوه فيها وينقض فخره منها:

أعـــددتُ للـــشعراءَ سُـــمّاً ناقِعـــاً ... فـــسقيت آخِـــرَهُمْ بكـــأْسِ الأَوَّلِ[371]

لَمَّا وضَعْتُ على الفَـــرَزْدقِ ميـــسَمِى ... وَضَغَا الْبعِيثُ جَدَعْتُ أَنْفَ الأخطـــلِ[372]

أخزى الذي سمك الـــسماء مُجَاشـــعاً ... وبنى بناءك في الحضيض الأســـفلِ[373]

ولقـــد بنَيْـــتَ أخَـــسَّ بَيْـــتِ يُبْتَنَـــى ... فهـــدمت بَيْـــتَكُمُ بمِثْلـــىْ يـــذبلِ[374]

إني بنى لـــي فـــي المكـــارِمِ أوَّلـــى ... ونَفَخْتَ كِيـــركَ فـــي الزَّمَـــانِ الأولِ[375]

إني انصببت مِـــنَ الـــسّماءِ علـــيكُمُ ... حتى اختطفْتُكَ يا فَرَزْدَقُ مِـــنْ عَـــلِ[376]

أحلامنـــا تَـــزنُ الجبـــالَ رزانـــة ... ويفـــوق جاهِلُنـــا فِعـــالَ الجُهَّـــلِ

فارجع إلـــى حكَمَـــىْ قـــريش إنهـــم ... أَهـــل النبـــوةِ والكِتـــابِ المنْـــزَلِ[377]

كـــان الفـــرزدق إذ يعـــوذ بخالِـــه ... مِثْلَ الـــذليل يعـــوذ تحـــت القَرْمَـــلِ[378]

إن الذي ســـمك الـــسماء بنـــى لنـــا ... عِزاً عَـــلاَكَ فمَـــا لَـــهُ مِـــنْ مَنْقَـــلِ[379]

أبلـــغ بنـــى وقبـــان أن حُلُـــومَهُمْ ... خَفَّتْ فـــلا يزنـــون حَبَّـــةَ خَـــرْدَلِ[380]

أَلْهَى أبـــاك عـــن المكـــارِمِ وَالْعُـــلاَ ... لَـــيُّ الكتـــائِفِ وَارْتفَـــاعُ المِرْجَـــلِ[381]

---

[371] السم الناقع: القاتل.

[372] الميسم: المكواة والمراد الأهاجي. ضغا: ذل .جدع: قطع.

[373] أخزى: أذل . الحضيض: أسفل الجبل.

[374] أخس: أدنا. يذبل: جبل بنجد.

[375] الكير: منفاخ الحداد.

[376] على: أعلى.

[377] حكما قريش: هاشم وعبد مناف. الكتاب المنزل: القرآن.

[378] القرمل: شجر ضعيف لا ورق له.

[379] علاك: قهرك. منقل: تحويل وانتقال

[380] بنو وقبان: مجاشع قوم الفرزدق . خفت: طاشت. الخردل: أخف الحبوب وزناً

(11) ليُّ الكتائف: ثني الحديد أو فتل الحبال. المرجل: القدر .

الزهـــــد

- تيار الزهد.
- شعر الزهد:
  - التذكير بالموت.
  - التذكير بالآخرة.
  - التوكل على الله.
  - الدعوة إلى تقوى الله.
  - ذم الخمر وشاربها.
  - الدعوة إلى الصلاة.
  - الأدعية والابتهالات والمناجاة.
- الخصائص الفنية والموضوعية لشعر الزهد.
  - انتشار الرجز.
  - السهولة.
  - انتشار الحكم.

الزهد نشأ في الإسلام، فقد دعا الإسلام إلى التقوى والآخرة لأنها خير و أبقى ودعا إلى الزهد في متاع الدنيا ومغانمها من مثل قوله عز وجل: "**فعند الله مغانم كثيرة**" ومن مثل قول النبي r عندما سأله رجل عن عمل إذا عمله أحبه الله وأحبه الناس قال له: "**ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس**" ، ويعد الرسول r زاهد الإسلام الأكبر ومن بعده خلفاؤه الراشدون وصحابته الأتقياء. وفي آيات كثيرة من القرآن الكريم دعوت إلى التخفف من نعيم الحياة الدنيا مثل قوله تعالى : "**تريدون عرض الدنيا، والله يريد الآخرة**" وقوله تعالى: "**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب**" [382].

ولكن يمكن القول بأن حالة الزهد والتقشف والورع التي كان عليه الرسول r وخلفاؤه الراشدون وصحابته لم تستمر طويلاً خاصة بعد أن صبت أموال الفتوح الإسلامية في حجور أهل الحجاز، وكانت سياسة الدولة الأموية تميل إلى ترك الحرية للشباب ليأخذ نصيبه من الدنيا، ويروى أن الخلاف الذي وقع بين معاوية وبين أبي ذر الغفاري في تفسير الآية الكريمة: "**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم**". يعود إلى أن أبا ذر يرى أن مدلول الآية ينطبق على الماضي والحاضر أي أن معناها ينسحب على الولاة والخلفاء في حين أن معاوية يرى أن مدلول الآية ينطبق على رؤساء الديانات الأخرى لجشعهم ومطامعهم وهو ما تصدت له الآيات السابقة لهذه الآية. وقد أغضب هذا التفسير معاوية ورأى في تفسيره مؤشراً بالغ الخطورة على النظام فرفع أمره إلى الخليفة الذي أمر بإشخاص أبي ذر إليه في المدينة، ثم أبعده إلى

[382] سورة آل عمران آية 14.

قرية مجاورة كيلا يؤثر بتعاليمه التي ينادى بها في الرأي العالم، بشكل مخالف للروح السائدة.

وقد تضافرت عوامل متداخلة أدت إلى ظهور تيار الزهد عند جماعات من المسلمين في الدولة الأموية.

- من ذلك احتجاج بعض الناس على ما ينكرون من حكومة ونظام قائم إلى حياة الاعتكاف والزهد، وكان الشعار الذي نقشوه على لوائهم "الفرار من الدنيا".
- بالإضافة إلى أن كثيراً من الناس آتاهم الله شفافية واستعداداً وهيأهم لهذه السياحة الروحانية.
- ولم تعرف الدولة الأموية في كثير من أقاليمها وخاصة إقليم العراق حياة الهدوء والاستقرار السياسي نتيجة للحروب الداخلية الطويلة وكان من نتيجة هذا الاضطراب السياسي أن فقد أهل العراق طمأنينتهم في الحياة الفانية، وخلفوها وراء ظهورهم، وانصرفوا عن متعها وملذاتها وآثروا الآخرة لأنها خير وأبقى ففرضوا على أنفسهم حياة متقشفة زاهدة، انصرفوا فيها عن متاع الدنيا إلى متاع الآخرة، وتحول الذين لم يستطيعوا اقتناص الدنيا من أيدي الأمويين إلى الزهد فيها[383].
- كما كان لظلم بعض ولاة بني أمية، وتعسفهم مع العراقيين أثر في ذلك، فيروى أن الحجاج قتل مائة ألف وعشرين، وانتهج نهجه من ولاة العراق في اتباع سياسة القتل خالد القسرى، ويوسف بن عمر فكانوا جميعاً قساة ظالمين.

ولكن الذي يلفت النظر أن إقليم العراق استأثر بالعدد الكبير من جماعات الزهاد والمتيمين بالدين وربما كان مرد ذلك إلى أن جماعات كبيرة من صحابة r قد يممت وجوهها منذ وقت مبكر شطر إقليم العراق فيروى أن الكوفة هبط إليها سبعون بدرياً وثلاثمائة من أصحاب الشجرة.

---

[383] المصدر السابق 201.

- وكثير من شعراء بني أمية حفظوا القرآن الكريم، ووعوا معانيه، وكانوا يتلونه كل يوم في صلاتهم، لذلك وجدناهم يستفيدون من معانيه و ألفاظه ويضمنونها أشعارهم، كما وجدنا الحياة الدينية تستقر في نفوسهم لذلك انطلق كثير منهم يذيعون ذلك في شعرهم حتى لتتحول قطع كثيرة من أشعارهم إلى عظات ودعوات إلى الخير وابتهالات دينية.

والذي ينظر فيما وصل إلينا من أشعار قيلت في الزهد في عصر بني أمية يمكن أن يصنفها تحت رءوس موضوعات مثل التذكير بالآخرة، والتوكل على الله، وذم الخمر وشاربها، والدعوة إلى الصلاة، الغنى والفقر، والأدعية والابتهالات، والدعوة إلى تقوى الله، والنصائح، والمواعظ العامة.

- **التذكير بالموت:**

تعد حتمية الموت من الأفكار التي يكثر ترددها عند الشعراء الذين أنشدوا في الزهد في عصر بني أمية. فقد ألح هؤلاء الشعراء على فكرة موت الكائن الحي وزوال الحياة، وانطفاء جذوتها من جسم الإنسان حين تمتد إليه يد الموت الباردة، كما تحدثوا عن مصيره بعد موته.

ويحذر سابق البربري من الموت فيقول[384]:

فكم من صحيح بات للموت آمناً ... أتته المنايا بغتة بعد ما هجع
فَلَم يستَطع إذ جاءَهُ الموتَ بغتة ... فراراً ولا منه بقوته امتنع
فأصبح تبكيه النساء مُقَنعاً ... ولا يَسْمَعُ الداعي وإن صوتَه رفعْ
وقُرِّبَ من لَحدٍ فصارَ مقيلهُ ... وفارَقَ ما قدْ كانَ بالأمس قد جَمعْ
فلا يَتْرُكُ الموتُ الغنيَّ لمالِهِ ... ولا مُعدِماً في المالِ ذا حاجة يدَعْ

[384] سيرة عمر بن عبد العزيز145، وحلية الأولياء 318/5، وتهذيب ابن عساكر43/6، وابن كثير 214/9.

فرب صحيح معافى بات آمناً أتاه الموت بغتة من مأمنه بعد ما ركن واستكان وهجع ونام، ولم يستطع أن ينجو منه، أو يفر إلى مكان حصين كما لم تمنعه قوته من مصيره المحتوم، ثم يرسم الشاعر صورة للميت وقد سجى في كفنه ومن حوله النساء تبكيه ثم يشيع إلى مثواه في اللحد مفارقاً ما جمعه بالأمس من الأموال والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام. إنه الموت لا يفرق بين الغني والفقير فلا يترك الغني لماله ولا الفقير المعدم صاحب الحاجة لفقره بل الكل أمامه سواء.

ويستخلص خالد بن يزيد حتمية الموت فيدعو الغني المنعم ألا يعجب فكثير من الأغنياء ماتوا وأجابوا على كره من نفوسهم داعي المنية رغم أن الحياة كانت حبيبة إليهم يقول[385]:

أتعجب أن كنت ذا نعمة وأنك فيها شريف مَهيبُ؟
فكم ورد الموت من ناعم وحب الحياة إليه عجيب
أجاب المنية لما دَعتْ وكرْهَا يُجيبُ لها من يجيبُ
سقته ذنوباً مِنَ أنفاسها ويُذْخرُ للحي منها ذنُوبُ[386]

ومن التذكير بالموت إنطاق الشعراء للقبور وجعلها تتحدث بحديث تأخذ منه العبرة والمثل يقول مالك بن دينار البصري[387]:

أَتيْت القبور فنَاديتهُن أينَ المعَظمُ والمحْتقَرْ؟
وأين المُدِلُّ بسُلطانِه؟ وأينَ المُزكيَّ إذا ما افتَخَر.
فنوديتُ من بينها لا أرى شخوصاً لهم ولا من أثرْ
تَعَانوْا جميعاً فما مخْبرٌ وماتوا جميعاً وماتَ الخبر

---

[385] معجم الأدباء 40/11 ، وتهذيب ابن عساكر 130/5.

[386] الذنوب: الدلو مطلقا، أو الدلو فيها ماء، أو الدلو الملأي، أو مادون الملأي، يتخر: يدخر ويبقى.

[387] شرح المقامات 217/1 ، وعيون الآخبار 302/2 ، واحياء علوم الدين 471/4.

تـــروح وتغـــدو بنـــات ثـــرى وتمحـــي محاســـن تلـــك الـــصور
فيا سائلي عـــن أنـــاس مـــضوا أمَالَـــكَ فيمـــا تـــرى مُعْتَبِـــرُ؟

2. <u>التذكير بالآخرة:</u>

احتل موضوع التذكير بالآخرة جيزاً من فكر شعراء العصر الأموي الـــذين أنشدوا في الزهد ، وقد ذهبوا في حديثهم عن الآخرة مذاهب شـــتى فتحـــدثوا عـــن البعث والحساب والمصير والجنة والنار ودوام الآخرة.

ومن التذكير بالآخرة وتفضيلها على الدنيا قول الحسين بن علي[388] :

لئن كانت الـــدُّنيا تُعَـــد نفيـــسةً فـــدار ثـــوابِ الله أغلـــى وأنبـــلُ
وإن كانت الأبدانُ للموتِ أنشئتْ فقتْل أمرىٍ بالسَّيفِ في الله أفـــضلُ
وإن كانت الأرزاقُ شيئاً مُقـــدَّراً فقلة سعي المرء في الرزقِ أجْمـــلُ
وإن كانت الأموالُ للتَّرك جُمعَـــتْ فما بال متروكٍ بـــه المـــرءُ يَبْخـــلُ

أما عمران بن حطان الخارجي فيذكر بيوم القيامة وفيه يتوجه فريـــق إلـــى الجنة وفريق إلى النار ولكن المنزلين لا يستويان وكذلك الأعمـــال تختلـــف فهمـــا فريقان فريق إلى الجنة التي تحف بها الحدائق ، وفريق إلى النـــار وبـــئس القـــرار يقول[389]:

هما فريقان: فرقةٌ تدخلُ الجنة حفـــــتْ بهـــــم حـــــدائقُها
وفرقةٌ منهم قد أدْخلت النـــــ ـــــارَ فـــــشانتهُمُ مرافقُهـــــا
من لم يمُت عبْطة يمُت هرعـــاً للمْـــوْتِ كـــأسٌ والمـــرءُ ذائقُهـــا
ما رغبة النفس في الحياة وإن عاشـــت قلـــيلاً فـــالموت لا حقُهـــا
وأيقنـــت أنهـــا تعُـــودُ كمَـــا كـــان بَرَاهـــا بـــا لأمـــس خالقهـــا

---

[388] ابن كثير 209/8 ، وتهذيب ابن عساكر 325/4.

[389] شعر الخوارج 30، والكامل 71/1 ، والعقد 187/3 والأغاني (دار الكتب) 199/4 ، وحياة الحيوانالكبرى 403/2، وذيـــل الأمالي 26 ، وعيون الأخبار 374/6.

وأن مـــا جمَّعَـــتْ وأعْجبهـــا مـــن عَيـــشِها مَـــرَّةٌ مفارقُهـــا

3- التوكل على الله:

يعد التوكل على الله من أعظم العبادات القلبية ، وهو من لوازم الإيمان قال تعالى: "وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين" وكلما زاد إيمان المرء بربه، وتقربه إليه كلما زاد توكله على الله، واعتماده عليه، والتجاؤه إلى ساحته. فالمتوكل يلتجئ إلـــى الله في كل أموره كما يلتجئ الطفل إلى أبويه في كل أموره ، ويشيع التوكـــل فـــي نفس المتوكل سكوناً وطمأنينة ورضا لأنه يعتمد على ربه الذي بيده ملكوت كل شئ القادر على كل شئ، القادر على كفاية من توكل عليه، ويتضح هذا المعنى في قوله جل وعلا "ومن يتوكل على الله فهو حسبه" ويقف الله بالتأييد والمـــساندة مـــع مـــن يتوكل عليه ، ويلوذ بذاته العلية، ويُلتجأ إلى ساحة رحمته التي وسعت كل شئ قـــال تعالى. "ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم".

ويروى عن متوكلي عصر بني أمية طائفة من المبادئ والنظريـــات تبـــين مقدار ازدرائهم للعمل ، والسعي لكسب القوت، وسد حاجات العيش لأنهم يرون في الكد والسعي فقداناً للتوكل، ونقصاً في الثقة بالله. ويرون اللجـــوء لله مباشـــرة فـــي قضاء ما يحتاجون إليه دون الاستعانة بالوسائط.

وبالنظر إلى هذه المبادئ نفهم بيت الحسين بن علي في القصيدة التي سبقت منذ قليل والذي يقول فيه:

وإن كانت الأرزاق شيئاً مقدارا فقلـــة ســـعي المـــرء فـــي الـــرزق أجمـــل

ويكرر شعراء الزهد في العصر الأموي فكرة إتيان الرزق حتى دون سعي وراءه ، وكد للحصول عليه ، وعدم التفكير في رزق الغد، بل عد بعـــضهم مثـــل

سفيان بن عيينة للتفكير في رزق غد يكتب على الإنسان خطيئة[390] ، ويصور هذه المعاني عروة بن أذينة في قصيدة رائعة نقتطع منها هذه الأبيات فيقول[391] :

لقد علمت – وما الأشراف من خلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له ، فيُعنيِّني تطلُّبهُ ولو قعدْت أتاني لا يعُنيني[392]
وأن حظ امرئٍ غيري سيبْلغهُ لابُدَّ لا بدَّ أن يحتازهُ دوُني
خيمي كريمٌ ، ونفسي لا تحدِّثني أن الإله بلا رزق يخلِّيني[393]

فمفهوم الزهاد عن التوكل يبدو واضحاً في الأبيات السابقة فرزق الشاعر سيأتيه حتى ولو قعد عن طلبه ولماذا يسعى له ما دام التعب والنصب من وراء هذا السعي ، فالرزق مكتوب وكل امرئ سينال حظه في الحياة ، والله لا يترك إنساناً دون أن يرزقه.

وفي نصيحة يتوجه بها الحسين بن علي إلى الناس كي يستغنوا في طلب الرزق عن المخلوق يقول[394]:

اغن عن المخلوق بالخالق تغْن عن الكاذب والصادق
واسْترزق الرحمن من فضله فليس غيرُ الله من رازق
من ظن أن الناس يُغنونهُ فليس بالرحمن بالواثق
أو ظن أنَّ المالَ من كسْبهِ زَلتْ به النَّعلانِ من حالق[395]

---

[390] تذكرة الحفاظ للذهبي (حيدر أباد) 8/3.

[391] الأغاني 342/7 ،وأمالي المرتضى 408/1 ، وفوات الوفيات 74/2، ومجموعة المعاني 68 ، ومجالس ثعلب 433/2 ، والشعر والشعراء 579/2، وعيون الأخبار 185/3، وكالعقد الفريد 205/3 ، وشرح نهج البلاغة 274/1 ، والمؤتلفة والمختلف 69 ، والمحاسن والمساوئ 286.

[392] العناء: التعب والنصب.

[393] الخيم: الطبائع والسجايا.

[394] تهذيب ابن عساكر 324/4، وابن كثير 209/8.

[395] حالق: مكان مرتفع شاهق ، زلت به النعلان من حالق: أخطأ خطأ كبيرا يوشك أن يهلكه كما يهلك من زلت به قدمه من مكان مرتفع.

فعليك أن تسترزق الرحمن وأن تغن بربك عمن سواه ،وبذلك تغن عن الكاذب والصادق من البشر فليس غير الله من رازق ، وكل من يظن أن الناس يغنونه فمعنى هذا أنه لا يثق بربه ،وكل من ظن أن ما أحرزه من مال من كسبه وباجتهاده أخطأ خطأ كبيراً يوشك أن يهلكه كما يهلك من زلت قدمه من مكان مرتفع.

ومن التوكل على الله والثقة به أن تدع سؤال العبد وتسأل ربك يقول أبو الأسود الدؤلي[396]:

وإذا طلبتَ من الحوائج حاجةً فادْع الإلهَ وأحْسِن الأعمالا

فليُعطينكَ ما أراد بقُدْرَة فهو اللطيفُ لما أرادَ فعالا

إن العِبادَ وشأنهم وأمورَهُمْ بيد الإله يقَلبُ الأحوالا

فدَع العبادَ ولا تكن بطلابِهِمْ لهجا تضعضَعُ للعباد سُؤالا[397]

فربك الذي يقضي حاجتك فأحسن العمل ثم ادعوه فهو الرزاق، وهو العاطي، وهو اللطيف، وجميع أمور العباد بيد الله يقلبها كيفما شاء، وأنى شاء، وما دام الأمر كذلك فعليك ألا تلهج بسؤال للناس بل توجه السؤال لمن يملك الإجابة.

4- الدعوة إلى تقوى الله:

يدور كثير من أدب الزهد حول دعوة المسلمين إلى التقوى والتقرب إلى الله بصالح الأعمال ، ويسبق القرآن الكريم أدب الزهد في دعوته إلى التقوى، وبيان منزلة المتقين من مثل قوله جل وعلا: "ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب" فالتقوى حصن للإنسان من هوى النفس، وهي تخلص الإنسان من عبودية اللهو ، ورق الصبا، وهي الرداء الذي يلبسه الإنسان ليحفظ على نفسه كرامتها وإنسانيتها، وهي الغنيمة الكبرى والطريق الموصل إلى الكمال وصفاء العيش.

---

[396] ذيل ديوانه (ياسين) عن الأغاني 301/12.

[397] لهج بالسؤال: أصر عليه وألح وثابر .. تتضعضع: حذفت التاء الأولى.

ومن الدعوة إلى تقوى الله نصيحة عبد الله بن مروان إلى الحجاج وإلى العراق وكان عبد الملك كتب إليه كتاباً يأمره فيه بالتوفير والاقتصاد وعدم الإسراف وأنشد فيه هذين البيتين[398]:

عليك بتقوى الله في الأمر كلـهِ وكنْ يا عبيد اللهِ تخشى وتضرعُ

ووفرْ خراجَ المسلمينَ وفيأهُمْ وكُنْ لهُم حِصناً تجيرُ وتمنعُ[399]

أما الفضل بن العباس فيرى أن من الحزم تقوى الله، ومن يتق الله يرشد، وأن خير الأمور تقوى الإله يقول[400]:

والحزمُ تقْوى اللهِ فاتَّقـهِ ترْشُدْ وليس لفاجرٍ حَزْمُ

خيرُ الأمورِ مغَبَّةً وشهادةً تقْوَى الإلـه وشرُّها الإثمُ

والتقي من طاب طعامه وطاب ما يجني فيكون رزقه من حلال وكسبه من حلال، ومأكله من حلال، وملبسه من حلال، لا ينطق إلا كلاماً حف بالعصمة وشيد بالتأييد يقول الإمام الأوزاعي[401]:

ليس التقيُّ بمتقٍ لإلهـهِ حتَّى يطيب شرَابُه وطَعامُهُ

ويطيبُ ما يجني ويكْسبُ أهْلهُ ويَطيبَ من لفْظِ الحديثِ كلامُهُ[402]

نطقَ النبيُّ لنا بِه عَنْ رَبهِ فعلى النبيّ صَلاتُهُ وسلامُهُ

والتقوى تنهى عن اللذات ، وتزجر عن المعاصي ، يقول النابغة الشيباني[403]:

وتعجبني اللَّذَّاتُ ثم يَعُوجُني ويَسترني عنها من اللهِ ساترُ

ويزْجُرُني الإسْلامُ والشَّيْبُ والتُّقى وفي الشَّيبِ والإسلامِ للمرء زَاجرُ

---

[398] ابن كثير 126/9.

[399] الفئ: الخراج أو الغنيمة.

[400] حماسة البحتري 161.

[401] آدب الدنيا والدين 144.

[402] يكسب أهله: ينفق عليهم.

[403] ديوانه 16 ، وحماسة البحتري 223.

5.الدعوة إلى الصلاة:

حرص شعراء الزهد على أن يدعو في شعرهم إلى الصلاة فالصلاة عمود الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن تركها وأعرض عنها فقد هدم الدين وهي كما أخبرنا الله عنها "تنهى عن الفحشاء والمنكر" يقول وضاح اليمن مخاطباً نفسه ينهاها عن الغزل ويذكرها بالموت ويحثها على الصلاة لعله بذلك يسلك طرقاً تنجيه يوم العثار[404]:

مالكَ ، وضَّاحُ دائم الغزلِ؟ ألسْتَ تخْشَى تقَارُب الأجَلِ؟
صلّ لذى العرْشِ واتخِذْ قدماً تُنجيك يومَ الْعِثارِ والزَّلَلِ

ويدعو مالك بن دينار إلى التهجد بالقرآن فالصلاة في جوف الليل خير من النوم يقول[405]:

أألهتكَ اللذائذُ والأماني عن البيض الأوانسِ في الجِنانِ؟
تعِيشُ مُخلَّداً لا موتَ فيها وتلهُو في الجنانِ مع الحِسانِ
تَنَبَّه من مَنامِكَ إن خَيْراً من النَّومِ التهجُّدُ بالقرانِ

وينصح نصر بن سيار معاداة من لا يصلي فهو غير خليق بالصداقة يقول[406]:

فامنحْ جهادَك منْ لمْ يَرْجُ آخرةً وكن عَدُواً لِقَومٍ لا يُصَلُّونا

ويطلب شريح القاضي إلى مؤدب ولده أن يعظه بالالتزام بالصلاة فقد تركها الغلام لأنه انشغل بالهراش مع الكلاب والغواة يلعب معهم يقول له[407]:

ترك الصلاة لأكْلُبٍ يلهو بها طَلبَ الهراش مع الغُواةِ الرُّجَّس[408]

---

[404] الأغاني 229/6 ، وعيون الأخبار 374/2.

[405] أحياء علوم الدين 367/1.

[406] الطبري 100/7.

[407] الحيوان 84/2 ، وابن كثير 25/9 ، وتهذيب ابن عساكر 313/6 ، وحلية الأولياء 137/4.

[408] الهراش . التحريش . الرجس: الآثمين.

وليأتينـــك غاديـــاً بـــصحيفةٍ يَغدُوبها كـصحيفةِ "المـتَلمِّس"[409]

فـــإذا خلـــوتَ فعَـــضَّه بملامـــةٍ أوعِظهُ موْعظة الأديب الأكيَس[410]

وإذا هَممـــتَ بـــضربِه فبـــدرَّةٍ وإذا ضربتَ بهـا ثلاثـاً فـاحبس

واعلـــم بأنـــكَ مـــا فعلـــتَ فإنـــه مع ما تُجَرِّعُنـــي أعـــزُّ الأنفـــسِ

ولم يكن إنشاد شعر الزهد قاصراً على الزهاد فحسب بل وجدنا **كثيراً مـــن الخلفاء والولاة والفقهاء والقضاة** ينشدون في الزهد أيضاً.

فمن الخلفاء نجد عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين يكتب إلـــى الحجـــاج وإلى العراق يدعوه إلى تقوى الله والاقتصاد في مال المسلمين يقول[411]:

عليك بتقوى الله في الأمـــر كُلـــه وكنْ يا عُبيد اللهِ تخشَى وتضرعُ

ووفِّر خراج المـــسلمين وفيْـــأهُمْ وكنْ لهُم حِصناً تُجيـــرُ وتمنـــعُ

عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد فما قاله من شعر في الزهد أكثر من أن يعد فهو يدعونا إلى الوقوف بالمقابر للنظر والعبرة فيقول[412]:

انظرْ لنفْسك يا مسْكين في مهـــل ما دام ينفْعُـــك التفَّكيـــرُ والنظـــرُ

قف بالمقابر وانظُرْ إنْ وقفْت بها لله دَرُّك ! مـــاذا تـــسْترُ الحفـــرُ

ففيهمُ لك يـــا مغْـــرُورُ توعظـــةٌ وفـــيهمُ لـــك يـــا مُغْتـــرُّ معتبـــرُ

ومن الولاة الذين أنشدوا في الزهد نصر بن سيار والـــى خراســـان الـــذي يقول[413]:

دع عنك دُنيا وأهلاً أنـــت تـــاركهم ما خيْرُ دنيا وأهـــل لا يـــدُومونا؟

---

[409] الملتمس: شارع جاهلي معروف ، وصحيفته مثل في الشؤم.

[410] عضه: الزمه.

[411] ابن كثير 126/9.

[412] شرح المقامات 217/1.

[413] الطبري 100/7.

إلا بقيـــة أيـــامٍ إلـــى أجـــل فاطلب من الله أهـلاً لا يموتُونـا

كما وجدنا شعراً للفقهاء قالوه في الزهد من ذلك قول الأوزاعي [414]:

المـــالُ ينفـــد حِلـــهُ وحرامـــهُ يومـــاً ويبقـــى بعـــدهُ آثامـــهُ

لـــيس التقـــي بمتـــق لإلهـــه حتـــى يطيـــب شـــرابهُ وطعامـــهُ

ويطيب ما يجني ويكـسب أهلـهُ ويطيب من لفظ الحـديث كلامـهُ

نطق النبي لنـا بـه عـن ربـه فعلى النبـي صـلاته وسـلامهُ

كما وجدنا القضاة ينشدون في الزهد منهم عبد الله بن شـبرمة ، وشـريح القاضي ، والشعبي الذي يقول[415]:

أرى أناساً بأدنى الدين قد قنعُـوا ولا أراهم رضُوا بالعيش بالـدُونِ

فاستغن بالله عن دنيا الملوك كمـا استغنى الملوكُ بدُنياهم عن الدين

ونجد اتجاه الزهد عند غالبية شعراء الخوارج استمع إلى قول عمران بن حطان:

حتى متى تسقى النُفوس بكأسِـهَا ريبَ المنون؟ وأنـت لاهٍ ترتَـعُ؟

أفَقَدْ رضيت بـأن تُعلَّـل بـالمنى وإلى المنيـة كـل يـومٍ تُـدفعُ؟

أحـلام نـوم ، أو كظـل زائـل إن اللبيـب بمثلهـا لا يخـدعُ

فتـزودن ليـوم فقـرك دائمـاً واجمع لنفسك لا لغيـرك تجمـعُ

وأهم هذه الخصائص يمكن أن نجملها فيما يأتي:

6- <u>الأدعية والابتهالات والمناجاة:</u>

اتخذت قصيدة الزهد في كثير من الأحيان شكل الدعاء إلـى الله والابتهـال إليه ومناجاته ، وهي أدعية وابتهالات فيها خوف من عذاب الله وعقابـه، وسـكون إلى رحمته ومغفرة فهذبة بن الخشرم يقول قبل مقتله متوجها على ربه[416]:

---

[414] أدب الدنيا والدين 144.

[415] تهذيب ابن عساكر 155/7 ، وحلية الأولياء 376/6.

[416] الكامل 78/4 ، وشرح شواهد المغنى 778/1.

إذا العرش ، إني عائذٌ بك مــؤمنٌ مُقِــرٌّ بزلاتـــي ، إليــك فقيــرُ

وإني وإن قــالوا: أميــرٌ مــسلطٌ وحَجَــابُ أبــواب لهــن صــرير

لا علم أن الأمر أمــرُك: إن تُــدِنْ فرب وإن تغفر فأنــت غفــور[417]

فهدبة يعوذ بربه ويعترف بزلاته وفقره إليه ، وهو يعترف بأن لا ســلطان إلا الله ولا أمر إلا لله فهو إن شاء جازى وإن شاء عفا وغفــر ، ولا عجــب فهــو الغفور الرحيم.

ويتوجه عمرو بن أجمر الباهلي وهو على فراش المرض إلى ربــه يــسأله الشفاء والعافية فيقول[418] :

إليك إلــه الحــق أرفــعُ رغبتــي عياداً وخوفــاً أن تطيــل ضــمانيا[419]

فإن كان برءاً فأجعلِ البُرءَ نعمــةً وإن كان فيضاً فاقض ما أنت قاضيا[420]

لقاؤك خير مــن ضــمان وفتنــةٍ وقــد عــشت أيامــا وعــشت لياليــا

شربنا وداوينا وما كــان ضــرنا إذا الله حـــم القـــدْرَ إلا "تُـــداويا"

وجحدر اللص أحد لصوص العرب الشعراء يلجأ إلى ربه في حبسه وكــان الحجاج قد أخذه بجريرة يطلب من ربه المغفرة ، مستجيراً برب العرش بعــد مــا أصابه من خوف وفزع يقول[421]:

إنــي دعوتــك يــا إلــه محمــدٍ دَعْوى فأولهــا لــي اســتغفارُ

لتُجيرني من شر مــا أنــا خــائفٌ ربِّ البرية لــيس مثلــك جــارُ

تقــضي ولا يقــضى عليــك وإنمــا ربــي بعلمــك تنــزلُ الأقــدارُ

---

[417] تدن: تجازي.

[418] الشعر والشعراء 356/1.

[419] الضمان: المرض من زمانة أو بلاء أو كسر أو غيره.

[420] الفيض: الموت.

[421] ذيل الأمالي 172.

الخصائص الموضوعية والفنية في شعر الزهد:

يمكن لدارس شعر الزهد في العصر الأموي أن يستقرئ بعض الخصائص الموضوعية والفنية التي تبدو فيما وصل إلينا من شعر الزهد الذي قيل في هذه الفترة.

إن ذنبي وزنُ السماوات والأرض وظني بخالقي أن يُحابيِ[422]

فلئن من بالرضا فهو ظني ولئن من بالكتابِ عذابي

لم يكن ذاك منه ظلماً وهلْ يظلم رُب يرجى لحسنِ المآبِ

وذو الرمة يناجي ربه عندما حضرته الوفاة وأشرفت نفسه على الصعود إلى بارئها مبتهلا إليه يغفر ذنبه ويدخله الجنة و يزحزحه عن النار يقول[423] :

يارب قد أشرَفَت نفسي وقد عَلِمَتْ علماً يقيناَ لقد أحصيت آثاري

يا مُخرج الروحِ من جسمي إذا احتضرتْ وغافر الذنب زحزحني عن النارِ

ونختم بأبيات رابعة العدوية المتوفاة سنة 135 هـ في مناجاتها لربها ، وهي أبيات مشهورة تروى في الحب الإلهي تقول فيها[424] :

أحبُكَ حُبَّيْن: حُب الهوَى وحبا لأنكَ أهلٌ لذاكا

فأما الذي هو حُبُ الهَوَى فشُغلي بذِكرِكَ عمن سِوَاكا

وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحُجْبَ حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاكَ لي ولكن لكَ الحمدُ في ذا و ذاكا

- **انتشار الرجز:**

يلاحظ الدارس مشاركة الرجز لشعر القصيد في التعبير عن موضوعات الزهد في ذلك العصر، والرجز لون من الشعر قديم عرفه العرب منذ أيام الجاهلية، بل

---

[422] يحابي : يعطي . وهنا بمعنى المغفرة.

[423] ذيل ديوانه 667 ، وشرح المغنى 142.

[424] أحياء علوم الدين 302/4 ، وشرح المقامات 45/4 ، وقوت القول 84/2 ، وشرح نهج البلاغة 554/2 .

كان لوناً سائداً في العصر الجاهلي. ويختلف رجز العصر الأموي عن رجز العصر الجاهلي في الموضوع فمعاني رجز العصر الأموي معاني إسلامية، كما أنه يشارك رجز العصر الجاهلي من حيث سهولة النسج وضآلة العناية الفنية.

ومن الرجاز المشهورين العجاج وله أرجوزة طويلة في ديوانه منها[425]:

فالحمد لله الذي قد أنعما

على "أبي الشعثاء" نعمى ثم ما

بدلها إلاَّ بإحْسان كما

أتم نُعْماهُ على مَنْ أسلما

لا أشتمُ من الكريم المسلِما

ولا أرى شتْمَ البرئ مَغْنَماَ

[425] ديوانه 261.

ويوظف رؤبة بعض أراجيزه للتعبير عن الزهد كما فعل أبوه العجاج من قبل يقول رؤبة[426] :

فأيُّهـــا الغَاشـــي القِـــذافَ الأتبْعـــا
إن كنـــت لله التقـــي الأطوعـــا
فلـــيس وجـــهُ الحـــقّ إن تبـــدَّعا
وقـــد أراك اللهُ حقـــاً مقتنِعـــا
مـــا كـــالتقى زادٌ لمـــن تمتعـــا
وخيـــر مـــا دَرعَ علـــمٌ ورعـــا
ذا الحِلـــمِ أن يـــأثم أوْ أنْ يطمْعـــا

ويعبر قطري بن الفجاءة عن مذهبه في الحياة فهو يعشق الاستشهاد ويقدم عليه غير هياب ولا وجل ، كما أنه لا يفر من ساحة الحرب ويسأل ربه زيادة الورع والتقى والزهد في الحياة يقول[427]:

حتـــى متـــى تُخْطِئنـــي الـــشهادةْ؟
والمـــوت فـــي أعناقنـــا قـــلادة
لـــيس الفـــرارُ فـــي الـــوغي بعـــادةْ
يـــارب زدنـــي التقُـــى عبـــادةْ
وفـــي الحيـــاة بعـــدها زَهـــادةْ

وشعر الرجز الذي قيل في الزهد فترة العصر الأموي أكثر من أن يحصى في هذه الدراسة القصيرة ولكن حسبنا على سبيل المثال أن نشير إلى بعض ما

---

[426] ديوان رؤبة (مجموع أشعار العرب) 87 ،88.
[427] الأخبار الطوال 277.

عثرنا عليه في أثناء مراجعاتنا مثل ما يروى الحسين بن علي[428] ، وخالد بن عبد الرحمن بن خالد[429] ، وعبد الله بن الزبير[430]، وشريح بن هاني[431] ، وعبد الله بن حنظلة الأنصاري[432] ، وخالد بن يزيد[433]وغيرهم كثير.

3- <u>السهولة:</u>

يتضح لمن يطالع شعر الزهد في عهد بني أمية سهولة هذا اللون من الشعر ووضوحه ، ويقترب الشعراء في صياغة هذا الشعر من الصياغة النثرية ، كما يأتي كثير من قصائدهم على هيئة عظات أشبه ما تكون بالخطب الوعظية الدينية وليس فيها من الشعر سوى الوزن والقافية . أما الخيال وأما العاطفة وغير ذلك من الألوان الفنية التي تميز الشعر من النثر فإنها كلها أشياء لا يقف هؤلاء الشعراء عندها، ولا يعتمدون عليها في تعبيراتهم فالحديث واضح قريب إلى العقل ليس فيه شئ من الغموض الفني أو الظلال الفنية ، بل ليس فيه شئ من البراعة في توزيع الظلال والأضواء توزيعاً يجعلك تشعر أنك أمام عمل فني يقول الحسين بن علي في الزهد[434] :

اغن عن المخلوق بالخالق تَغْنَ عن الكاذب والصادق

واسترزق الرحمن من فضله فليس غير الله من رازق

من ظن أن الناس يغنونه فليس بالرحمن بالواثق

أو ظن أن المال من كسبه زلت به النعلان من حالقِ[435]

---

[428] أدب الدنيا والدين 223.

[429] الطبري 228/5 ، وتهذيب ابن عساكر .

[430] حلية الأولياء 333/1 ، وتهذيب ابن عساكر 415/7 ، وابن كثير 344/8 ، وفوات الوفيات 34/1 ، وتاريخ الإسلام 174/3.

[431] الطبري 323/6 ، وابن الأثير 451/4.

[432] الطبري 490/5 ، وأنساب الأشراف 37/2 ، وابن الأثير 177/4.

[433] العقد الفريد 232/2.

[434] تهذيب ابن عساكر 324/4 ، وابن كثير 209/8.

[435] حالق: مكان مرتفع شاهق ، وزلت به النعلان من حالق: أخطأ خطأ كبيرا يوشك أن يهلك من زلت به قدمه من مكان مرتفع.

4- انتشار الحكم:

تنتشر الحكم الأخلاقية في شعر الزهد في عصر بني أمية انتشاراً واسعاً ، وقد يأتي الشاعر بمقطوعة تشتمل كل أبياتها على حكم أخلاقية ، كما قد يأتي بها في أثناء قصائده ومقطوعاته وأحياناً في مطالعها أو خواتيمها.

وأكثر ما تكون المقطوعات في موضوع واحد لا تكاد تتجاوزه إلى غيره، وأكثر ما تكون القصيدة في موضوعات شتى قد تترابط أحياناً ويتصل بعضها ببعض، وقد تنقصم عراها أحياناً وتبدو وكأنها كومة من الحكم والأمثال.

ويبدو شعراء الزهد في حكمهم بمظهر الحكماء المجربين الذين خبروا الحياة ومن أجل ذلك فهم يقدمون خلاصة تجاربهم في الحياة لبني جنسهم ليصلوا بهم إلى سعادة الدنيا والآخرة.

وقد يطيل الشعراء في هذه القصائد بحيث يحرصون على التفاصيل وأحيانا يقدمون هذه الحكم في صورة مركزة مختصرة تجري مجرى الأمثال ، ولكنها تأخذ صورة تعليمية تهدف إلى إصلاح النفس وتهذيبها وتقويمها ، وعلاج المجتمع من عيوبه وأدوائه.

ومن المقطوعات المستقلة في الحكم قول الحسين بن علي[436]:

لئن كانت الدنيا تعد نفيسة فدار ثواب الله أغلى وأنبلُ
وإن كانت الأبدانُ للموتَ أنشئتْ فقتل امرئٍ بالسف في الله أفضلُ
وإن كانت الأرزاق شيئا مُقدراً فقلة سعي المرء في الرزق أجملُ
وإن كانت الأموال للترك جمعت فما بال متروكٍ به المرءُ يبخلُ

ويدخل في اشتمال بعض أبيات القصيدة على حكم قول النابغة الشيباني[437]:

---

[436] ابن كثير 209/8 . وتهذيب ابن عساكر 325/4.

[437] ديوانه 16.

الفصل الرابع(*)

النثر الفني وتطوره في العصر الأموي

(*) العصر الأموي: د. شوقي ضيف.

ازدهار الخطابة

أسهمت عوامل كثيرة في ازدهار الخطابة لعصر بني أميـــة، إذ كانـــت لا تـــزال للعرب سلائقهم اللغوية ولم تفسد ألسنتهم بمجـــاورة الأمـــم الأجنبيـــة والاخـــتلاط بشعوبها، وكانوا من بلاغة المنطق وحسن البيان وجودة الإفصاح والإفهام بحيـــث يستطيع متكلمهم أن يبلغ ما يريد من استمالة الأسماع مع الديباجة الرائعة والرونـــق البديع.

وقد وقف الجاحظ طويلاً في كتابه البيان والتبيين يشيد بقدرتهم الخطابية، وبلغ مـــن إشادته بهذه القدرة أن رفعهم في الخطابة على جميع الأمم، حتى الفرس واليونـــان، وهو محق في تقديمه لهم على الفرس، أما اليونان فمـــن المعـــروف أن الخطابـــة بأنواعها السياسية والقضائية والحفلية نشطت عندهم نشاطاً واسعاً، وأنه اشتهر بينهم غير خطيب مثل ديموستين، وتُوِّج هذا النشاط بكتـــاب الخطابـــة لأرســـطاطاليس. ويظهر أن الجاحظ لم يكن يعرف شيئاً من ذلك، ومن ثم مضى يقدم الفـــرس علـــى اليونان في الخطابة ،ومما لاشك فيه أنهم يتخلفون عنهم وعن العرب جميعـــاً فـــي مضمار هذا الفن من فنون النثر القولي.

وعوامل مختلفة هيأت للخطابة العربية أن تبلغ في هذا العصر كل ما كان ينتظر لها من نشاط وازدهار، بالإضافة إلى ما ذكرناه من مواهبهم البيانية، ومن الممكـــن أن نردها إلى السياسة والمحافل والدين، فأما من حيث السياسة فإن هذا العصر امتـــاز بظهور معارضة حادة فيه للدولة الأموية، وهي معارضة كانت تدور كما مر بنا في غير هذا الموضع على الخلافة وهل تقصر على بني أمية أو تكـــون حقـــاً شـــائعاً للمسلمين جميعاً، أو ترد إلى بني هاشم وأبناء علي خاصة، أو تكون حقـــاً للعـــرب، فلا تختص بها قريش.

وكان الأمويون وولاتهم من مثل زياد والحجاج لا يزالون يقررون أنها حـــق لهـــم وأن الله اصطفاهم ليقودوا العرب والمسلمين ويحكموهم بـــشريعته. وانبـــرى لهـــم الخوارج يصيحون منذ خروجهم على علي بن أبي طالب بأن الخلافـــة حـــق عـــام

للمسلمين، يتولاها خيرهم زهداً وتقوى وورعاً، ولو كان غير قرشي، بل لو كان غير عربي.ومضوا يحاجون في أول الأمر علياً وابن عباس، ثم أخذوا يحاجون ابن الزبير، واختلفوا فيما بينهم وانقسموا فرقاً وطرائق قدداً، فكان منهم الأزارقة والنجدات والصفرية والإباضية، وأخذ كل فريق يحتج لرأيه مستعيناً بدقة مداخله في حجته.

ومنذ قيام علي بالكوفة ظهرت من حوله جماعة ترى أنه هو وأبناءه أصحاب الحق الشرعي في الخلافة. ويتوفى علي، فيدعون للحسن، ويخيب ظنهم فيه حين يتنازل عن الخلافة لمعاوية. ولا تهدأ ثائرتهم، فيطلبهم زياد بن أبيه، وقصته مع حجر بن عدي مشهورة. ويتوفى معاوية، **فتكتب شيعة الكوفة** إلى الحسين، ويتجه إليهم، ولكنه يقتل بكربلاء دون غايته. ويتوفى يزيد ابن معاوية، فتنشب حركة التوابين، يقودها سليمان بن صرد، وتبوء بالخذلان. حينئذ يتولى قيادة الشيعة هناك المختار الثقفي، وما يزال يخطب ويدعو حتى يجتمع عليه خلق كثير، ويتجرد له مصعب بن الزبير، فيقضى عليه قضاء مبرماً. ونمضي إلى القرن الثاني فيظهر زيد بن علي بن الحسين، ويثور، وسرعان ما يقضى عليه.

ويتكون في هذه الأثناء حزب عبد الله بن الزبير، ويظل نحو ثماني سنوات، وكان هذا الحزب يدعو إلى عودة الخلافة إلى الحجاز وأن يتولاها أحد أبناء كبار الصحابة من قريش، لا هؤلاء الأمويون الذين حولوا الخلافة إلى دمشق وأخذوا هناك يحكمون الناس مستندين إلى القبائل اليمنية الشامية. وبذلك ضاع الحكم من قريش ومن الحجاز جميعاً.

وكان كثير من سادة العرب وأسرها النبيلة يرى أن الخلافة ينبغي أن لا تقصر على قريش وأن ترد إلى العرب قاطبة، وبلغ هذا الشعور قمته في الكوفة، فانبرى عبد الرحمن بن الأشعث الكِنْدي يعبر عنه في ثورته على الحجاج، تؤيده بلدته، ولكن ثورته باءت بالفشل. ولا نصل إلى أوائل القرن الثاني حتى يثور نفس الثورة يزيد بن المهلب، وتدور عليه الدوائر.

ودائماً تلقانا في صفوف هذه المعارضة خطابة كثيرة، إذ يمتشق الخطباء ألسنتهم في تصوير مذاهبهم السياسية، يدعون لها، كما يدعون للانتقاض على بني أمية. وكان يلقاهم أنصار الأمويين بخطابة ملتهبة، يصورون فيها خروجهم على الجماعة وشغبهم وأنهم يضلون الطريق. وكل ذلك هيأ في قوة لنشاط الخطابة السياسية، ومن الممكن أن نضيف إلى هذا الجانب خطابة القواد في الجيوش الغازية شرقاً وغرباً، إذ قلما احتدمت معركة إلا احتدم معها الشعر والخطابة. ومن الممكن أيضاً أن نضيف ما احتدم بين القبائل من خصومات قبلية جعلتهم يقتتلون كما جعلتهم يخطبون متوعدين منذرين على نحو ما مر بنا في خصومات قيس من جهة وتغلب والقبائل اليمنية من جهة ثانية سواء في الشام أو في الجزيرة، وكذلك خصومات تميم والأزد في البصرة، وما اندلع من ألسنة هذه الخصومات جميعاً في خراسان. وهي – كما قدمنا- خصومات كانت تختلط فيها العصبيات القبلية بالسياسة وموقف القبائل من بني أمية ونصرتهم لهم أو انفضاضهم عنهم.

وإذا تركنا السياسة وأحزابها وأحداثها **إلى المحافل** ووفودها وجدنا لذلك آثاراً قديمة منذ الجاهلية، وقد أخذت هذه الوفود تكثر منذ حياة الرسول r ، وخاصة بعد فتح مكة. ولما فتحت الفتوح ومصرت الأمصار واستبحرت الدولة واتسعت كان يقدم على الخلفاء الراشدين من ينبئوهم بالفتح، ومن يذكرون لهم حاجة قومهم في المصر الجديد. وندخل في عصر بني أمية، فتتحول هذه الوفود إلى سيول، تقصد قصور الخلفاء وقصور الولاة، متحدثة في شئون قومها، واشتهر معاوية باستقدامه الوفود من الأمصار باستقدامه الوفود من الأمصار حين تعف له فكرة سياسية كفكرة تولية ابنه يزيد الخلافة من بعده وكانت هذه الوفود تنوب عن أقوامها في بيعة الخليفة الجديد وفي بث شكواها حين يلم بها ما يوجب الشكوى. وانبثقت في هذه الأثناء خطب التهنئة والتعزية. وكانوا يسمون محافل هذه الوفود باسم المقامات، وفي العادة كان ينوب عن القوم في هذه المقامات سيدهم الذي يصدرون عن رأيه.

ويتصادف في بعض الأحيان أن تجتمع وفود مختلفة، حينئذ يتبارى خطباؤها، ويحاول كل منهم أن يكون له قصب السبق في البيان والفصاحة.

وبجانب المحافل والسياسة دفع الإسلام إلى نشاط **واسع في الخطابة**، إذ جعلها جزءاً لا يتجزأ من صلاة الجمعة والعيدين، فأيان رَكَزَ الإسلام أعلامه انتصبت المنابر في المساجد كي يعظ الخطباء الناس بالمواعظ الحسنة، يسهم في ذلك الخلفاء والولاة، وجمهور كبير من الخطباء. ولم تلبث جماعة أن عاشت حياتها تعظ الناس مستلهمة هدى القرآن الكريم وتعاليم الرسول r ، وكثر أفراد هذه الجماعة في كل مصر، وكثر بجانبهم جماعة من القصاص، كانوا يقصون على الناس مازجين قصصهم بتفسير آي الذكر الحكيم وبكثير من مخلفات أهل الكتب السماوية وتراثهم الديني. وكانوا يستهوون الناس بما يوردون عليهم من أخبار عجيبة، وكان نفر منهم يتزيد في هذه الأخبار تزيداً شديداً، مما جعل كثيرين من زهاد الأمة ونساكها ينفرون منهم، وخاصة حين رأوا معاوية وخلفاءه يستغلون بعضهم للدعوة لهم والإزراء على خصومهم[438]، فارضين لهم رواتب ومكافآت شهرية[439]. ولعل من الطريف أن هؤلاء القصاص كانوا ينبثون في الجيوش لتحميس الجند على القتال، كما كان ينبث معهم جماعة من الوعاظ، وفي الطبري نصوص تدل على ذلك كثيرة، إذ نجد عتاب بن ورقاء حين نازل شبيباً الخارجي يقص على جنده محمساً لهم[440] كما نجد قتيبة بن مسلم في خراسان يسأل عن واعظ جنده محمد بن واسع الأزدي الناسك المشهور[441]. ولم يكن ذلك قاصراً على جيوش الدولة، فقد كان الخوارج يذهبون نفس المذهب، ومن كبار قصاصهم صالح بن مسرح الصُّفري،

---

[438] انظر حاشية الولاة والقضاة الكندي ص 204 وخطط المقريزي (طبعة بولاق) 253/2

[439] الولاة والقضاة ص 317

[440] طبري 89/5

[441] البيان والتبيين 273/3

وفي الطبري طرف من قصصه[442]، وكذلك كان يصنع أصحاب الثورات على نحو ما نعرف عن جَهْم بن صفوان وصنيعه في فتنة الحارث بن سريج بخراسان[443].

وفي هذه البيئة الدينية، بيئة الوعظ والقصص، أخذ يتضح رقي العقل العربي بما أصاب من كنوز الثقافات الأجنبية، فإذا جدل كثير ينشب في مسائل العقيدة، كمسألة ارتباط الإيمان بالعمل، وهل يعد المسلم مؤمناً وإن لم يؤد الفروض الدينية، ومثل مسألة حرية الإرادة وهل الإنسان مخير في الحياة أو مسير لا حول له ولا قوة. ومثل مسألة صفات الله، هل هي عين الذات الإلهية أو غيرها، وسرعان ما تكونت فرق الجبرية والمرجئة والقدرية والمعتزلة، مما عرضنا له في غير هذا الموضع.

والمهم أن هذه الفرق تجادلت جدالاً طويلاً في هذه المسائل العقيدية وهو جدال رشح لقيام مناظرات عنيفة بينها، وهي مناظرات حشدوا لها كل ما يمكن من أدلة نقلية عن الكتاب والسنة وأدلة عقلية مدارها على البرهان المنطقي. ولم تكن هذه الفرق تتجادل فيما بينها فحسب، بل كانت تجادل أيضاً طوائف من أصحاب الديانات السماوية وغير السماوية، وكانوا يرونهم في جدالهم يستعينون بالمنطق اليوناني وبشعب مختلفة من الفلسفة والثقافات الأجنبية، فطلبوا الوقوف على ذلك كله. وهم من هذه الناحية يعدون أسبق الطوائف العربية في معرفة شئون الفكر الأجنبي ودقائق احتجاجاته.

وعلى هذا النحو انبثق علم الكلام في عصر بني أمية، وانبثقت معه صور خطابية جدلية هي صور المناظرة والمحاورة، وهي صور جديدة ضمت إلى صور الخطابة السياسية والحفلية والدينية، صور كانت تسعى إلى نقض أدلة الخصوم وبيان أنهم مخدوعون فيما يذهبون إليه من آراء. وكان الناس يجتمعون من حول أصحاب هذه الصور في حلقات، يقف فيها المناظر ومعه أصحابه، فيعلن رأيه ويدعمه بكل دليل، ويتقدم خصمه بين أنصاره فيحاول أن يحطم له كل دليل قدمه، وأن يثبت رأيه هو

---

[442] طبري 50/5

[443] طبري 3/6 وما بعدها.

بما يجمع له من براهين. وسنرى مدى ما كان لهذه المناظرات من أثر في رقي الخطابة رقيّاً بعيداً.

خطباء السياسة

نمت الخطابة السياسية في هذا العصر ونهضت نهوضاً عظيماً، إذ دارت على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة، فأيان وليت وجهك في السلم والحرب وجدت الخطباء متراصين في صفوف متلاحقة يخطبون الناس محاولين أن يستميلوهم إلى آرائهم داحضين بكل ما وسعهم آراء خصومهم. وتموج كتب الأدب والتاريخ بما نثروه من خطبهم وأقوالهم وارجع إلى الطبري فستراه لا يعرض رأيك أي رأي دون أن يشفعه غالباً بما خطب به صاحبه وأورد من حجج تؤيده، وكثيراً ما يناقضه خصومه مظهرين ما في رأيه من تمويه.

وليس هناك حزب ولا ثورة كبيرة أو صغيرة إلا وخطباء كثيرون ينبرون للترويج لهذا الحزب، أو تلك الثورة، **فللخوارج خطباؤهم**، وكذلك للشيعة وللزبيريين ولابن الأشعث وغيره من الثوار. وكان يقابل هؤلاء الخطباء المعارضين للدولة خطباء كثيرون يؤيدون بني أمية من ذات أنفسهم أو من ولاتهم وقوادهم. وهناك في أطراف الدولة شرقاً وغرباً خطباء مفوهون يستحثون الجيوش على الجهاد في سبيل الله والتنكيل بأعدائهم تنكيلاً شديداً. وبذلك انتشرت الخطابة السياسية في كل مكان وعلى كل لسان.

ولعل حزباً لم يكثر خطباؤه كما كثروا في الخوارج، إذ كانوا شديدي الحماسة لعقيدتهم، ولم يدعوا لها سراً كما دعا الشيعة في أكثر الأمر، بل دعوا لها جهاراً، شاهرين سيوفهم في وجوه بني أمية وولاتهم. على أنه ينبغي أن نلاحظ أن جمهور خطبهم سقط من يد الزمن ولم يصلنا، لأن الناس من غير بيئتهم كانوا يتحرجون من روايتها، إذ كانوا يرون فيهم ثواراً خارجين على الجماعة، ويظهر أنهم أنفسهم

لم يحرصوا على تسجيلها وروايتها، ومع ذلك فقد بقيت منها بقية احتفظت بها كتب الأدب والتاريخ، وأيضاً فإنها احتفظت، وخاصة كتاب البيان والتبيين، بأسمائهم[444].

وإذا كنا لاحظنا في شعرهم تنفيراً من الدنيا، حتى ليتحول في بعض جوانبه إلى موعظة خالصة فكذلك الشأن في خطبهم، على نحو ما يلقانا في خطبة قطري ابن الفجاءة قائدهم بعد الزبير بن علي، وهو يستهلها على هذا النمط[445]:

" **أما بعد فإني أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة[446]، حفت بالشهوات... مع أن امرأ لم يكن منها في حبرة[447]، إلا أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق من سرائها بطناً، إلا منحته من ضرائها ظهراً، ولم تطله غبية [448] رخاء، إلا هطلت عليه مزنة[449] بلاء، وحري إذا أصبحت له منتصرة أن تمسي له خاذلة متنكرة، وإن جانب منها اعذوذب واحلولي[450] أمر عليه منها جانب وأوبى[451]**".

وتمضي الخطبة وهي طويلة على هذا النحو من الوعظ والترغيب والترهيب، وواضح ما فيها من جمال اللفظ وروعة أسره، وقد اختار لها قطري السجع حتى يؤثر في نفوس سامعيه أقوى تأثيراً، ولم يكتف بالسجع بل أضاف إليه التصوير، كما أضاف الطباق، حتى يبلغ كل ما يريد من تنميق معانيه.

اشتهر من بينهم بالخطابة عبد الله بن يحيى الكندي الملقب بطالب الحق، يصور فيها الخوارج وإخلاصهم لعقيدتهم وتقواهم وزهدهم في الدنيا وجهادهم في سبيل الله مستعذبين للاستشهاد إذ يرون فيه الحياة كل الحياة، الحياة الباقية التي لا تفنى، يقول متحدثاً عن شبابهم:

---

(444) البيان والتبيين 243/1 وما بعدها و 364/2 وما بعدها.

(445) البيان والتبيين 126/2 وعيون الأخبار.

(446) خضرة: ناضرة.

(447) حبرة: سرور.

(448) الطل: المطر القليل . الغبية: المطرة القليلة.

(449) الهطل : المطر الكثير. المزنة: السحابة.

(450) احلول: صار حلواً.

(451) أوبى: من الوباء.

" شبابٌ والله مكتهلون[452] في شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم. ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء[453] عبادة وأطلاح[454] سهر، ينظر الله إليهم في جوف الليل، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه. موصول كلالهم[455] بكلالهم، كلال الليل بكلال النهار. . حتى إذا رأوا السهام قد فوقت[456] والرماح قد أشرعت[457] والسيوف قد انتضبت[458]"، ومضى الشباب منهم قُدُماً، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه، فأسرعت إليه سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء.

وهي صورة رائعة لشباب الخوارج أحكم أبو حمزة إخراجها في ألفاظ طلية تستميل القلوب بعذوبتها، ومعان تحيط بكل ما أراد من تمثيل تقوى الخوارج وإيثارهم لما عند الله من النعيم، وتمثيل اندفاعهم على حياض الموت كل يود أن يكون السابق إلى دار الخلود وأن يموت قَعْصاً بالرماح، وأن تنوشه سباع الحيوان والطير، حتى يستحق رضوان ربه.

وعلى نحو ما كان للخوارج خطباؤهم كان للشيعة خطباء كثيرون، وكانوا على شاكلة خطباء الخوارج ينددون دائماً ببني أمية، وأنهم اغتصبوا الخلافة، وساروا فيها سيرة جائرة عطلوا فيها أحكام الشريعة وما رسمه القرآن ورسوله الكريم. وكانوا لا يزالون يرددون أن أبناء علي هم أصحاب الخلافة الشرعيون بغى عليهم بنوا أمية إذ انتزعوا منهم ميراثهم عن الرسول الكريم. وتدور هذه الأفكار دائماً في

---

[452] مكتهلون: يريد أن لهم رزانة الكهول.

[453] أنضاء: مهزولون.

[454] أطلاح: مكدودون.

[455] الكلال: التعب والإعياء.

[456] فوق السهم: جعل له فوقاً وهو موضع الوتر من السهم يصنع به ذلك إذا أعد للرمي.

[457] أشرعت: سددت.

[458] انتضيت: استلت.

خطابتهم وخطابة أئمتهم، على نحو ما نجد عند الحسين حين اقتـــرب مـــن الكوفـــة واجتمع الناس من حوله ولقيته مقدمات الجيش الذي أرسله له عبيد الله بن زياد، فقد انصرف إلى القوم بوجهه، يقول في كلمة له [459].

" **أما بعد أيها الناس فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله.**

ونحن – أهل البيت – أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما لـــيس لهـــم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان".

وتتطور الأمور ويقتل الحسين، ويتخذ الشيعة من مقتله دليلاً واضحاً على ظلم بنـــي أمية وأنهم يسوسون الأمة سياسة جائرة، فقد استباحوا دم حفيد الرسول **r** . ويتوفى يزيد بن معاوية فيتجمع كثير من شيعة الكوفة بقيادة سليمان بن صـــرد، فيعلنـــون توبتهم من السكوت عن الثأر للحسين وما كان من القعود عن نـــصرته. ويخطـــب سليمان وكثيرون غيره محرضين على الثورة، وهم في تضاعيف ذلك يقررون حق آل البيت في الخلافة لقرابتهم من الرسول مستثيرين الناس على الأمويين لما سفكوا من دم الحسين الطاهر ابن بنت الرسول، من ذلك قول سليمان بن صرد في إحـــدى خطبه[460]:

" **قتل فينا ولدينا ولد نبينا وسلالته وعصارته وبضعة[461] مـــن لحمـــه ودمـــه .. اتخذه الفاسقون غرضاً للنَّبْل .. ألا انهضوا فقد سخط ربكـــم، ولا ترجعـــوا إلـــى الحلائل[462] والأبناء حتى يرضى الله. والله ما أظنه راضياً دون أن تنـــاجزوا مَـــنْ قتله أو تبيروا[463]**".

وأكبر الظن أنه قد **اتضحت لنا المعاني** التي كان يرددها خطباء الشيعة، وهي معان ترد إلى بيان حقوق آل البيت في الخلافة، وأن على المسلمين أن ينـــصروهم، وأن

---

[459] طبري 303/4.

[460] طبري 428/4.

[461] بضعة: قطعة.

[462] جمع حليلة، وهي الزوجة.

[463] تبيروا: تهلكوا.

يأخذوا بثأر من قتله الأمويون منهم. وفي تضاعيف ذلك يحمل خطباؤهم على بني أمية حملات عنيفة مصورين ظلمهم ونقضهم لأحكام الكتاب والسنة. ومن أعلام الخطابة الشيعية زيد بن علي وابنه يحيى.

ولم يعش حزب الزبيريين طويلاً، ولذلك لم يتكاثر خطباؤه، وعبد الله ابن الزبير خطيب هذا الحزب، وكان مفوهاً بليغاً يعرف كيف يخلب الألباب بكلامه، ويستولي على النفوس بحلاوة منطقه، وهو في خطابته يتناول الأمويين بالقدح والتجريح ،وقد استغل مقتلهم للحسين ليبين غدرهم وما يتورطون فيه من آثام. وله مناظرة مع الخوارج تدل على قوة منطقه وحدة ذكائه[464]، وأيضاً له خطبة مشهورة خطبها حين جاءه نعى أخيه مصعب واستيلاء عبد الملك بن مروان على العراق، وهي تصور رباطة جأشه وصدق يقينه، وفيها يقول[465]:

" إن يقتل فقد قتل أبوه وعمه وابن عمه[466]، وكانوا الخيار الصالحين، إنا والله لا نموت حتف أنوفنا[467]، ولكن قعصاً[468] بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف، وليس كما يموت بنو مروان، والله ما قتل منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قط. ألا وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه، ولا يبيد ملكه، فإن تقبل الدنيا على لم آخذها أخذ الأشر[469]البطر، وإن تدبر عني لم أبك عليها بكاء الخرق المهين[470]".

---

[464] طبري 437/4 وما بعدها.

[465] العقد الفريد 412/4 وعيون الأخبار 420/2.

[466] أبوه الزبير قتل عقب موقعة الجمل وعمه عبد الرحمن بن العوام قتل يوم اليرموك وابنه عبد الله قتل يوم الدار انظر أسد الغابة 213/3.

[467] يقال مات حتف أنفه إذا مات على الفراش.

[468] قعصاً: موتاً سريعاً.

[469] الأشر: البطر.

[470] الخرق: الدهش خوفاً. المهين: الحقير.

ولأخيه مصعب خطب مدونة، وقد جعل إحداها آيات قرآنية خالصة[471]، ولأمهما أسماء مع ابنها عبد الله محاورة[472] طريفة حين حاصره الحجاج في مكة وتخاذل عنه الناس.

وإذا تركنا خطباء الأحزاب السياسية **إلى خطباء الثورات** كان أول من نلقاه منهم عبد الله بن حنظلة زعيم ثورة المدينة ضد يزيد بن معاوية، ثم عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لبلاغته في خطابته، وقد ثار على عبد الملك بالشام سنة 69 للهجرة وقضى عليه. ويلقانا بعد ذلك عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث في ثورته على الحجاج، وكان مدرهاً مفوهاً، ومن خطباء ثورته عامر بن وائلة الكناني وعبد المؤمن بن شبث بن ربعي. ولا نصل إلى عصر سلمان ابن عبد الملك حتى يثور عليه قتيبة بن مسلم الباهلي في خراسان حاضّاً الجند على متابعته. ونستقبل مع أوائل القرن الثاني ثورة يزيد بن المهلب على يزيد ابن عبد الملك، وكان خطيباً بليغاً، وطالما خطب في جنوده يحرضهم على أهل الشام.

وكل من سميناهم من هؤلاء الثوار تتناثر خطبهم في الطبري وكتب الأدب، وهي كلها تدور على إثارة الناس ضد بني أمية وبيان ما في حكمهم من ظلم وما يأخذهم به ولاتهم من عسف وكيف أنهم جميعاً عطلوا أحكام الشريعة واستأثروا بالفيء، حتى لنرى يزيد بن المهلب في بعض خطبه يجعل جهادهم أعظم ثواباً من جهاد الترك و الديلم[473].

وكان يقف في الصف المقابل من هؤلاء الخطباء المعارضين **خطباء بني أمية،** يتقدمهم الخلفاء، ثم الولاة والقواد، وممن اشتهر من الخلفاء بإحكام الصنعة في الخطابة مع جهارة المنطق وطلاوة الكلم معاوية وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز.

---

[471] البيان والتبيين 299/2 والعقد 135/4.

[472] طبري 30/5.

[473] طبري 335/5.

وخطابة معاوية قسمان: قسم سياسة خالصة، وقسم مواعظ وترغيب وترهيب، وهو في القسم الأول يدعو إلى الطاعة ملوِّحاً بما في يديه من قوة ومن عطايا وهبات، ومن خير ما يمثل ذلك خطبته في عام الجماعة سنة 41 للهجرة بالمدينة[474]. وهو في القسم الثاني ينفر من الدنيا والتعلق بمتاعها الزائل، ومن خير ما يمثل هذا القسم خطبة رواها له الجاحظ[475]، وقد اتهم نسبتها إليه وقال إنها حرية بأن تنسب إلى علي بن أبي طالب. والجاحظ بهذا الاتهام يقسو على معاوية، وكأنه نسى أنه من كُتَّاب الوحي وأنه من جلة الصحابة. وتتردد في خطابة عبد الملك مطالبة الرعية بالطاعة لخليفتهم، مع التهديد والوعيد لمن تحدثهم نفوسهم بالخروج عليه[476]، أما عمر بن عبد العزيز فخطبه مواعظ خالصة، يتحدث فيها عما ينتظر الإنسان من الموت وانتقاله إلى دار الخلود ومحاسبته على ما قدمت يداه على شاكلة قوله في كلمة له[477]:

" **أيها الناس! إنكم لم تخلقوا عبثاً ولن تتركوا سدىً، وإن لكم معاداً يحكم الله نبيكم فيه، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء وحرم الجنة التي عرضها السماوات والأرض. واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف الله اليوم وباع قليلاً بكثير وفائتاً بباق، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلفها من بعدكم الباقون، كذلك حتى تردوا إلى خبر الوارثين**".

كتاب الدواوين

معروف أن عمر أول من دون الدواوين في الإسلام، وتؤكد الروايات التي رافقت صنيعه بأنه استعار هذا النظام من الفرس الأعاجم[478]، إذ أحس حاجته إلى سجلات يدون فيها الناس وأعطياتهم وأموال الفيء والغنائم، وبذلك وضع أساس ديواني

---

[474] العقد الفريد 81/4.

[475] البيان والتبيين 59/2 وما بعدها.

[476] العقد الفريد 401/4 والأمالي 12/1.

[477] البيان والتبيين 120/2 وعيون الأخبار 246/2.

[478] الوزراء والكتاب الجهشياري ص 16.

الخراج والجند، حتى إذا ولى معاوية الخلافة وجدناه يتخذ ديوانين هما ديوان الرسائل، وديوان الخاتم[479]، وفيه كانت تختم الرسائل الصادرة عنه، حتى لا يغير فيها من يحملونها إلى الولاة. وظل ديوان الخراج يكتب في الشام ومصر بالرومية وفي العراق بالفارسية إلى عصر عبد الملك ابن مروان، إذ نراه يطلب إلى سليمان بن سعد الحبشي كاتبه على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان الشام الرومي[480]، وفي الوقت نفسه يطلب الحجاج إلى صالح ابن عبد الرحمن كاتبه هو الآخر على ديوان الرسائل أن يترجم ديوان العراق الفارسي[481]، ويظهر أن ديوان مصر تحول سريعاً إلى العربية، أما ديوان خراسان فتأخر نقله إلى عصر[482] هشام بن عبد الملك.

وليس معنى ذلك أن الأجانب خرجوا من الدواوين منذ عصر عبد الملك، فقد أخذوا يحسنون العربية ويشاركون فيها، وكانت هذه المشاركة منذ أول الأمر داعية لأن يطلب العرب معرفة ما يتصل بهذه الدواوين من نظم، وما تواصى به أهلها وخاصة من الفرس في إتقان العمل بها، ولعل ذلك ما جعل الجهشياري يقدم لكتابه "الوزراء والكتاب" بمقدمة طويلة عن نظم الدواوين الفارسية.

ونحن في الواقع إنما يهمنا ديوان الرسائل، لأن أصحابه هم الذين كانوا يدبجون الكتب على ألسنة الخلفاء والولاة، وبحكم وظيفتهم كانوا يختارون من أرباب الكلام وأصحاب اللَّسَن والبيان، وكان كل منهم يحاول أن يظهر براعته ومهارته وحذقه في تصريف الألفاظ وصياغة المعاني، حتى يروق من يكتب على لسانه، وينال رضاه واستحسانه.

وعلى هذا النحو تكونت طبقة كبيرة من كتاب محترفين، تتابعت أجيالهم على مر الزمن في هذا العصر، وكل جيل سابق يُسْلم إلى خلفه صناعته، وكل جيل لاحق

---

[479] نفس المصدر ص 24.

[480] نفس المصدر ص 40.

[481] الجهشياري ص 38.

[482] الجهشياري ص 67.

يحاول أن يضيف إلى براعة سلفه براعة جديدة. وكانوا كثيرين، إذ لم تختص بهم دمشق، فقد كان لكل وال وقائد كاتب، وأحياناً كان يتخذ الوالي في العمل الكبير أو الولاية الكبيرة طائفة من الكتاب. وكثيراً ما كان يطمح كتَّاب الولايات إلى أن يلفتوا ببلاغهم من يكتبون إليهم من الخلفاء، حتى يعينوهم في دواوينهم. واشتهر الحجاج بأنه كان كثير التعهد لرسائل قواده، حتى إذا لفتته رسالة ببلاغتها سأل عن كاتبها وطلب مثوله بين يديه[483]، وكان إذا أعجبه كاتب وملأ نفسه ربما أرسل به إلى عبد الملك ابن مروان ليسلكه بين كتابه، على نحو ما صنع بمحمد[484] بن يزيد الأنصاري.

ولم يعرض علينا الجهشياري آثار هؤلاء الكتاب إلا قليلاً، فقد اكتفى بعرض أسمائهم موزعاً لهم على عهود الخلفاء، وفي عهد كل خليفة يسرد أسماء كتاب الولاة. وإذا رجعنا فيه إلى أيام معاوية وجدناه يذكر بين كتَّابه عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لفصاحته وروعة منطقه وجهارة صوته، وكان خطيباً لا يبارَى[485]. ولم يُؤْثَرْ عنه شيء من الرسائل في عهد معاوية، وقد روى له الجاحظ رسالة في عهد عبد الملك حين خرج عليه، إذ كتب إليه عبد الملك يتوعده، فأجابه عمرو[486]:

" أما بعد فإن استدراج النِّعَم إياك أفادك البَغْي، ورائحة القدرة أورثتك الغفلة. زجرت عما واقعت مثله، وندبت إلى ما تركت سبيله، ولو كان ضعف الأسباب يؤيس الطلاب ما انتقل سلطان ولا ذلَّ عزيز. وعما قليل تتبين مَنْ أسير الغفلة، وصريع الخدع، والرَّحِم تعطف على الإبقاء عليك مع دفعك ما غيرك أقوم به منك والسلام".

---

[483] البيان والتبين 387/1 والطبري 187/5 والمبرد ص 158.

[484] طبري 208/5.

[485] انظر البيان والتبيين 315/1 وراجع فهرسه.

[486] البيان والتبيين 87/4.

والرسالة على قصرها تصور مهارته البيانية وقدرته على التعبير الموجز السريع مع طلاوة اللفظ وحسن الديباجة. وكان يتولى ديوان الرسائل لمعاوية وابنه يزيد إلى عبيد الله بن أوس الغَسَّاني.

ونمضي إلى عصر عبد الملك بن مروان، فنجد بين كتَّابه رَوْح بن زِنْباع الجُذامي، وقد وصفه عبد الملك بأنه فارسي[487] الكتابة، وليس بين أيدينا رسائل مأثورة له، وروى له الجهشياري وغيره كلمة قالها لمعاوية وقد غضب عليه يوماً لأمر كان منه، وهمَّ به، فقال له[488]:

" لا تُشْمِتَنَّ بي عدواً أنت وَقَمْتَه[489]، ولا تسوءنَّ بي صديقاً أنت سررته، ولا تهدمن مني ركناً أنت بنيته، هلا أتى حلمك وإحسانك على جهلي وإساءتي؟".

فعفا معاوية عنه.

ورأس كتَّاب عبد الملك وأبنائه من بعده سليمان بن سعد الخُشَنِي كاتب رسائله الذي حول الدواوين من الرومية إلى العربية، ولم تنص المصادر القديمة على ما كتب به بين يدي الخلفاء. ومما لا ريب فيه أنه كان من أرباب البلاغة والبيان.

وإذا ولَّينا وجوهنا **نحو العراق** والشرق رأينا الكتَّاب يعنون برسائلهم عناية لا تقل عن عناية كتاب دمشق.

الكتابة السياسية تقترن بها غايات بلاغية، وكل كاتب يأتي من هذه الغايات بما يتفق وذوقه. ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن يحيى بن يَعْمر – أحد علماء اللغة الأوائل – كان يكتب ليزيد بن المهلب في ولايته على خراسان للحجاج، ولما انتصر يزيد على ملك الترك في "باذغيس" انتصاراً حاسماً أمره أن يكتب إلى الحجاج بالفتح فكتب[490]:

---

[487] الجهشياري ص 35.

[488] البيان والتبيين 358/1 والجهشياري ص 35 والأمال 259/2.

[489] وقمه: فهره وأذله.

[490] البيان والتبيين 377/1 والمبرد ص 158 والطبري 187/5.

" إنا لقينا العدوَّ، فمنحنا الله أكتافهم، فقتلنا طائفة، وأسرنا طائفة، ولحقت طائفة بعرائر[491] **الأودية وأهضام**[492]**الغيطان، وبتنا بعُرْعُرَةِ**[493] **الجبل وبات العدو بحضيضه**[494]".

وواضح أن ذوق يحيى بن يعمر اللغوي أدّاه إلى أن يسوق رسالته في هذه الألفاظ الغريبة، وشجعه على ذلك أنه كان يعرف ذوق الحجاج واستحسانه لأوابد الألفاظ، على نحو ما قدمنا في غير هذا الموضع. وفعلاً راعت الرسالة الحجاج، فقد روى الرواة أنه حين قرأها قال: ما يزيد بأبي عذرة هذا الكلام. فقيل له: إن معه يحيى بن يعمر، فكتب إلى يزيد أن يُشْخصه إليه، فلما أتاه سأله عن مولده فقال له: الأهواز، فسأله: أنَّى لك هذه الفصاحة؟ قال: أخذتها عن أبي[495].

وعلى هذا النحو كان كتاب الولاة والقواد في الشرق يحبرون رسائلهم، كل حسب فصاحته وذوقه وقدرته البيانية. وكان ديوان الحجاج نفسه أشبه بمدرسة كبيرة يتخرج فيها الكتاب على يد رئيسه صالح بن عبد الرحمن الذي نقل الدواوين من الفارسية إلى العربية، وتلقانا نصوص تدل على أنهم كانوا يُعْنَون بالطوامير والقراطيس[496] التي كانوا يكتبون فيها، كما كانوا يعنون بنفس كتابتهم وخطوطهم، وفي الجهشياري أن الوليد أول من كتب من الخلفاء في الطوامير وأنه أمر بأن تعظَّم كتبه ويجلل[497] الخط الذي يكتب به، وكان يقول: تكون كتبي والكتب إليّ خلاف كتب الناس بعضهم إلى بعض[498]. ويظهر أن الكتاب غالوا في النفقة على

---

(491) عرائر الأودية: أدغالها.

(492) أهضام الغيطان: مداركها. والغيطان: جمع غائط وهو المستوى من الأرض.

(493) عرعرة الجبل: أعلاه.

(494) الحضيض: القرار من الأرض عند منقطع الجبل.

(495) البيان والتبيين 378/1.

(496) الطوامير والقراطيس: الصحف الكبيرة.

(497) يجلل: يعظم.

(498) الجهشياري ص 47.

كتبهم، حتى لنرى عمر بن عبد العزيز يأمر بالاقتصاد في القراطيس، طالباً من الكتاب أن يوجزوا[499]، وكأنما أصبح الإطناب ظاهرة عامة.

ونحن لا نصل إلى ديوان هشام بن عبد الملك(105-124) حتى نحس أنه كان مدرسة كبيرة، وهي مدرسة رَقِيَ فيها النثر الفني لهذا العصر إلى أبعد غاية كانت تنتظره، إذ كان يتولى ديوان الرسائل سالم مولى هشام، وأخذ يخرج غير كاتب، وقد اشتهر له تلميذان أحدهما من بيته هو ابنه عبد الله والثاني من غير بيته، هو صهره وختنه عبد الحميد.

وكان سالم يجيد اليونانية، ونقل منها – كما مر بنا – بعض رسائل لأرسطاطاليس، نرى صاحب الفهرست يجعله أحد البلغاء العشرة الأول[500]، ويقول عنه إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة[501]. ومن يرجع إلى الجهشياري يجده ينص على أن هشاماً كان يأمره بالكتابة عنه إلى ولاته في الشئون التي تعرض له[502].

فالخليفة لم يعد يملي كتبه على كتّابه كما كان الشأن في القديم، بل أصبح الكاتب يكتب الرسالة، ثم يعرضها عليه، ومن ثَمَّ لم يعد الضمير في الرسالة ضمير متكلم، بل أصبح ضمير غائب، فالكاتب يقول في مستهل رسالته:

" بلغ أمير المؤمنين كتابك" ونحو ذلك. ومن هنا كنا نزعم أن كتب هشام بصفة عامة لم يكتبها هو وإنما كتبها سالم وتلميذاه عبد الله وعبد الحميد. وقد ينص على التلميذين، أما سالم فقلما نصت المصادر على اسمه. وتحول عبد الحميد من ديوان هشام إلى ديوان مروان بن محمد عامله على أرمينية.

ولعل من الطريف أن الرسائل التي صدرت عن ديوان هشام تَطْبَعَ بطوابع أسلوبية واحدة، إذ تجري في أسلوب من الازدواج ومن اللغة الجزلة الرصينة.

---

[499] الجهشياري ص 53.

[500] الفهرست ص182.

[501] الفهرست ص 171.

[502] الجهشياري ص 62.

وقد أُثرت لسالم رسالة يشكر بها بعض إخوانه على صنيع قدَّمه إليه، وهي على هذا النمط[503].

" أما بعد فقد أصبحت عظيم الشكر لما سلف إليّ منك، جسيم للرجاء فيما بقي لي عندك. قد جعل الله مستقبل رجائي منك عوناً لي على شكرك، وجعل ما سلف إليّ منك عوناً على مؤتنف الرجاء فيك".

وفي الرسالة ما يصور دقة تفكيره ولطف مداخله إلى ما يريد من إخوانه، فهو يشكر ويرجو، ويجعل ما سلف آية على تحقيق رجائه. عبد الحميد[504] الكاتب

اسم أبيه يحيى بن سعيد، من موالي بني عامر بن لؤى، وهو فارسي الأصل. ويقول أكثر مَنْ ترجموا له إنه من أهل الأنبار بالعراق[505] وسكن الرقة. وكان في أول أمره يتنقل في القرى معلماً في كتاتيبها، وعرف في نفسه فصاحة ومهارة بيانية، فالتحق بديوان هشام بن عبد الملك، وأُعْجب به سالم فأصهر إليه، وما زال به حتى خرَّجه كاتباً لا يبارى. وعرفه مروان ابن محمد، وكان عاملاً لهشام، كما مر بنا، على أرمينية، فاتخذه كاتباً له. ولعلنا لا نخطئ في الحكم إذا قلنا إن ما أثبته الطبري من رسائل لمروان في ولايته إلى هشام ومن تلاه من الخلفاء وإلى أبناء عمومته إنما كان بقلم عبد الحميد. ويتولى مروان الخلافة (127-132هـ) فيصبح عبد الحميد رئيس ديوانه، وتتوالى رسائله الرائعة، وعبثاً حاول أن يلم الشَّعَثَ حين انقضَّت جيوش أبي مسلم من خراسان، حتى إذا هزم مروان في موقعة الزَّاب ولَّى وجهه معه إلى مصر حيث قُتلا معاً في معركة بوصير.

---

(503) انظر جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت 431/2.

(504) انظر في عبد الحميد الوزراء والكتاب الجهشياري ص 72 وما بعدها ووفيات الأعيان لابن خلكان(طبعة المطبعة الميمنية)307/1 الفهرست ص 170 والمسالك والممالك للإصطخري (طبع ليدن) ص 145 والبيان والتبيين 208/1، 251، 29/3 وعيون الأخبار 26/1 والصناعتين العسكري (طبعة الحلبي) ص 69 وصبح الأعشى 85/1، 195/10 واليتيمة الثعالبي (طبعة الصاوي) 137/3 والجزء الثاني من جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين ص 40 وما بعدها .

(505) انظر الفهرست ص 170 حيث يقول إنه من أهل الشام.

وهكذا كان وفياً لمروان حتى الأنفاس الأخيرة من حياته. وزعم بعض الرواة أنه فَرَّ بعد موقعة الزَّاب على وجهه،واختفى مدة، ثم وقف عليه السفاح فأحضره وعذبه، حتى مات. وزعم آخرون أنه اختفى عند ابن المقفع قبل عثور السفاح عليه. وهي مزاعم لا تؤيدها الروايات الوثيقة، ولعل مما يدل على أنه قتل في مصر أننا نجد بها أبناءه وأحفاده، وقد استخدمهم بعض الولاة في دواوينهم[506].

وعبد الحميد بدون ريب أبلغ كتاب هذا العصر وأبرعهم، وقد سماه الجاحظ في بيانه عبد الحميد الأكبر، ونصح الكتاب أن يتخذوا كتابته نموذجاً لهم[507]، وظلت شهرته مدوية على القرون حتى قيل:" فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد" وفيه يقول ابن النديم:" عنه أخذ المترسِّلون ولطريقته لزموا، وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل". وقد أجمع كثيرون على أنه أول من استخدم التحميدات في فصول الكتب، وكأنه تأثر في ذلك بتحميدات واصل وغيره من الوعاظ، وقد احتفظ كتاب المنظوم والمنثور لابن طيفور بطائفة منها لا تقل كمّاً ولا كيفاً عن تحميد واصل الذي مر بنا في أول خطبته المنزوعة الراء. ولا تلفتنا عند عبد الحميد براعته الأدبية في صنع رسائله فحسب، وإنما يلفتنا أيضاً أنه تحول بطائفة منها إلى رسائل أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، محاكياً في ذلك ما كان يعرفه من رسائل الفرس الأدبية التي أُثرت عن الساسانيين والتي يقال إنه كان أحد نقلتها إلى العربية[508]. وليس معنى ذلك أنه وقف عند النقل والترجمة، فقد مضى يحاكي هذه الرسائل لا محاكاة طبق الأصل وإنما هذه المحاكاة التي تنهي إلى التمثل وصنع الأعمال الأدبية المبتكرة، من ذلك رسالته إلى الكتاب[509] وهي رسالة عامة ليست موجَّهة إلى شخص معين أو كاتب بعينه، إنما هي موجهة إلى هذه الطائفة التي

---

[506] الجهشياري ص 82.

[507] رسائل الجاحظ نشر فنكل ص 42.

[508] الصناعتين ص 69 والبيان والتبيين 29/3.

[509] الجهشياري ص 73 وصبح الأعشى 85/1.

أصبح لها كيان واضح في حياة الدولة، وقد وصف فيها عبد الحميد صناعة الكتابة وأهمية الكتّاب في تدبير الحكم وما ينبغي أن يتحلوا به من آداب ثقافية وأخرى خلقية وسياسية تتصل بالخلفاء والولاة والرعية. ونحن لا نقرنها إلى ما استهل به الجهشياري كتابه" الوزراء والكتاب" من وصايا كان يوصى بها ملوك الفرس ووزراؤهم الكتاب حتى نحس أن عبد الحميد تأثر هذه الوصايا في رسالته التي تعد دستوراً دقيقاً لوظيفة الكاتب وما عليه من حقوق للخلفاء والولاة للرعية في سياستها وضبط شئونها في الخراج وغير الخراج، ونراه يرسم فيها ما ينبغي أن يحسنه الكتَّاب من ضروب العلم والثقافة، يقول:

" **فنافسوا، معشر الكتاب، في صنوف العلم والأدب، وتفقهوا في الدين، وأبدعوا بعلم كتاب الله عز وجل، والفرائض، ثم العربية، فإنها ثقاف ألسنتكم، وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تَسْمون إليه بهممكم. ولا يضعفن نظركم في الحساب، فإنه قوام كتّاب الخراج منكم**".

فهو يطلب إليهم أن يتجملوا بحُلي العلم والأدب، ويصرح بأن عليهم أن يوسعوا ثقافتهم في الدين والفرائض حتى يقفوا على أحكام الشريعة فيما يتصل بمعاملة أهل الذمة ومعاملة المسلمين أنفسهم في شئون الخراج. وقد طلب أن يضيفوا إلى ذلك إتقاناً لعلم الحساب، وعيَّن لهم الينابيع التي تعينهم على إحسان التعبير عما في أنفسهم وعلى رأسها القرآن الكريم ثم الأشعار ليعرفوا غريبها ومعانيها. ومضى فطلب إليهم أن يتثقفوا بتاريخ العرب، وتاريخ العجم وأحاديث ملوكها وسيرها، لينتفعوا بذلك في كتاباتهم السياسية. ونراه في تضاعيف رسالته يطلب إلى الكتاب أن يؤلفوا بينهم ما يشبه النقابة في عصرنا، فقد حضهم على الأخذ بيد من ينبو به الزمان منهم ومساعدته، حتى يعود إلى ما كان عليه من الرفه في العيش.

ولعبد الحميد بجانب هذه الرسالة رسالة في وصف الإخاء رواها ابن طيفور[510] وهي في رأينا تكملها، فقد عرض في رسالة الكتاب لأخوتهم وما ينبغي أن يجمعهم من إلف الوداد والصداقة، ومضى في هذه الرسالة يفصل الحديث في معنى الإخاء وحاجة الأفراد إليه مبيناً دعائمه التي تكفل له البقاء وتجعل حياة الناس صفاء مستحباً وعشرة عذبة، بما يبر به الأخ أخاه حين تنزل به عوارض الأقدار وحوادث الزمان. وبذلك تدخل الرسالة في هذا الضرب من الأدب الأخلاق الذي شاع في بلاط الساسانيين، وصدر عنه ابن المقفع في كتابه الأدب الكبير والأدب الصغير[511].

وعلى نحو ما تتضح ثقافة عبد الحميد بالأدب الأخلاقي الساساني في الرسالتين السابقتين تتضح ثقافته بأدب القوم السياسي في رسالته الطويلة التي كتبها على لسان مروان إلى ابنه[512] وولى عهده عبد الله حين أمره بمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الصفري، وكانت ثورته قد استفحلت بالعراق والموصل سنة 128. ولا نكاد نلمُّ بهذه الرسالة حتى نراها طويلة طولاً غير مألوف، إذ امتدت إلى نحو أربعين صحيفة من القطع الكبير. وهو يستهلها بمقدمة يذكر فيها اختيار أمير المؤمنين له في محاربة الضحاك وأصحابه الذين انتهكوا حرمة الإسلام وعاثوا في الأرض مستحلين دماء المسلمين ،وأنه رأى أن يكتب إليه بعهد يؤدي به حق الله الواجب عليه في إرشاده. ويمضي العهد بعد ذلك موزعاً على موضوعات ثلاثة كبيرة، وكل موضوع يتشعب شعباً كثيرة، وكل شعبة تستقل بفقرة محدودة تحيط بدقائقها. وأول هذه الموضوعات يتناول فيه عبد الحميد آداب قائد الجيش في سلوكه مع نفسه ومع حاشيته ورؤساء جنده. ويتناول الموضوع الثاني سياسته في لقاء العدو وما ينبغي أن يتخذ من عيون ترصد حركاته. ويفيض في بيان الخصال التي ينبغي أن يتصف بها رؤساء جيشه والأخرى التي ينبغي أن تتصف بها طلائعه.

---

[510] انظر جهرة رسائل العرب 434/2.

[511] انظر كتابته " الفن ومذاهبه في النثر ص 259 وما بعدها.

[512] صبح الأعشى 195

وفي الموضوع الثالث يتناول نظام الجيش في الحرب، ويقول إنه ينبغي أن لا يسير إلا في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة أو مؤخرة،ويصور له كيف يعد جيشه حين اللقاء وكيف يقسمه إلى وحدات، كل وحدة مائة رجل عليهم شخص من أهل المروءة والنجدة. ويشير إلى ما ينبغي أن يتحلى به خازن أمواله من خلال. وينصحه أن يتخذ كل وسيلة لإفساد رجال العدو عليه بمكاتبتهم ووعده لهم بالمنالات والولايات. ودائماً ينصحه بالتقوى والاعتماد على الله في غدوِّه ورواحه ومنازلة خصمه. ويختم الرسالة بالدعاء له.

والرسالة على هذا النحو دستور كبير لقائد الجيش، وهو دستور استعان فيه عبد الحميد بما قرأه في أدب الفرس السياسي من وصايا وتعاليم، كانوا يديرونها في كتبهم، هي خلاصة تجاربهم في حروبهم وسياسة حكامهم وملوكهم، وقد شفعها بتعاليم الإسلام الزكية وطَّرد له فيها أسلوبه المرن الشفاف الذي لا يحجب شيئاً من الفكرة، بل يوضحها من جميع شعبها وأطرافها بما أتيح له من بيان باهر استطاع أن ينفذ من خلاله إلى صياغة محكمة، وهي صياغة لا تكاد تفترق في شيء عن صياغة الحسن البصري وواصل بن عطاء وأضرابهما من الوعاظ الذين ألانوا اللغة ومرَّنوها لأداء معانيهم، وكأنما تحول إلى عبد الحميد أسلوبهم، حتى أصبح لا يفترق عنهم في شيء، فهو يزاوج في ألفاظه، وهو يتخذ إلى ذلك طريقتهم في الترادف، موشّياً كلامه بالصور والطباقات والمقابلات الكثيرة.

وقد حاول طه حسين أن يصل عبد الحميد بالثقافة اليونانية[513]، معتمداً في ذلك على تقسيمه الجيش إلى وحدات كل وحدة مائة على شاكلة ما كان معروفاً عند اليونان، وعلى أنه بالغ في استخدام الحال ونشرها في كلامه. ويضعف الحجة الأولى أن عبد الحميد كان يعيش في الشام، وكانت الحروب قائمة بين العرب والبيزنطيين منذ الفتوح، وكان العرب بعامة يعرفون نظم الجيوش عند البيزنطيين والفرس جميعاً،

[513] من حديث الشعر والنثر ص 40 وما بعدها.

فمعرفة عبد الحميد بذلك لا تصله مباشرة بالثقافة اليونانية. أما مسألة استخدامه الحال فلم يوضح طه حسين كيف كانت خاصة من خصائص اللغة اليونانية، ومعروف أنها من خواص اللغة العربية، وهي شائعة في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، ومرت بنا قطع من كتابات سالم وابنه عبد الله، وفيها الحال واضحة. والحق أن عبد الحميد إذا كان قد اتصل بالثقافة اليونانية، فعن طريق غير مباشر، نقصد طريق أستاذه سالم الذي كان يحسنها وينقل عنها أحياناً على نحو ما مر بنا.

وليس من شك في أن صلة عبد الحميد بالثقافة الفارسية أوضح منها بالثقافة اليونانية. وكان يضيف إلى ذلك ثقافة واسعة بالشعر العربي، وهي تتضح في رسالة ولي العهد السالفة حين نراه يقف ليفصل له ما ينبغي أن تكون عليه أسلحته وخيله من صفات، وكأنه ينثر أشعار أوس بن حجر وغيره من الجاهلين فيها نثراً. ومن هذا الباب رسالته[514] التي وصف بها الصيد، وجوارحه ومعاركها مع الظباء والآرام وحمر الوحش، وما وقعوا عليه من بعض الغدران والرياض وما أصابهم من بعض الأمطار، وكأنه يتحدث بلسان امرئ القيس وزهير ومن على شاكلتهما من الشعراء الجاهليين.

والحق أن النثر الفني تطور تطوراً واسعاً عند عبد الحميد، فقد تحولت الرسائل عنده إلى رسائل أدبية حقيقية تكتب في موضوعات مختلفة من الإخاء وقيادة الحروب والصيد. وهي لا تكتب في ذلك كتابة موجزة، فلم تعد الكتابة وحدها كافية، بل أصبح أساساً فيها أن تسند بالتفنن في القول وتشعيب المعاني معتمدة على ثقافات مختلفة: أجنبية وعربية. وأخذت تزحم الشعر وتحاول أن تقتحم عليه ميادينه أو على الأقل بعض هذه الميادين، إذ نرى عبد الحميد يجري قلمه في وصف الخيل والسلاح ووصف الصيد. ودائماً تروعنا براعته البيانية، ولا نستطيع أن ننقل إلى القارئ إحدى رسائله الأدبية الطويلة ليتبين هذه البراعة، غير أنه ينبغي أن لا

---

[514] جمهرة رسائل العرب 544/2.

نمضي دون تقديم نموذج من كتابته، ونحن نسوق للقارئ هذه الرسالة[515] التي كتب بها إلى أهله يعزِّيهم عن نفسه، وهو منهزم مع مروان:

" أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها، فمن درت[516] له بحلاوتها، وساعده الحظ فيها سكن إليها ورضي بها، وأقام عليها، ومن قرصته بأظفارها، وعضته بأنيابها، وتوطأته بثقلها، قلاها[517] نافراً عنها، وذمها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً منها، وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من درها أفاويق[518] استحلبناها، ثم شمست[519]منا نافرة، وأعرضت عنا متنكرة، ورمحتنا[520] مولية، فملح عذبها، وأمَّر حلوها، وخشن لينها، ففرَّقتنا عن الأوطان، وقطَّعتنا عن الإخوان، فدارنا نازحة، وطيرنا بارحة[521]، قد أخذت كل ما أعطت، وتباعدت مثلما تقرَّبت، وأعقبت بالراحة نصباً[522]، وبالجذل[523] هما، وبالأمن خوفاً، وبالعز ذلاً، وبالجدة[524] حاجة، وبالسراء ضراء، وبالحياة موتاً، لا ترحم من استرحمها، سالكة بنا سبيل من لا أوبة له، منفيين عن الأولياء، مقطوعين عن الأحياء".

والرسالة تحمل جميع خصائص عبد الحميد التي تميز بها في أسلوبه ومعانيه، فالألفاظ منتخبة وليس فيها توعر ولا غريب وحشي، وإنما فيها العذوبة والحلاوة. والمعاني غزيرة مرتبة ليس فيها غموض ولا خفاء، وإنما فيها الوضوح وانكشاف الدلالة. وهو يُعْني بالترادف في أسلوبه ترادفاً ينتهى به إلى ازدواج واضح، ازدواج

---

[515] الجهشياري ص 72.

[516] درت: من لدر وهو اللين.

[517] كرهها وأبغضها.

[518] الأفاويق: ما يتجمع في الضرع من اللبن.

[519] شمست: من شمس الفرس إذا جمح.

[520] رمحتنا: من رمحه الفرس إذا ركله.

[521] الطير البارحة: التي تمر من اليمين إلى اليسار، والعرب القدماء كانوا يتشاءمون بها.

[522] نصباً: تعباً.

[523] الجذل: السرور.

[524] الجدة: الميسرة.

من شأنه أن يؤكد المعاني بما يحمل من معادلات موسيقية تثبتها في الذهن وتجلوها جلاء تامّاً. وهو يضيف إلى ذلك حلى من طباقات وتصويرات تضفي على أسلوبه روعة بيانية خلابة، بل إننا لا ندقق في القول حين نزعم أنه يضيف هذه الحلي، فإنها عنده جزء لا يتجزأ من جوهر الكلام، وكأنها سداه ولحمته. والحق أن عبد الحميد أوفى بالكتابة الأدبية في العصر الأموي على كل ما كان يُنْتَظر لها من رقي وإبداع فني.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	3
الباب الأول – العصر الإسلامي	4
الفصل الأول	
عصر صدر الإسلام	6
أثر القرآن في اللغة	10
أثر القرآن في الأدب	14
أثر الحديث الشريف في اللغة والأدب	16
من أهم آثار الحديث الشريف في اللغة والأدب	18
الفصل الثاني	
موقف الإسلام من الشعر	22
موقف الرسول (ص) من الشعر	23
موقف الخلفاء الراشدين من الشعر	26
مزاعم الأعداء على موقف الإسلام من الشعر	27
الفصل الثالث	
شعر الفتوح	37
الشعراء المخضرمون ومدى تأثرهم بالإسلام	43
القيم الجاهلية والإسلامية في همزيه حسان	53
نظرة عامة في شعر حسان	63
كعب بن زهير	66
لبيد	82
الحطيئة	89
النابغة الجعدي	94
الفصل الرابع	
النثر وتطوره في العصر الإسلامي	100
تطور الخطابة	101
خطابة الرسول (ص)	108

خطابة الخلفاء الراشدين 114
الكتابة 122

الباب الثاني
العصر الأموي 129
الفصل الأول
أغراض الشعر في العصر الأموي 130
الغزل 131
الغزل اللاهي الحسي الصريح 132
الغزل العذري العفيف 136
الخصائص الموضوعية 142
الخصائص الفنية 143

المدح 152
مدح الخلفاء 154
مدح الولاة – مدح القضاة وأصحاب الشرطة وعمال الخراج ....
المديح السياسي 166
خصائص شعر المديح 178

النقائض 185
معناها – أسبابها ....
عوامل سياسية 191
عوامل اجتماعية 191
عوامل عقلية 191
مقوماتها .....
خصائص شعرها 192

الزهد 201
تيار الزهد – شعر الزهد .....
التذكير بالموت 204
التذكير بالآخرة 206
التوكل على الله 207
الدعوة إلى تقوى الله 209
ذم الخمر وشاربها ....

الدعوة إلى الصلاة 211
الأدعية والابتهالات والمناجاة 213
الخصائص الفنية والموضوعية لشعر الزهد 215
انتشار الرجز 215
السهولة 218
انتشار الحكم 219

الفصل الرابع
النثر الفني وتطوره في العصر الأموي 220
ازدهار الخطابة 221
خطباء السياسة 226